دعـــوة

رئيس التحرير

في الندوة التي عقدها مؤخراً بعض المثقفين العرب في سورية وبحثوا فيها امكانات تحقيق الوحدة العربية[1] ، أشار احد المتحدثين الى أن "الوحدة العربية هي مطلب أساسي من مطالب الشعب العربي ، ينبغي تحقيقه لا لمواجهة اسرائيل والاستعمار بقوة عربية موحدة وحسب ، بل لتوفير شروط اقامة المجتمع العربي التقدمي الحر". فحتى لو كانت اسرائيل غير موجودة فوق الأرض العربية ، فان المطلب الوحدوي يظل قائماً .

وقد أشار البيان الذي اذاعته القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي عن أعمال المؤتمر القومي الاستثنائي التاسع — الذي عقد في مطلع شهر ايلول (سبتمبر) الماضي — الى اسباب النكسة التي أصابت الأمة العربية من عدوان اسرائيـــل الأخير فقال :

---

(١) من المتوقع أن يكون نص هـــذه الندوة قد نشر في عدد شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٧ من مجلة « دراسات عربية » التي تصدر في بيروت .

« أن السبب الرئيسي في وقوع هذه النكسة ، بل وفي جميع النكبات المصيرية التي تواجهها الأمة العربية ، يكمن أساساً في واقع التجزئة » .

« ومن هنا فان الرد الحاسم على الوجود الاستعماري الصهيوني الرجعي في الوطن العربي ، والقضاء على أهدافه المرحلية والبعيدة ، وتصفية مصالحه ومرتكزاته ، يتمثل أساساً في قيام خطوات وحدوية جديدة ، تكون قادرة على توفير قاعدة مادية اقتصادية وبشرية وعسكرية ، وتكون النواة المؤهلة لدفع مسيرة الثورة العربية باتجاه تحقيق هدفها الكبير في اقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد » .

كما تحدث البيان عن وجوب قيام الوحدة العربية فقال :

« إن حالة التمزق والتخلف وتشتيت امكانات الشعب العربي وطاقاته من خلال واقع التجزئة ، وان ضرورة الرد على التحديات الأمبريالية الصهيونية يجعلان من الوحدة العربية ، في اطارها ومستواها الممكنين ، ضرورة استراتيجية ودفاعية ملحة ، بالاضافة لكونها هدفاً قومياً مصيرياً. وفي هذا المجال يتأكد دور الأنظمة التقدمية في ضرورة السير بخطوات وحدوية متقدمة .

«ان قيام دولة عربية موحدة تجمع الأقطار العربية التقدمية ، يعني قيام قاعدة بشرية واقتصادية ، قادرة على مواجهة التحديات الاستعمارية والصهيونية ، وقادرة على أن تغذي مسيرة الثورة العربية باتجاه تحقيق أهدافها النهائية » .

وفي اطار هذا الحرص على قيام الوحدة العربية ، وتوفير أسباب قيامها ، نشرت « المعرفة » في عددها الماضي البحث الذي أعده الكاتب العربي الكبير

الأستاذ محمد عزة دروزة ، بعنوان : « اتحاد الدول العربية هو العلاج الوحيد والملح[1] ! » قدم فيه الكاتب مقترحات عملية قابلة للتطبيق ، لقيام اتحاد بين الدول العربية يعتمد أسلوب « الدول المتحدة » لا أسلوب « الدولة المتحدة » كما يقترح الكاتب . ويرى الأستاذ دروزة أن هذا الأسلوب الأول اكثر امكاناً للتحقق في ظروفنا العربية الراهنة ، اذ يتيح لكل دولة من الدول العربية « أن تحتفظ بشخصيتها ، ونظام حكمها ، وشؤون اقليمها ، وثرواتها المحلية ، وتتنازل عن سيادتها في الشؤون العسكرية والسياسية والاقتصادية والمواصلات العامة والجمارك لحكومة اتحادية » .

ان مقترحات الأستاذ دروزة معروضة على مناقشة كل من يعنيه مستقبل الشعب العربي . ومجلة « المعرفة » التي تضع الوحدة العربية في رأس أهدافهـــا الفكرية والقومية ، تدعو اليوم جميع الكتاب والباحثين ، الى بيان آرائهم في الأساليب والصيغ العملية التي تؤدي الى تحقيق هذا المطلب العربي الكبير ، ويسعدها أن تفتح صفحاتها لعرض هذه الآراء . فبالحوار الجدي الصادق نستطيع أن نريد ما نعرف ، ونحقق ما نريد .

(١) راجع « المعرفة » – العدد ٦٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٧ .

من فيتنام

إلى فلسطين

هيثم كيلاني

حينما دعت وزارة الدفاع الامريكية الجنرال موشى ديان الى زيارة فيتنام الجنوبية في شهر تموز من عام ١٩٦٦ ، صرح هذا بقوله ، يوم غادر تل أبيب الى سايغون : « إن تل أبيب ترى في هذه الحرب المحلية مثلاً يحتذى في الشرق الأوسط . انهـا تدرس خطط التدخل العسكري الامريكي ووسائله ونتائجه » .

هكذا كشف ديان بقوله الصريح هذا ، عن المرحلة الجديدة الستراتيجية الامريكية التي تتضمن التوسع في اعتداءاتها المسلحة ، وتفجير

براكين الحروب الصغيرة المحلية ، المتباعدة مكاناً ، والمختلفة اسلوباً ، والمرتبطة ستراتيجياً بعقل مدبر واحد ، وبيد محركة واحدة .

ولقد ظن العالم ، على اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية وتفكك نظام الاستعمار القديم ، ان صفحة جديدة قد فتحت في تاريخ الانسانية . سوى ان هذا الظن قد انطوت رايته مع افراح النصر ، حيث ظهرت الولايات المتحدة الامريكية وريثة للاستعمار القديم ، ولكن بثوب جديد وأساليب اكثر دهاءً وخبثاً ، في استعباد الشعوب ، وبخاصة شعوب العالم الثالث .

واذا كانت مرتكزات الاستعمار الجديد عديدة ومتنوعة ، فان الرئيس الامريكي الأسبق ترومان كان اكبر مهندس بناء في صرح ذلك الاستعمار . فقد اوضح في بيانه أمام الكونغرس يوم ١٢ أيار ١٩٤٧ مهمة الولايات المتحدة بانية الصرح وحاميته : « ان الولايات المتحدة الامريكية تجد نفسها مضطرة لمساعدة الشعوب الحرة للحفاظ على كيانها وحدودها الاقليمية ضد الحركات العدوانية التي تريد فرض انظمة ديكتاتورية عليها » . ولقد فسر بعض المؤرخين هذا القول — وبخاصة المؤرخ الألماني غولومان — (١) بان الولايات المتحدة « ستقوم بمساعدة جميع شعوب الأرض عندما يهدد استقلالها من الداخل او الخارج » . فاذا هب الشعب الفيتنامي لطرد الغزاة الامريكيين ، فهو عدوان من الداخل ، واذا حاول العرب القضاء على الاستعمار الصهيوني في فلسطين فهو عدوان من الخارج .

وانطلاقاً من هذا المبدأ ، راح الستراتيجيون الامريكيون يخططون لمواجهة جميع حركات التحرر في العالم واخـذوا ينشرون على الناس ألوية الرعب من الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية ، وينهون الشعوب عن انتقاء طرائق

(١) مجلة دراسات عربية : ص ٢٠ — آب ١٩٦٧ .

تحررها من التخلف والتبعية » بالرغم من قناعتهم بأن معظم الدول الاشتراكية تتبنى باخلاص مبدأ التعايش السلمي وتعتقد بان التطور الاشتراكي يمكن ان يتعايش مع الأزمة العامة الرأسمالية . لهذا فان الزعماء الامريكيين يكذبون على انفسهم وعلى العالم حينما يدعون بأنهم يتحركون ضمن استراتيجية مكافحة النفوذ الشيوعي ، والقضاء على مكامن الخطر في العالم .

ولقد اصبح من مسلمات التاريخ الحديث ، ان الولايات المتحدة الأمريكية هي ، بلا منازع ، مخترعة الاستعمار الجديد . هذا الأسلوب الذي يفرض الاستغلال الاقتصادي ، دون ما حاجة الى احتلال عسكري ، مكتفياً بتنصيب حكومات عميلة ، او بالتهديد بالقوة واستخدامها ، احياناً . ولقد ادى الامر بالولايات المتحدة الى فرض سيطرتها اونفوذها على عدد كبير من الدول . وحيث استتب لها ذلك ، أخذ رأس المال الامريكي يغزو ويستثمر على اوسع نطاق[1] .

ان الاقتصاد الامريكي ينمو في الحرب ويزدهر ، وبخاصة اذا كانت تلك الحرب تجري على ارض بعيدة عن اراضيه . فاذا كانت امريكا تخسر سمعتها وشرفها في فيتنام والوطن العربي ، فان اصحاب مصانع الاسلحة يملؤون جيوبهم بالمال ، والقادة العسكريين ورجال المخابرات يشدون بقبضتهم على خيوط السياسة الخارجية يديرونها بما يتفق معمطامع الاحتكاريين . فاذا كانت فيتنام مصباً

(١) ذكرت مجلة « الطليعة » المصرية في عددها الصادر في شهر آب ١٩٦٧ ان الاحصاءات الامريكية الرسمية تقدر اجمالي الاستثمارات الامريكية المباشرة في الخارج في آخر عام ١٩٦٤ بحوالي ٧٢٣٠٠ مليون دولار . وتتزايد هذه الاستثمارات سنوياً بمعدل ٦٠٠٠ مليون دولار .

لاسلحتهـــم ، فان الوطن العربي – اذ يبقى مجزءاً متعباً تحت وطأة الأستعمار الصهيوني الامريكي – منبع للثروات البترولية ، لايجوز التنازل عنه .

وللولايات المتحدة جذور وعروق ممتدة في بقاع كثيرة من الأرض ، تمارس من خلالها أنواعاً مختلفة من التدخل والضغط(١) ، كالتدخل الدبلوماسي ، والاقتصادي ، والعسكري . وقد يكون هذا التدخل علنياً أو مستترا . وقد يتخذ شكلاً تمتزج فيه بعض هـــذه الانواع ، فيغدو اخطرها واكثرها تعقيداً وأصعبها مواجهة .

واذا كانت حوادث التدخل العسكري الامريكي التي وقعت في لبنان عام ١٩٥٨ ، وفي فيتنام عام ١٩٦٣ وسان دومينك عام ١٩٦٥ لم تهدف الى الحصول المباشر الفوري على مكاسب اقتصادية أو نيل امتيـــازات جديدة ، أو مكاسب عسكرية مباشرة ، فانها كانت تنفيذاً واضحاً للستراتيجية الامريكية في محاصرة حركات التحرر في العالم ، وخنقها في بؤر انطلاقها ، لإلغاء مفعولهـــا الاشعاعي ، ثم تهديم كيانها ومؤسساتها .

واذا كان هدف الستراتيجية الامريكية هو ماذكرنا بالنسبة لفيتنام ، ولمنطقة جنوبي آسيا ، فان غرضها في الوطن العربي يتمثل في المحافظة على نوع من التوازن السياسي والاقتصادي والعقائدي والعسكري بين اسرائيل من جهة ، وجميع الاقطار العربية من جهة اخرى . كما يتمثل في الحفاظ على تخلف المجتمع العربي وتجزئة وطنه ، وفي سلامة كيان اسرائيل وأمنهـــا ، وفي عدم المس بالاحتكارات البترولية الاجنبية في الوطن العربي . وان بلوغ هـــذه الاهداف لايمكن أن يتم الا بعدة وسائل ، تستخدم الولايات المتحدة احدها أو بعضها أو

(١) د . علي صادق أبو هيف : القانون الدولي العام – الإسكندرية ١٩٦١ ص ٢٠٢ .

جميعها حسب الظروف والأحوال السائدة في العالم بعامة وفي الوطن العربي بخاصة .

ولقد أثبتت مجرى الحوادث في ميداني السياسة والحرب ، أنه لاهم للولايات المتحدة في فيتنام والوطن العربي سوى الحفاظ على مصالحها الاستعمارية الجديدة . وهذه المصالح ليست اقتصادية وسياسية فحسب ، وانما هي ستراتيجية وقارية أيضاً ، لأن الوجود الامريكي في جنوبي شرقي آسيا يمكن الامبريالية من تطويق الصين الشعبية ، ومن الضغط على كوريا وفيتنام الشماليتين ولاووس وكامبوديا ، وتذكير هذه الدول بأن السيف الامريكي مصلت فوق رؤوسها قريب من أعناقهـــا ، ولأن الوجود الامريكي في الوطن العربي ، يحمي اسرائيل القاعدة الاستعمارية ، ويبقي الارض العربية دويلات مفككة ، ويهدد الحركات الوحدوية التحررية ، ويجهد في ايهام العرب بأنهم لاقبل لهم بمصادمة هذا « الثور الهائج » ، لامواجهة ولا مداورة . فليكفوا عن الجهد والجهـــاد ، وليدعوا خيرات بلادهم ومنابع بترولهم في أيد فنية تحسن استغلالها .

وازاء هذه الحراسة المسلحة ، لاعجب حين يصرح رئيس وزراء فيتنام الجنوبية بان « حدود الولايات المتحدة الامريكية تمتد حتى خط العرض السابع عشر الذي يفصل جنوبي فيتنام عن شمالها » . ولا عجب ايضاً حين يصرح اشكول رئيس وزراء اسرائيل بأن المسؤولين الامريكيين قالوا له : « لاتنفقوا اموالكم . اننا هنا ، وان الاسطول السادس هناك » .(١)

* * *

(١) نشر هـــذا التصريح في شهر ايار ١٩٦٧ في صحيفة « U. S. News and World Report » وهي لسان حال البنتاغون ـ وزارة الدفاع الامريكية ـ . فقد اجاب اشكول على سؤال عما اذا كانت اسرائيل تتوقع النجدة من الولايات المتحدة اذا ما هوجمت من قبل جيرانها . فقال : « بالتأكيد اننا نتوقع هذه النجدة ، لاسيما اذا اخذنا بعين الاعتبار جميع الوعود المؤكدة الصادرة لاسرائيل . وهي وعود حصلنا عليهـــا . عندما طلبنا السلاح من الولايات المتحدة ، فقيل لنـــا : لاتنفقوا أموالكم . اننا هنا . وان الاسطول السادس هناك » .

ولأن حدود الولايات المتحدة تقفز من فوق المحيطات والقارات ، لتعانق ذلك الخط الوهمي الذي يقسم شعب فيتنام الى شطرين ، فقد انطلقت القوات الامريكية المسلحة من قواعدها في أمريكا الشمالية ، لتنقل النـــار والدمار الى فيتنام ، مخترقة بذلك اتفاقيات جنيف المعقودة في شهر تموز من عام ١٩٥٤ ، تلك الاتفاقيات التي انهت حرب التحرير في الهند الصينية ، والتي تعهدت الحكومات الموقعة عليها — ومنها حكومة الولايات المتحدة — باحترام مبدأ عدم التدخل في بلاد الهند الصينية ، وجعل هذا المبدأ ركناً من أركان سياستها تجاه تلك المنطقة .[١]

وبعد ان نصت هذه الاتفاقيات على تقسيم الدولة الفيتنامية الى منطقتين يفصل بينهما خط هدنة هو خط العرض ١٧ ، وعلى اجراء انتخابات تشرف عليها لجنة دولية ثلاثية ، اتصبت الولايات المتحدة دخيلاً جديداً في المنطقة ، تفرض ارادتها وتعطل نصوص الاتفاقيات ، لأنها كانت واثقة بأن نتائج الاستفتاء ستكون الى جانب توحيد الدولتين وسيطرة النظام الاشتراكي الشعبي على الدولة الموحدة . ففرضت وجودها في الدولة الجنوبية ، مخالفة بذلك الشروط العسكرية التي تم الاتفاق عليها في اتفاقيات جنيف التي نصت على انـــه لا يجوز ان يدخل فيتنام بشطريها قوات عسكرية اجنبية او خبراء عسكريون اجانب ، كما لا يجوز للدولتين ان تحالفا عسكرياً مـــع اية دولة اجنبية ، او ان تزيدا عدد قواتهما المسلحة ، او تنشئا قواعد عسكرية جديدة . الا ان الولايات المتحدة خرقت جميع هذه النصوص الواضحة التي كانت تهدف الى تحييد المنطقة ، وتجميد الموقف العسكري الداخلي فيها ، حتى تتوفر الشروط اللازمة لوحدة الدولتين والعيش

---

(١) J. Lacouture et P. Devilliers: La fin d'une guerre - p. p. 11 - 62 Paris 1960 .

الآمن المزدهر . ولقد تذرعت امريكا آنذاك بمختلف الاسباب لتبرر تدخلها الذي بدأ يتضح وتتسع آفاقه وتتنوع اشكاله في عام ١٩٥٩ . فلجأت الى الحجة التقليدية وهي الرد على التدخل الشيوعي في فيتنام ، والاستناد الى حق الدفاع الشرعي الجماعي ، وتلبية طلب حكومة سايغون .

ولقد تطورت الاحداث واشكال التدخل الامريكي منذ ذلك الحين حتى اليوم ، فاتخذت خطاً تصاعدياً ، بلغ ذروته في ٧ شباط عام ١٩٦٥ ، حينما بدأت القوات الجوية الامريكية غاراتها على فيتنام الشمالية ، منطلقة من قواعد اقامتها في فيتنام الجنوبية وتايلاند ، ومن حاملات الطائرات في وسط البحار .

وعللت امريكا هذا التصاعد العدواني الجديد بأنه رد على اعتداء مسلح قامت به قوات نظامية شمالية ، بعد ان كان عونها للثوار الجنوبيين مقتصراً على التمويل والتسليح ، واتخذت الدبلوماسية الامريكية هذه الحجة ذريعة تستند اليها في نشاطها وتبريرها لهذا التصاعد . الا ان هذه الحجة انهارت امام عدة حقائق[1] :

— أشارت الوثائق التي قدمتها حكومة سايغون الى اللجنة الدولية الثلاثية الى تغلغل بعض العناصر الشيوعية في أرض بلادها ، ولكنها لم تذكر وقوع أي اعتداء مسلح من الشمال .

— لم يتضمن التقرير الرسمي الذي قدمه المندوب الامريكي يوم ٢٧ شباط ١٩٦٥ الى مجلس الأمن أي ذكر لاعتداء مسلح قامت به قوات عسكرية تابعة لحكومة هانوي . وانما اكتفى بالاشارة الى التغلغل الشيوعي والى المعونات المختلفة ، هذا بالرغم من ان تاريخ التقرير يقع بعد عشرين يوماً من بدء الغارات الجوية ومن الادعاء بالهجوم الشمالي المسلح .

---

(١) د . بطرس بطرس غالي : السياسة الدولية — كانون الثاني ١٩٦٧ — ص ٧ ، — القاهرة .

— درست اللجنة الدولية الثلاثية الحجج الامريكية ، وانتهت الى رفضها وقررت ان الغازات التي يشنها سلاح الطيران الامريكي تخالف اتفاقيات جنيف مخالفة صريحة .

ولقد وضح بعد ذلك ، من تقارير عدة مراقبين محايدين ، ان القرار الذي اتخذه الرئيس الامريكي بتصعيد الحرب من البر الى الجو ، كان مرجعه ما آلت اليه حالة حكومة سايغون ، اذ كانت على وشك الانهيار من الداخل. فقد كان لدى هذه الحكومة جيش قوامه اكثر من نصف مليون جندي ، وتدعمها قوات الاحتلال الامريكية التي بدأت بألفي خبير عام ١٩٦١ وانتهت الى اكثر من نصف مليون جندي في صيف عام ١٩٦٧ . وبالرغم من ذلك ، فان هذه الحكومة التي تقوم على الحراب لم تستطع اخماد الثورة الشعبية عليها ، وان استطاعت حتى الآن ان تحمي نفسها من لهيب الثورة ، ومن سبعة انقلابات تتالت عليها خلال السنوات الاخيرة .

لقد اصبحت حرب فيتنام بؤرة تستقطب حولها أدمغة الستراتيجيين العسكريين والسياسيين الامريكيين ، الذين انتظمتهم لجان ومعاهد للدراسات والتخطيط . وقد كانت نظرية « الحرب الخاصة » باكورة انتاجهم . فقد رعاها وخطط لها الستراتيجي الاستاذ ستايلي والجنرال تايلور ، على أساس ان يحرر الفيتناميون انفسهم بأنفسهم من « العصابات الشيوعية » ، وذلك خلال ثمانية عشر شهراً فقط . وتهدف هذه الحرب الى تحقيق غرضين : اولهما سحق جيش التحرير ، وثانيهما كسب عواطف السكان . واعتبر الرئيس الامريكي كينيدي هذه الحرب تجربة استعمارية جديدة لضرب جميع ثورات التحرر الوطني والاجتماعي التي تلهب العالم الثالث .

ويقوم جوهر « الحرب الخاصة » على ان الجيش الفيتنامي الوطني يتكفل

بمواجهة الثورة وقهرها ، بينما تتكفل الولايات المتحدة بتزويده بالمال والسلاح والخبرة . ولهذه الغاية فقد قامت في سايغون « قيادة المساعدة العسكرية » التي تولت قيادة العمليات ضد جيش التحرير الوطني معتمدة على ثلاثين ألف مستشار عسكري امريكي منتشرين في وحدات جيش سايغون .

وتعتبر نظرية الحرب الخاصة انه اذا كان تفوق الجيش المعادي للثورة على جيش الثورة بنسبة ٢٠ جندياً مقابل ثائر واحد فان نصر الجيش المعادي للثورة مضمون . وقد توصل الخبراء الامريكيون الى هذه النتيجة من تجاربهم الناجحة في قمع الحركات الثورية في الفيليبن وماليزيا واليونان بعد الحرب العالمية الثانية . وحينما بدأ هؤلاء الخبراء بتطبيق نظريتهم في فيتنام في عام ١٩٦١ ، كانت نسبة قوى جيش سايغون الى قوى جيش التحرير هي عشرة جنود مقابل ثائر واحد . فبدأت القيادة الامريكية بتعديل هذه النسبة باتجاهين : وذلك بزيادة عدد جيش سايغون ، وبتعطيل المنابع البشرية الخاصة بالجيش الثائر . وذلك حتى يمكن قهر الثورة الفيتنامية خلال ثمانية عشر شهراً وفق الخطة المرسومة . وفي سبيل ذلك ، قررت القيادة حشد جميع سكان الريف الفيتنامي في اكثر من ١٧٠٠ معتقل جماعي اطلقوا عليها اسم « القرى الاستراتيجية » حتى يحولوا بين جيش التحرير وقوته الاحتياطية من الفلاحين ، واتبعوا ازاءهم سياسة تجويع واذلال ، فرشت الطائرات حقولهم بالمواد الكيماوية السامة خلال ٢٠٠٠ عملية رش في المدة الواقعة بين شهر آب ١٩٦١ وشهر أيار ١٩٦٤ ، فمات من جراء ذلك اكثر من عشرين الف فلاح ، ونفقت آلاف المواشي وبارت مساحات واسعة من مزارع الارز[1] .

---

(١) مجلة دراسات عربية : العفيف الاخضر – ايار – ١٩٦٧ م .

سوى ان للثورة قوانينها . واحد هذه القوانين ان المواطن الملتزم بثورته ومبادئها نظرياً وعملياً ، هو في نهاية الامر العامل الحاسم في كسب المعركة . وهذا مايفسر لنا سر انتفاضة السكان المعتقلين ضمن اسوار القرى الاستراتيجية ، حين هبوا يحطمون الاسوار ، ويهدمون جميع هذه القرى هدماً كاملا ، مستخدمين في سبيل ذلك اساليب المقاومة البدائية والوسائل البسيطة ؛ فبرهنوا بذلك على ان مقاومـــة الشعوب لاتغلب ، مهما كانت وسائل العدو متقدمة في تكنيكها وتكتيكها .

لقد اراد الامريكيون ان يفرضوا على الفيتكونغ حرباً كلاسيكية ، الا ان جيش الثورة انسحب من المصيدة ، وفرض على عدوه الطراز الذي انتقاه حسب امكاناته وطبيعة بلاده . وبذلك استطاع ان يحد بشكل واضح من فاعلية وسائل الحرب الحديثة التي يحملها معه الجيش الامريكي . والسبب الرئيسي في ذلك ، هو مشاركة الشعب في حرب التحرير . اذ ان هذه المشاركة الواسعة التي لاحدود لها ، افقدت العدو جزءاً كبيراً من امكانات اسلحته ، وزادت في الوقت ذاته ، قوة جيش التحرير المعنوية والمادية ، وقد استطاعت هذه المقاومة المنظمة الشاملة ان تقنع القيادة الامريكية ان أي غزو بري لفيتنام الشمالية ، يعني خلق فيتنام جنوبية ثانية أشد وأدهى ، لانها ستجد أمامها دولة وشعباً يقاتلان بأسلحة عصرية وبتنظيم حديث وبامكانات اعظم .

ويبدو ان الستراتيجيين الامريكيين عدلوا خططهم ، فنصحوا الرئيس الامريكي بحث الخطى نحو النصر ، وذلك بتصعيد الحرب تصعيداً سريعاً دون خشية من الطرف المقابـــل ، الذي لن يستطيع تصعيد دفاعه بالوتيرة ذاتها وبالشكل نفسه . ولهذا فقد عدل هؤلاء الستراتيجيون آلية العمل العسكري

والتكتيك لينسجما مع الهدف الجديد . ولقد مرت هذه الستراتيجية بمراحل مختلفة . فبعد ان كان القادة الامريكيون يخفون وجوههم باقنعة « المستشارين » ابتدعوا « الحرب الخاصة » التي كانت تهدف الى النصر ولكن بدماء الآخرين . والآخرون هنا هم ابناء فيتنام الجنوبية .

وحينما بدأت القوات الامريكية تغزو فيتنام ، واشتد لهيب القتال ، حدد الامريكيون هدفهم بالتدليل لخصومهم — وهم ثوار الفيتكونغ وفيتنام الشمالية — بأنه لا فائدة لهم في القتال ، لأنهم لن ينتصروا ، ولأن الحل العسكري أمر مستحيل ، لهذا فلا مندوحة عن اللقاء حول مائدة المفاوضات ، لايجاد الحل الذي يرضي الخصمين ، وفي هذه المرحلة من تصاعد القتال — أي مرحلة لا غالب ولا مغلوب — نشأ مفهوم استراتيجي جديد ، يحل محل مفهوم « الحرب الخاصة » . وهو ما نسميه « استراتيجية بقعة الزيت » ، وذلك بتثبيت الوجود الامريكي وانتشار هذا الوجود من الناحيتين الجغرافية والعسكرية ، واقامة قواعد برية وبحرية وجوية ، بحيث تتمدد تلك البقع كما تتمدد نقطة الزيت قليلاً على قماش الثوب . ويبدو ان تلك البقعة قــد اتسعت حتى بلغت الحدود التي اقنعت الستراتيجية الامريكية ان وقت النصر قد حان . ولكن كيف اقتنع هؤلاء المخططون بان النصر العسكري أصبح قريباً ، وعلى أي الأسس بنوا خططهم .

وفي الاجابة عن هذا السؤال ، لابد لنا من اي نذكر ان منهاج الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام الجنوبية — فيتكونغ — يتضمن اربع مراحل ، تتمثل اولاها بالتضامن السياسي للحركة ، وثانيتها بنمو نشاطها العسكري واتساع مداه حتى يبلغ مفارز الانصار . وتبدأ الجبهة في المرحلة الثالثة بتشكيل وحدات عسكرية نظامية تنسق عملياتها مع وحدات الانصار . أما في المرحلة الرابعة

فتبدأ الجبهة بهجوما لتحرير البلاد بصورة نهائية . ولقد بلغت الجبهة حدود هذه المرحلة — اي الرابعة — ولا مست أطرافها مجتازة المرحلة الثالثة ، حينما اخذ نظام سايغون في منتصف عام ١٩٦٥ يترنح تحت ضربات الثورة ، وتفكك الجيش الجنوبي أمام هجمات جيش التحرير ، الذي اصبح النصر قريباً من يديه . واذ ذاك ، ألقت الولايات المتحدة بثقلها العسكري في المعركة ، فبدأت تزيد تواتر الغارات الجوية على فييتنام الشمالية ، وتدفقت القوات المقاتلة على مسرح العمليات ، وأخذت تفتح الجبهات في كل مكان ، وزجت في العمليات مئات الألوف من جنودها ، لتشاغل جيش التحرير ، وتسد عليه طريق النصر ، وتفتت قواته الضاربة الى جبهات عديدة . وهكذا تمكنت القوات الامريكية — حسب قول الجنرال ويلر رئيس الأركان المشتركة للقوات المسلحة الامريكية — من قلب تيار الحوادث العسكرية ، وتغيير اتجاهها بشكل معاكس (١) . ولقد سعى الامريكان من جراء ذلك ، الى اجبار قيادة الثورة على التخلي عن العمليات بالقوات النظامية ، محاولة اقناعها بأنها لاقبل لها بمجابهة القوات الامريكية المسلحة والمنظمة والمجهزة بالطائرات والآلات الحديثة والكثيفة بعددها والغزيرة بنيرانها . وهذا يعني إن على قيادة الثورة ان تتراجع من المرحلة الثالثة من برنامجها الى المرحلة الثانية ، فتحل وحداتها النظامية ، وتجزئها الى مفارز ومجموعات متفرقة صغيرة .

ان هذه الخطة الامريكية ، تمثل آخر منطلق ستراتيجي ، وهو الثالث في مجموعة المنطلقات الستراتيجية التي خططت لها القيادات الامريكية . فالمنطلق الأول كان يهدف الى مساعدة نظام سايغون على حماية نفسه ، والثاني كان يبغي ان يبرهن لخصمه ان لاغالب ولا مغلوب . اما المنطلق الثالث فيهدف الى تحقيق

---

(١) Andro Gabalic - Revue de la politique iternationale - 20/7/1967

الفكرة التالية : « هناك غالب وحيد هو القوات المسلحة الامريكية » . واستنادا الى هذا المنطلق ، بدأت القوات الامريكية تعرض نفسها في المناطق التي يسيطر عليها جيش التحرير ، ساعية الى استدراجه الى ساحة القتال . أما جيش فيتنام الجنوبية فقد كلف بمهمة « تجميد الناس » ، وذلك بمنعهم من التحرك من قرية الى اخرى ، وبتهديد بيوتهم وحقولهم .

ولقد طبقت امريكا هذه الخطة منذ اكثر من عام ، فلننظر ماذا كانت النتيجة . لقد تخلص جيش التحرير من الكمائن التي نصبتها له القوات الامريكية ، وراح يلف عليها من حيث ظنت انها تعرض له لتستدرجه ، فكال لها الضربات من خلف ومن جنب ، وهاجم قواعدها وقياداتها ومعسكراتها حيث ظنت انها في أمن وسلام . فاضطر الجيش الامريكي الى تجميد اكثر من نصف قواته لحماية تلك القواعد والقيادات ، واقتصر قتاله على عمليات دفاعية فقط . وفي الوقت ذاته ، ازداد عدد وحدات جيش التحرير ، وحسن سلاحه ، واصبحت طاقته القتالية اكبر من ذي قبل . وكان من نتيجة ذلك كله ، أن اخذ الخط البياني للقتلى والخسائر الامريكية يرتفع في كل اسبوع ، ثم في كل يوم ، حتى تساءل بعض الزعماء الامريكيين عن اسباب ذلك ، وعكف الستراتيجيون على دراسة النتائج التي ادى اليها تطبيق الخطة الجديدة ، اذ جاءت النتائج على عكس ما كانوا ينتظرون ، بالرغم من ان الولايات المتحدة قذفت في المعركة باكثر من نصف قواتها الجوية ، واكثر من ثلث قواتها البرية ، وثلث قواتها البحرية[1] . ومما لاشك فيه ان هذه المجموعة تشكل النخبة الاولى لمجموع القوات المسلحة الامريكية .

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من تصريحات الجنرال ويلر واعضاء مجلس الشيوخ الامريكي جاكسون وسيمينغتون وستيفين يونغ .

سوى أن ذلك لم يقنع المسؤولين الامريكيين بتغيير خطتهم ، فاذا ما سئل الجنرال ويستمور لاند — القائد العام الامريكي في فيتنام — عن الموقف العسكري ونتائج الخطة ، أجاب : « ادعمونا اكثر فأكثر لتنفيذ الخطة ذاتها » . ويبدو ان هذا القول يعبر عن الموقف الرسمي لوزارتي الدفاع والخارجية الامريكيتين .

لقد اخفقت جميع التجارب والخطط التي ابتدعتها القيادات والاحتكارات الامريكية للقضاء على الثورة الفيتنامية . وان السبب الرئيسي لهذا الاخفاق هو مناقضة العقلية الاستعمارية للحقيقة التاريخية ، التي اصبحت قانوناً تنتظم في ظله جميع حركات التحرر في التاريخ ، والتي تؤكد دائماً أن في العالم قوة اخرى غير قوة المدفع والنابالم ، هي قوة الشعب الذي صمم على الكفاح حتى النصر . وهي قوة لم تغلب حتى الآن ، ولا يبدو في الافق انها ستغلب ، بالرغم من أن مسرح العمليات الحربية في فيتنام ، يضم قوات مسلحة وقواعد جوية وبرية وبحرية واسلحة وذخائر لم يسبق قط أن حشدت في أي مسرح من مسارح العمليات في الحرب العالمية الثانية .

* * *

هذا في فيتنام . أما في الوطن العربي — وبخاصة في مشرقه — فان كل ماتسعى اليه الصهيونية والامبريالية ، هو دفع اسرائيل الى البروز كعملاق عسكري لايقهر ، ليفرض ارادته ويطبق خططه . وحينذاك يدفع الأمر الواقع العرب الى قبول الحلول التي تبدأ بالاعتراف باسرائيل وتنتهي بالاندماج بينها وبين الدول العربية ضمن مجموعة اقتصادية متعاونة في مختلف المجالات . فاذا ماتم للصهيونية والامبريالية ذلك ، تكون خططها قد نفذت في السيطرة على الموقع

الستراتيجي العربي وعلى منابع البترول وممراته ، وفي القضاء على الحركة القومية والثورة العربية . وحينذاك تعلن الصهيونية والامبريالية أن « الحرب الصليبية » قد انتهت ، كما فعل قبلها الجنرال غورو امام قبر صلاح الدين الايوبي يوم احتل دمشق في عام ١٩٢٠ .

وليس يخفى على أي ذي بصر وبصيرة ، ان وراء الاهداف المباشرة التي قصد اليها العدوان الاسرائيلي الاستعماري في حزيران ١٩٦٧ ، هدفاً ابعد ، هو الوصول في مرحلة قادمة الى منابع البترول العربي . ذلك أن الصهيونية يوم تبلغ هذا الهدف ، ستنتصب اكبر عملاقة مسيطرة على العالم الرأسمالي ، لأن مصارفها ومؤسساتها المالية — المسيطرة اليوم — ستصبح اغنى المؤسسات المالية في العالم كله . وستصبح اسرائيل ، من جراء ذلك ، دولة مزدهرة ، واسعة الارجاء ، تتراكم فيها رؤوس الاموال لاستثمار الأرض المحتلة . وسيكون ذلك كله الركيزة الرئيسية لاستجلاب ملايين اليهود في العالم ، واستقرارهم في منطقة المشرق العربي . واذ ينال اليهود البترول العربي ، فهذا يعني أن الامبريالية العالمية قد وضعت يدها على تلك المنابع ايضاً ، ذلك لأن الرأسمال الصهيوني يسهم بأكثر من نصف رأسمال المصارف البريطانية والأمريكية[1] .

ان الأسس التي قام عليها عدوان حزيران ، تكمن في محاصرة الحركة الثورية التحررية الوحدوية العربية ، والقضاء على أنظمة الحكم التي اقامتها تلك الحركة ، وفي الحفاظ على الاحتكارات البترولية وبقاء السيطرة الامريكية والبريطانية في الوطن العربي بشكل امتن ولمدة اطول ، كما تكمن في النوايا التوسعية لاسرائيل . ولعل الجدول التالي يوضح بالارقام مراحل تحقيق تلك النوايا :

Revue de «Défense de L'Occident» - Paris, Juillet - Août 1967 - P.75. (١)

التوسع الجغرافي للاحتلال الصهيوني(١)

المرحلة	التاريخ	حدود التوسع	النسبة المئوية من ارض فلسطين (٢٦٠٠٠ كم مربع)	المساحة المحتلة بالكلم المربع	أمثال التوسع بالنسبة للمرحلة الاولى
١	١٨٨٤ – ١٩٣٩	احتلال الأراضي بالشراء ، بعامل الاغراء المالي من قبل الوكالة اليهودية .	٣٪	٨٠٠	١
٢	١٩١٨ – ١٩٣٩	عطاءات من قبل السلطات البريطانية المستعمرة باسم « أملاك دولة » وتبلغ ٣٪ من مساحة فلسطين .	٦٪	١٦٠٠	٢
٣	٢٩/١١/ ١٩٤٧	قرار التقسيم بالامم المتحدة .	٥٤٪	١٤٣٠٠	١٨
٤	١٩٤٨ – ١٩٤٩	اراضي احتلتها اسرائيل خلال الحرب . وظلت حدودها على هذه الحال من عام ١٩٤٩ حتى حزيران ١٩٦٧ .	٧٨٪	٢٠٨٠٠	٢٦
٥	حزيران ١٩٦٧	اراضي احتلتها اسرائيل اثناء عدوانها في ٥ حزيران ١٩٦٧ .	–	١٠٢٤٠٠	١٢٨
٦	؟	المشروع الصهيوني الاساسي : من النيل الى الفرات	=	٨٠٠٠٠٠	١٠٠٠

(١) صحيفة « le Jour » الفرنسية – جان بيير سارا وريمون داوود – بيروت ٥/٨/١٩٦٧ .

واذا كان العدوان الاسرائيلي الأخير عدواناً مسلحاً مباشراً ، لأنه ينصب على قهر الارادة العربية في الدفاع والتحرر وذلك باحتلال اجزاء من الأرض العربية ، فان الموقف الأمريكي ، قبل العدوان واثناءه وبعده ، يعتبر — بحد ذاته — عدواناً مسلحاً غير مباشر ، لأنه عبر في مناسبات عديدة عن رغبته في تغيير انظمة الحكم في سورية والجمهورية العربية المتحدة (١) .

ومن المعروف ان كل حرب في العالم تتميز بصفات خاصة بها تختلف عن غيرها من الحروب . سوى انها — جميعها — تخضع لمبادىء عامة سميت « مبادىء الحرب » . ولقد صنفها المؤرخون العسكريون والستراتيجيون تصنيفات عديدة فجعلها بعضهم خمسة مبادىء ، وحددها آخرون بعشرة ، وارتأى قسم منهم انها تتجاوز هذين الحدين أو تقل عنها . ولقد اجمع هؤلاء على أن مبدأ « المباغتة » من أهم تلك المبادىء . وحينما درس المؤرخون المعارك الحربيــــة ، رتبوا مبادىء الحرب الخاصة بتلك المعارك ، فقالوا ان هذه المعركة قد ظفر فيها أحد الطرفين لأنه رتب أفضلية مبادىء الحرب بشكل مناسب ، بينما رتب الطرف الآخر أفضليتها بشكل آخر ادى بــه الى الهزيمة . فاذا انتقلنا الآن الى صحراء سيناء مسرح العمليات العربي الأول في العدوان الأخير ، وجـــدنا ان مبدأ المباغتة يسيطر على ذلك المسرح سيطرة كامـــلة ، حتى يكاد يكون منفرداً في سيطرته

---

(١) عرف الدكتور بطرس بطرس غالي استاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة العدوان المسلح المباشر بقوله : « أن العدوان المسلح المباشر يكون منصباً اصلاً على اقليم الدولة بغية اقتطاع جزء من هــذا الاقليم او الاستيلاء عليه او احتلاله عسكرياً . اما العدوان غير المباشر فينصب اصلاً على حكومة الدولة بغية تغيير رجال الحكم او تغيير نظام الحكم » . السياسة الدولية — عدد كانون الثاني ١٩٦٧ — ص ١٠٤ . القاهرة .

ذلك ، ولقد ندر في الحروب الحديثة ، ان يكون مبدأ المباغتة وحيد في قوته وانفراده بين مبادىء الحرب الأخرى كما هي الحال في سيناء . ولم تكن المباغتة في سيناء برية ، وانما ابتدأت جوية وعلى مدى واسع شمل جميع مطارات الجمهورية العربية المتحدة ، وكان من نتيجة ذلك ان جردت المتحدة من قواتها الجوية ، وهي سلاح جد حاسم في حروب الصحارى ، ثم تعرضت قواتها البرية الى هجوم بري جوي مشترك خاطف ، انتقلت مراحله التالية بعد ذلك الى الأردن وسورية . وهكذا كانت الحرب قصيرة الامد جداً ، وضعت اسرائيل فيها جميع امكاناتها ، مدعومة بامكانات كبيرة من الصهيونية العالمية والامبريالية الامريكية البريطانية ، اللتين اردفتا اسرائيل بالمال تشتري به الطائرات والاسلحة قبل بدء العدوان ، وبالطيارين والفنيين المتطوعين ، وبالدعم الراداوي يقدمه الاسطول الامريكي السادس ، وبالتعمية الالكترونية تعطل بها جميع شبكات الرادار التي يقوم عليها جهاز الدفاع الجوي ، وبقنابل النابالم تدخلها اسرائيل سلاحاً جديداً خطيراً بالرغم من ان القانون الدولي يحرم استعمال هذا السلاح . وفي مقابل هذه الامكانات والطاقات في حرب جد قصيرة في أمدها نجد اننا لم نستخدم جميع امكاناتنا وطاقاتنا ، بل اننا لم نستخدم سوى جزء ضئيل منها ، وحتى هذا الجزء – على صغره – استخدمناه مجزوءاً مفككاً بحيث لم يكن هناك تنسيق في التوقيت ، ولاتوحيد في العمل ، لذا فان الحرب لم تستنفد هذه الطاقات العربية الهائلة . وكل مافي الأمر ، ان الحرب المباغتة الخاطفة قد كشفت عن عدم استعدادنا التكتيكي ، وعدم رد فعلنا الفوري المناسب لمثل هذا الطراز العلمي من طرز الحرب الحديثة . ولهذا فانه يمكن القول ان الفرصة

لم تتح لنا لكي نجرب كفاءاتنا العسكرية وصفاتنا كمقاتلين أشداء صابرين وقدرتنا الحقيقية على المقاومة ، كما ان الفرصة لم تتح لطاقات شعبنا وامكانات وطننا ، لكي تتجه جميعها وجهة واحدة ، وتصب في تيار واحد ، هو تيار الدفاع المنسق المنظم المخطط .

ان اسرائيل تضع دائماً نصب عينيها ، انها اذا خاضت حرباً شاملة ضد العرب فلابد لها من الاعتماد على قواتها داخل حدودها بالدرجة الأولى ، وعلى متطوعي الصهيونية العالمية بالدرجة الثانية ، وعلى دول الاستعمار بالدرجة الثالثة . وبالرغم من جميع هذه القوى ، فان اسرائيل تدرك جيداً انها لاقبل لها بمواجهة قوة عربية موحدة في قيادتها وخططها وتدريبها وتكتيكها ومتفوقة عليها بالعدد تفوقاً كبيراً . لذلك كانت تسعى طيلة السنين العشرين الماضية الى التعويض عن قلة العدد بالمباغتة وقابلية الحركة وحرية المناورة والسرعة في الاقرار والتنفيذ . ولذا فقد العرب المبادأة طيلة عشرين عاماً ، منذ أن بدأ جيش الانقاذ عملياته في عام ١٩٤٧ ، حتى يوم انسحاب قوات الطوارىء الدولية من قطاع غزة وصحراء سيناء يوم ١٧ أيار عام ١٩٦٧ . وفي ذلك ، انقلب وجه المعركة بيننا وبين اسرائيل ، وامسكنا بين ايدينا بالخيوط التي فقدناها طيلة عقدين من السنين ، واصبح في قدرتنا ان نحدد زمان المعركة ومكانها . ولم يطل بنا أمد هذه الحال التي حملتنا الى منطلق طريق النصر سوى عشرين يوماً فقط ، حيث عادت اسرائيل صباح اليوم الخامس من حزيران ، فخطفت من بين ايدينا خيوط ادارة المعركة ، وفرضت علينا القتال في الزمان والمكان اللذين ارادتهما مع الولايات المتحدة وبريطانيا .

وإذا كانت الحرب سجالاً بيننا وبين اسرائيل، كطرفين لا ثالث لهما، فلاشك في أن الزمن معنا على اسرائيل. ذلك لأننا لم نستخدم – كما قلت في السطور السابقة – في العدوان الاخير الا جزءاً يسيراً من طاقاتنا في وقت السلم.

وتفسير ذلك ان جيش اسرائيل يبلغ اقصى عدده في حالة النفير العام ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف مقاتل. ويتمتع بحركية جيدة، وقابلية كبيرة للمناورة، لأنه جيش آلي، ولأن رقعة الارض التي يعمل عليها ضيقة، وطرق مواصلاته قصيرة. وقد اوكل الى هذا الجيش مهمة القتال على جبهات ثلاث، اولاها في الشمال تجاه سورية، والثانية في الشرق امام الاردن، والثالثة في الجنوب تجاه الجمهورية العربية المتحدة. اما العرب فباستطاعتهم ان يجندوا جيشاً لا يقل عدده عن ١٠ ملايين جندي، يقاتلون على جبهات تحيط باسرائيل على شكل نصف دائرة. وهذا الوضع الجغرافي يحتم على اسرائيل ان تقاتل على الخطوط المتباعدة، وان نقاتل، نحن العرب، على الخطوط المتقاربة [1]. ولكي تواجه اسرائيل هذا الوضع الجغرافي الستراتيجي السيء بالنسبة لها، أعتمدت الحرب الخاطفة حلاً وحيداً للتخلص من هذه الشوكة، وذلك بتركيز جهدها الحربي على المحور العربي الأخطر، وضربه بسرعة بكامل طاقاتها، ثم الانتقال الى المحورين الآخرين،

(١) ان جيش اسرائيل المحاط بنصف دائرة تقف عليها الجيوش العربية، مضطر للتحرك من قلب اسرائيل على محاور تتباعد عن بعضها كلما اتجهت تلك المحاور نحو الشمال والشرق والجنوب. لذا تسمى تلك المحاور خطوطاً متباعدة. اما الجيوش العربية فان محاور عملها تتجه وتتقارب للتلاقي في قلب اسرائيل، لذا تسمى محاور عملها خطوطاً متقاربة.

وصدهما الواحد بعد الآخر ، بعد ان تكون قد جمدتها او ناورتها اثناء قتالها مع المحور الاول .

ولقد كان من اسباب النكسة الاخيرة ، من الناحية العسكرية ، ان اسرائيل استخدمت بصورة جيدة الحركة الستراتيجية على الخطوط المتباعدة . اذ كان امامها ثلاثة محاور عربية ، حشدت طاقاتها ضد أقواها واخطرها ، وهو المحور القادم من الجمهورية العربية المتحدة ، وناورت على المحورين الأخريين في الشمال والشرق . فلما زال عنها خطر المحور الأول ، نقلت قواتها بسرعة الى الجبهتين الأخريين ، لمواجهة القوات المتمركزة عليها .

اننا نعلم جيداً ، ان اسرائيل تحارب معركة واحدة فقط ، اذ لاقبل لها بحرب طويلة . ولا تعني الحرب لديها سوى تلك المعركة ، فان هي ربحتها ، فقد كسبت جولة زمنية ، وان خسرتها فقد فقدت كيانها كدولة . لذا فان اسرائيل تقاتل دائماً ضمن الشروط التالية :

— الحرب هي معركة واحدة فقط .

— المعركة الرابحة كسب زمني وجغرافي وسياسي . والمعركة الخاسرة ضياع لكيان الدولة .

— أن يبدأ العرب القتال فهزيمة اسرائيل محققة .

— ان تبدأ اسرائيل القتال فمغامرة تحتمل النصر اكثر مما تحتمل الهزيمة وعلى اسرائيل ان تحدد دائماً مكان المعركة وزمانها .

— في جميع الأحوال ، سواء بدأ العرب القتال ، او بدأته اسرائيل ،

فلابد من دعم الدول الاستعمارية لاسرائيل لاقرار الامر الواقع في حال بدئها القتال وانتصارها بغيـــة فرض شروطها السياسية وتحقيق مطالبها الستراتيجية .

اما اذا بدأ العرب القتال ، فان دور الدول الاستعمارية يتمثل في اتخاذ جميع التدابير العسكرية والسياسية الدولية اللازمة لايقاف القتال ورد العرب عن ارض فلسطين المحتلة وتجريدهم من كل كسب عسكري او سياسي وادانتهم بالعدوان . ويعتبر التدخل العسكري الاستعماري المبـــاشر ضد العرب بين تلك التدابير .

لقـــد جهدت اسرائيل طيلة الأعوام العشرين الماضية في ان تمارس الحرب دائماً ضد العرب ضمن هذه الشروط ، واقصد بالحرب هنا جميع العمليات والمناوشات العسكرية الصغيرة والكبيرة . وكانت اسرائيل دائماً لاتدخل اية معركة ــ سواء كانت محدودة في مداها أو واسعة ــ إلا بعدان توفرلها جميعهذه الشروط او بعضها ، فاذا خشيت ان يتصاعد القتال الضيقفيصبح واسع الحدود، ولم تكن الشروط اللازمة لهذا التصاعد متوفرة ، انكفأت عن الميدان وسعت الى ازالة آثار المعركة حتى لايكون هناك غالب او مغلوب والبراهين على ذلك جد كثيرة ، تبدأ بعدوان حزيران ١٩٦٧ ، وتنتهي بأصغرحادث يقوم بهجرار يحرث الارض المجردة ، وتمر بالعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ وبآلاف الاعتداءات والمناوشات والحوادث التي ارتكبتها اسرائيل على حدود الدول العربية .

ان ذلك كله يؤدي ، ولا شك ، الى ان اسرائيل قد تستطيع إحراز انتصارات محلية ، وذلك لأنها هي التي ابتدأت الحرب ، وانتقت المكانوحددت الزمان . وقد يستمر الغزو الاسرائيلي بضعة أيام ، حتى تتكشف محاور الهجوم،

وحتى يستجمع العرب قواتهم ويوجهوها في مناورة الهجوم المعاكس وذلك متى ماتوفرت لهم الشروط والظروف اللازمة لأخذ المبادأة والانطلاق في الرد .

لقد احرزت اسرائيل انتصارات محلية ، فاحتلت الضفة الغربية وصحراء سيناء وقطاع غزة وهضبة الجولان . سوى ان جميع هذه الانتصارات لا قيمة ثابتة لها مطلقاً من الناحية العسكرية في حرب طويلة الأمد ، ذلك لأنها انتصارات تكتيكية ، لها تأثير على معركة واحدة او عدة معارك فقط ، ولكن هذا التأثير يزول في المعارك الحاسمة التي ستقرر مصير الحرب . ولهذا فيمكنني ان اقول ، انه لا يزال امام اسرائيل معركة واحدة ، بالرغم من انتصاراتها المحلية ، وهذه المعركة حاسمة بالنسبة لها . أما العرب فامامهم معارك عدة ، قد يخسرون بعضها وقد يربحون . ولكنها ليست معارك حاسمة ستراتيجية ، لأن الوضع الجغرافي للوطن العربي ، وبخاصة الدول المحيطة باسرائيل ، يسمح بالمناورة الستراتيجية المرنة التي تفوت على العدو الحصول على أي نصر ستراتيجي حاسم . سوى أن ذلك كله مرهون بتوفير الشروط اللازمة لتحقيق تلك المنـــاورة العربية الستراتيجية المرنة . ويمكن تلخيص تلك الشروط بكلمة واحدة هي « الوحدة » . وليست هذه الدراسة هي المجال لبحث هذا الموضوع .

وفي التاريخ العسكري شواهد كثيرة على ما أقول ، واكتفي بايراد مثالين ، اولهما من تاريخ العرب ، وثانيهما من تاريخ الحرب العالمية الثانية(١) . فقد شهدت بلادنا الحروب الصليبية التي انتصر فيها الصليبيون على العرب في عشرات المعارك طيلة سبعين عاماً او اكثر . ولكنهم طردوا بعد ذلك من المناطق التي

(١) الأيام الحاسمة قبل معركة المصير – اللواء الركن محمود شيت خطاب – ص ٩٣ .

احتلوها على اثر انتصار العرب في معركة « حطين » الحاسمة . اما في الحرب العالمية الثانية ، فقد اكتسحت جيوش هتلر تشيكوسلوفاكيا وبولونيا في عام ١٩٣٩ ، وفرانسا وهولاندا وبلجيكا في العام الذي تلاه ، وغزت الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٤١ حتى هددت موسكو وستالينغراد . وفي شمال افريقية اندفع رومل الى حدود مصر . حتى بدا للعالم ان المانيـــا تسير بخطى حثيثة نحو النصر النهائي واستسلام اعدائها إليها . ولم ينقض على هذه الانتصارات سوى عامين ، حتى بدأ رومل يندحر في صحراء افريقية ، وحتى بدأ غزو نورمانـدي في حزيران عام ١٩٤٤ ، وانطلق الجيش السوفيتي يحرر وطنه ويطارد الجيش الالماني في ارض بلاده . وماان حل شهر ايار عام ١٩٤٥ حتى استسلمت ألمانيـــا النازية ، ووقف العالم مشدوهاً امام صورة عام ١٩٤٢ حين بلغت حدود الغزو الالماني أوسع مدى لها ، وصورة عام ١٩٤٥ حين طوى المرشال كيتل علم الصليب المعكوف من سماء بلاده .

ان عدد نفوس العرب اكثر من عدد نفوس اسرائيل بأربعين مرة ، ومساحة الوطن العربي اكبر من مساحة اسرائيل بثمانية آلاف مرة . لذا فان جيش اسرائيل محدود العدد ، ومنطقة مناوراته ضيقة السعة . فاذا استطاع التفوق على العرب فان تفوقه يتم في منطقة محدودة ولوقت محدود ايضاً . ثم يأخذ هذا التفوق بالتضاؤل والذوبان عندما تطول خطوط مواصلاته ، وتحطم اوصاله المقاومة العربية المنظمة ، وتتصدى له القوى العربية الموحدة ، حتى يتلاشى أمام هذه الضربات المتنوعة العاملة في وقت واحد .

ان اسرائيل لاتستطيع ان تتغلغل في الأرض العربيـــة ، لأن ذلك يحتاج الى أعداد ضخمة من المقاتلين لحماية خطوط مواصلاتها ، ولمواجهة المقاومة

العربية المنظمة ، لذا فانها مضطرة اليوم - بعد نكسة حزيران - الى اتخاذ الموقف الدفاعي لحماية المناطق التي احتلتها . وهذا يعني ان اسرائيل ستلتزم بالدفاع وستقلب خططها الهجومية السابقة الى خطط دفاعية . وحينذاك تفقد عنصر المفاجأة وحرية المناورة .

ان هذا ينتهي بنا الى الدرس الاول والأهم الذي تلقيناه اياه نكسة حزيران ، وهو ان انتصار اسرائيل في الأيام الاولى من الحرب كان نتيجة لأوضاع واخطاء جسيمة وعميقة ، يجب ان نتحمل مسؤوليتها ونتعرف عليها بصدق ، ونحلل اسبابها باخلاص ووضوح ، لأن هذه النكسة نتيجة لتلك الاوضاع والأخطاء ، سوى انها حالة محتملة للحرب . ويوم ان نادينا بتحرير فلسطين ، وضعنا امامنا حالة النصر وحالة النكسة . لكن النكسة في تصميمنا موقتة ، لأن عوامل مواجهتنا ومحاربتنا والنصر عليها وازالة آثارها متوفرة لدينا . وان جميع تلك العوامل تقوم على « مبدأ الصمود » ، لأن هذا المبدأ هو الحد الفاصل بين ان تكون النكسة نصراً تكتيكياً محلياً موقتاً لاسرائيل ، وبين ان تنقلب الى نصر ستراتيجي لها ، وهذا الصمود يجب ان يشمل جميع مجالات الحياة العربية بدون استثناء . فبالاستناد اليه ، ننطلق في تحليل عوامل النكسة ، ومعالجتها ، ونبدأ باقامة الوحدة ، وبخاصة بين الدول المحيطة باسرائيل ، ونشرع بتعبئة قوى الامة العربية في جميع اقطارها ، تعبئة عسكرية واقتصادية وفكرية واجتماعية . سوى اننا يجب أن لانطيل وقت استنادنا الى مبدأ الصمود ، واعتمادنا عليه ، لاننا نعتبره مرحلة موقتة قصيرة الامد ، نتوقف عندها لنسترد بعض أنفاسنا ، ونتدارس اسباب النكسة ، وننظم صفوفنا ، ونعبىء قواتنا ، وننطلق بعد ذلك في هجومنا على العدو .

ان الانسان المؤمن بحقه – سواء كان يقاتل عن حقه في فيتنام أو في الارض العربيــــة – هو القوة القاهرة ، يتغلب على كل شيء ، اذا صبر وصابر ، وثبت ورابط . ان الصمود كان ولا يزال اقوى سلاح في الحرب ولابد لنا من ان نستخدم هذا السلاح ، لأن الحرب هي الوسيلة الوحيدة للرد على اسرائيل ، ولتحرير الارض التي احتلتها . ان الشرط الاساسي للنصر في المعركة القادمة هو ان نريد الحرب ، وان نخطط لها ، ونعبىء طاقات الشعب ، على ان يتم ذلك كله وفق مبادىء العلم والتكنيك .

سبيل النضال

ضد إسرائيل

محمد عزة دروزة

كنت ومازلت أعتقد أن مواجهة اسرائيل ونضالها وتطهير أرضنا المغتصبة من رجسها، انما يكون بأسلوب حركة تحرير شعبية يكون الفلسطينيون طليعتها. وقد فصلت هذا في كتابي (مشاكل العالم العربي) الذي نشر عام ١٩٥٢. وكنت ومازلت أعتقد أن مايذهب اليه البعض ويصرون عليه من كون هذه المهمة ليست مهمة شعب فلسطين ولاينبغي تحميله عبئها وانما هي مهمة الحكومات العربية والحروب الرسمية، خطأ، ان لم أصفه بوصف آخر، لأن فيه تمييعاً لقضية فلسطين

وابعاداً للطرف الوحيد المؤهل لاستلام زمام المبادرة والغاء لدوره ، واحالة على امر يكاد يكون مستحيلاً نطاقاً ،وطاقة، وقدرة في ظروفنا والظروف الدولية الراهنة ، من حيث أنه ليس في يد اسرائيل شيء من اراضي أية حكومة عربية يكون لهذه الحكومة بسببه حق مشروع في تحريره وان ارض فلسطين المغتصبة تعتبر ارضاً اجنبية بالنسبة لها . وانه ليس والحالة هذه من سبيل لهذه الحكومات ان تشن على اسرائيل حرباً هجومية لاحتلالها حتى لو كانت قادرة على ذلك . لان اسرائيل معترف بها من معظم دول الارض بما في ذلك أصدقاء العرب، بل وغير واحدة من الدول الاسلامية ، وعضو مثل الدول العربية في هيئة الامم . ولأن هذه الهيئة سوف تهب ضد الحكومات المهاجمة وستجبرها على الخروج من ارض دولة معترف بها بكل اسلوب ، ثم بالقوة الحربية . وقد شهدنا مثلاً من ذلك العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ حيث هبت هذه الهيئة واجبرت المعتدين ومنهم دولتان كبريان وعضوان دائمان في مجلس الأمن على الجلاء ، وتحررت مصر بذلك وحافظت على استقلالها وسيادتها ووحدة اراضيها . ولايرد هنا ان العدوان الثلاثي الجديد لم يقابل بمثل ذلك لأن هناك اسباباً وظروفاً اخرى . على أن ذلك قد حصل نظرياً بل وفعلياً حتى في مشروع الولايات المتحدة ،ثم في مشروع امريكا اللاتينية، التي كانت الولايات المتحدة وراءه . ففي هذين المشروعين صراحــة بوجوب انسحاب اسرائيل من الاراضي التي احتلتها لأن ذلك من صريح ميثاق هذه الهيئة . وكل ما هنالك انهما ربطا بين الانسحاب وبين ضمان بقاء دولة اسرائيل واحترام حدودها وانهاء حالة الحرب بينها وبين الدول العربية.والمشاريع الاخرى التي اعتبرها العرب موافقة لهم لم ترفض الشرطين المذكورين، وكل ما كان من فرق هو انها لم تربط انسحاب القوات اليهودية بها ،وطلبت انسحابها فوراً بدون شرط ثم البحث بعد ذلك في تسوية النزاع بين العرب واسرائيل .

ولسوف ينسحب اليهود من اراضي البلاد العربية نتيجــة لهذه الاجماع عاجلاً او آجلاً . واعتقد انهم لو لم ينسحبوا واستكملت الدول العربيــة استعدادها العسكري وصارت في حالة تستطيع معها ان تحارب اسرائيل وتجبرها على الجلاء ، وهذا واجب محتم علينا ،حينئذ لامناص منه ،فكل مايمكن أن يحصل اذا كتب لها النصر هو تحرير أرضها من الاحتلال الجديد . وعلى اوسع تقدير الزام اليهود بالانسحاب من الاراضي التي ليست لهم في قرار التقسيم . لأن الهدنة المعقودة بين اليهود والدول العربية المجاورة وهي مصر ولبنان وسورية والاردن سنة ١٩٤٩ لاتعترف بحدودهـــا الراهنة وتقرر انها حدود عسكرية لاتخول اسرائيل اية دعوى أو حق سياسي عليها . وان الحكومات العربية اذا تجاوزت ذلك سوف تهب هيئة الامم الى اجبارها على التراجع وضمان بقاء اسرائيل في

الحدود المخصصة لها لأنها عضو فيها معترف بسيادتها على هذه الحدود من معظم دول الارض . وبذلك تعود قضية فلسطين الى نقطتها الحاضرة اي التي كنت علينا في سنة ١٩٤٨ . وتظل حرب التحرير الشعبية ضد وجود اسرائيل هي الوسيلة الوحيدة لازالتها والتي لا بديل عنها .

ومن الجدير بالتأمل أن اليهود وانصارهم "جن" جنونهم حينما بدأت حركات التحرير الفدائية التي اخذت تقوم بها طلائع الفلسطينيين الباسلة ، ثم حينما قامت منظمة التحرير وجيش التحرير الذين كان من المفروض أن يستلما زمام المبادرة ويقوما بالحركة التحريرية الشعبية على النطاق الواسع اللذين لم يتسن للحركات الفدائية الطليعية التي سبقتها من الاسباب والامكانيات المادية والسياسية والتأييد ماتسنى لها . لأنهم — اي اليهود — يعرفون أن الشعب العربي الفلسطيني غير مقيد بالاعتبارات الدولية التي تقيد الدول العربية أولاً. وان حقه في العودة الى بلاده التي طردته منها اسرائيل وحرمتها عليه مقرر مشروع ومعترف به في قرارات هيئة الامم التي نشأت اسرائيل بموجبها ثانياً . في حين انهم يعرفون أنه ليس للدول العربية اي سبيل الى ذلك بحيث يبدو أن ما ينطوي في ما كان وما يزال البعض يقولونه من عدم جواز تحميل الشعب الفلسطيني مهمة تحرير وطنه وما يؤدي هذا اليه من الغاء دور هذا الشعب وتمييع القضية منسجم كل الانسجام مع رغبات اليهود وانصارهم . ولقد بذل هؤلاء جهودهم في اوساط هيئة الامم وخارجها وابرقوا وارعدوا وهددوا وانذروا واستعملوا كل وسائل الضغط ليعطلوا ويشوشوا ويعرقلوا العمل الفدائي ونشاط منظمة التحرير وجيشها . وليس من التجني مايقال انه ماكان مواقف البعض في مناوأة نشاط الفدائيين ومنظمة التحرير وجيشها انما كان من آثار ذلك وتجاوباً معه ، ولا سيما انه كان بين الذين وقفوا هذه المواقف وانصار اسرائيل تعاطف وترابط شديدان .

ومن العجب أن الأمرين قد وقعا في ظروف نكبة فلسطين ١٩٤٧ — ١٩٤٨ وكان لكل منهما آثاره الطبيعية والسياسية ، ثم ينسى القائلون بذلك النتائج المريرة التي انتهت اليه القضية — النكبة ويرسلون أقوالهم ويصرون عليها ... فلقد هب الشعب العربي في فلسطين للثورة والنضال ضد قرار التقسيم غداة صدوره وجاهدوا مع من عاضدهم من ابناء الشعب العربي في البلاد الاخرى اروع جهاد وأقواه وأوسعه من اول كانون الأول ١٩٤٧ الى اواسط شهر آذار ١٩٤٨ ، واستطاعوا أن يضيقوا الخناق على اليهود في كل مكان ويذيقوهم بأس الجوع والعطش والرعب والحصار ولم يمكنوهم من الاستيلاء على شبر من اراضيهم في المدن وخارجها ولا من فرصة للحركة والتصرف بحرية في اماكن كثافتهم ومستعمراتهم ، برغم المساعدات العظيمة المتنوعة التي بذلها لهم الانكليز ، وبرغم ما كان عندهم

من منظمات عسكرية قوية؛ وأوقعوا فيهم وفي ممتلكاتهم وحقوقهم ومستعمراتهم أفدح الخسائر مما جعلهم يهرعون فزعين مضطربين الى مجلس الامن طالبين منه تنفيذ قرار التقسيم الذي عطله النضال العربي. ولم يستجب المجلس اليهم وقرر أن التنفيذ يقتضي استعمال القوة وانه لايرى ذلك ممكناً وسائغاً. ثم عرض جعل فلسطين تحت الوصاية بدلاً من التقسيم، فلم يوافق العرب واليهود. لأن الأولين إعتقدوا انهم احبطوا التقسيم وحرروا وطنهم. ولأن الآخرين رأوا في ذلك قضاء مبرماً على حلمهم الذي كاد أن يتحقق بقيام دولتهم. وحينئذ قرر إعادة القضية الى الجمعية العامة لإعادة النظر فيها. وقررت هذه تعيين وسيط دولي لدرس الأمر وإيجاد تسوية مناسبة يرضى بها العرب واليهود. أي ان قرار التقسيم قد تجمد بل الغي. وجن جنون اليهود والانكليز فبادر الانكليز الى مساعدتهم مساعدات عظيمة بمقادير عظيمة من مختلف انواع السلاح الذي كان مخزوناً في فلسطين، وسلموهم الموانىء والمطارات، وخولوهم اقامة حكومة في مناطقهم وجباية ضرائبها واستعمال مرافقها. وبذل اليهود جهودهم الجبارة في جلب السلاح على اختلاف انواعه وبكل وسيلة ومن كل مكان ومعه الضباط والمقاتلون المدربون لتعديل حالتهم المتدهورة.

ولقد كان معظم السلاح الذي كان الشعب العربي يقاتل من مخزوناته او مشترواته وبدأ يشح في أيديهم في أوائل شهر آذار - مارس. فتعالت استغاثاتهم واستغاثات قوادهم وزعماء حركتهم في فلسطين وخارجها بطلب المدد من الحكومات العربية لأنها المصدر الوحيد الذي يمكنه ذلك. فلم يلقوا استجابة. فانقلب نتيجة لذلك ميزان القوى لصالح اليهود واخذوا يتغلبون على مقاومة العرب ثم يدحرونهم من اماكنهم ويستولون عليها واحداً بعد آخر ويوقعون المجازر المتعمدة التي أرعبت العرب وجعلتهم يفرون ناجين بأرواحهم وأعراضهم، وبذلك استطاع اليهود ان يعلنوا قيام دولتهم في ١٥ مايس ١٩٤٨ ولو تسنى للنضال الشعبي المدد الكافي الذي يجعله يصمد ويحافظ على مركزه لما كان من امكان لذلك، حيث يبدو عظم الجريمة او الخيانة التي تمثلت في جمود الحكومات العربية وتقصيرها. ولقد كان في امكانها ان تمدهم بما كان ميسوراً لديها، وكان ذلك يغنيها عن الدخول الى فلسطين في حرب رسمية في ١٥ مايس فلم تفعل بذهنية أنها هي التي يجب أن تعطل بقوتها قرار التقسيم وانما هي القادرة عليه دون الشعب. ولقد كان هذا الموقف من أعظم ما ادخل السرور على اليهود وأنصارهم، حتى لقد أثر عن وايزمن الزعيم اليهودي المشهور قوله إنه لم يشعر بشيء من الطمأنينة الا حينما عرف رأي الحكومات العربية هذا ونيتها في أخذ المبادرة من الشعب، لأنه يعرف ان الحكومات العربية حينئذ سوف تضطر الى التوقف والتراجع أمام الضغط الدولي ومجلس الأمن وهيئة الأمم التي

هي من أعضائها . وكان ذلك فعلاً . فالنضال الشعبي ضعف، ثم توقف، ثم أخذ يندحر . وكان ما كان من اقدام سفاحي اليهود على المجازر المروعة ، ومن مأساة النزوح من الرعب واخلاء فلسطين لليهود . ودخلت الحكومات العربية الى فلسطين محاربة دخولاً مزيلاً وعلى غير استعداد وعلى غير وفاق وتضامن ومنها من كانت متفقة مع اليهود والانكليز على تنفيذ التقسيم والوقوف عند حدوده . ومنها من وقفت مواقف غدر بل وخيانة ضد الحكومات الأخرى . ثم لم يكن في وسعها جميعها الا الانصياع لأمر مجلس الأمن ووقف النار . ولقد كان مركز العرب الحربي حسناً بعض الشيء على سوئه لأنه لم يكن متجاوزاً حدود التقسيم والاقسام العربية حسب تخصيص قرار التقسيم باستثناء النقب حينا وقف اطلاق النار للمرة الاولى . ثم تحمس بعضهم لاستئناف القتال بعد انتهاء الهدنة الأولى فاستؤنف بغير استعداد وبغير وفاق وتضامن ، وتكررت مواقف التقصير والتآمر فكانت الكسرة المروعــــة التي ضاع فيها في الأيام الخمسة التي امتدت فيها الحرب المرة الثانية كثير مما كان في أيديهم مما هو مقرر للعرب . واستغل اليهود بلبلة العرب وهلعهم وما قام من جفاء فيما بينهم فاستمروا في الحرب ضد مصر حتى استخلصوا النقب ومساحته خمسا مساحة فلسطين كلها . وقد انصاعت الحكومات العربية ثانية وثالثة لأمر مجلس الأمن ، ووقعت على اتفاقيات الهدنة في حدودها الحاضرة ، حتى لقــــد اعتقد الكثيرون أن استئناف القتال في الحالة التي استؤنف فيها من قبل العرب كان لتمكين اليهود من ذلك .

واذا تذكرنا ان الحكومات العربية التي كان لها قوة عسكرية مهمة وهي مصر والعراق والاردن كانت تحت احتلال وسيطرة الانكليز حكما وسياسة وجيشا ، وهم الذين زرعوا جرثومة اليهود وغذوها بكل وسائل القوة والتأييد لابقاء هيمنتهم على بلاد العرب وابقاء هذه البلاد ضعيفة مجزأة ، وأن منها ما كانت مقاليد جيشها في ايدي ضباط انكليز، ظهر ان اعتقاد الكثيرين لم يكن مجنيا في أمر استئناف الحرب بل وفي التدخل الرسمي في اصله، لأجل ابعاد الشعب عن النضال بعد ان اوشك على احباط التقسيم وتنفيذ التقسيم . ولقد صار معروفاً يقيناً ان هناك من دخل الحرب وهو متفق مع اليهود على قبول التقسيم والوقوف عنده . ولقد كان اول امر اصدره القائد الأعلى للجيوش العربية هو كف يد الكتائب الشعبية عن النضال وتجريدها من السلاح واقتصار الحرب على القوات الرسمية . ولقد صار معروفاً يقيناً انه كان للضباط الانكليز الذين كانوا يتولون زمام جيش احدى الدول العربية مواقف غدر في القدس ثم في نكبة اللد والرملة في الجولة الثانية سقطت بها تان المدينتان وما وراءهما الى القدس في ايدي اليهود وانكسرت الجبهة المصرية نتيجة لها .

نخلص من كل ذلك الى التأكد والاقتناع بأن حركة التحرير الشعبية هي الفكرة أو الوسيلة الأصيلة الوحيدة للنضال ضد اسرائيل في الأرض المغتصبة من فلسطين، وإن ذلك لا يكن إن يكون من مهمة الحكومات في الظروف الدولية الراهنة على الأقل التي قد تمتد عشرات السنين . وكل ما يجب ان يكون هو قيـــام الحكومات بدور التمويل والتنظيم والحماية والمنطلق ثم الاستعداد والقدرة على حماية حدودها اذا ما حدثت اسرائيل نفسها بالعدوان عليها بحجة مساعدتها لحركة التحرير . واذا وقع ذلك منها وكانت الحكومات العربية قد تعلمت الدرس جيداً وكان استعدادها للدفاع والحماية والحركة والمستوى المطلوب عدداً وعدة وكفاءة وفناً وتقنياً لكل أمر وحسن قيادة وتدريب وتجهيز وكل هذا شرط اساسي وواجب محتم، فقد يكون عدوان اسرائيل حينئذ سبباً لانطلاق القوات العربية الرسمية نحو الارض المغتصبة وتوغلها فيها انطلاقاً وتوغلاً كفيلين بخنق اسرائيل وانهيارها، لأنه ليس لها عمق دفاعي تقف عنده خطاً بعد خط او على اقل تقدير كفيلين باجبارها على الرجوع عن كل ماليس لها في قرار التقسيم وهو مدن القدس واللد والرملة ويافا وعسقلان واسدود وبئر السبع والناصره وعكا وشفاعمرو، مع ما يتبعها من مئات القرى وملايين دونمات الارض المروية وغير المروية وعلى قبول عودة اللاجئين الى اراضيهم في القسم المخصص لها . وهذا يخنقها اشد الخنق وقد يؤدي الى انهيارها ، فاما ستضطر الى سحب (٥٠٠٠٠٠) يهودي اسكنتهم في القسم المخصص للعرب الذي احتلته بغيـــاً وامكانهم في قسمها مع (٥٠٠٠٠٠) عائد عربي يعودون الى هذا القسم . واذا لم تختنق لتنهـــار فتبدأ حركة التحرير الشعبية مرحلة ثانية تكون اسهل بكثير من الاولى ولا سيما انه سوف يكون في القسم الذي يظل في يـــد اليهود (٨٠٠٠٠٠) عربي سيكونون حتماً اقوى عون في هذه المرحلة..

ولقد ادرك ملوك ورؤساء العرب ذلك، فكان قرارهم في مؤتمر القمة الاول عام ١٩٦٤ بانشاء كيان فلسطيني تنبثق عنه منظمة تحرير وجيش تحرير يستلمان زمام مبادرة النضال التحريري الشعبي وبالتزام الحكومات العربية بالتمويل والتجهيز والتأييد والحماية وتيسير الانطلاق . ثم قرارهم باستكمال الاستعداد الدفاعي واقامة القيادة العربية الموحدة التي تكون قوى الدفاع العربي تحت اشرافها وقيادتهـــا وتحريكها لحماية حركة التحرير وحركة تحويل روافد الارْدن لمنع الماء عن اسرائيل . ولردع إسرائيل وحماية الحدود العربية اذا ما حدثت اسرائيل نفســـا بالعدوان على الاراضي العربية بسبب التحرير والتحويل.. ومن المؤسف ان نقول ان البعض جارى هذه القرارات مجاراة ثم ما لبث ان اخذ يضع العراقيل في طريق تحقيقها وان هذا البعض من اصحاب فكرة ان التحرير

ليس من مهمة الشعب وانما هو من مهمة الحكومات . وهي الفكرة التي تسر اليهود وانصارهم كما قلنا قبل .

والسؤال الآن ما هو السبيل الى حركة تحرير شعبية فعالة نستطيع ان نواجه بها اسرائيل ونناضل بها ضدها ؟

وقبل الجواب على ذلك يجب ان يتأكد كل العرب ان نضال اسرائيل حتى تتقلع جرثومتها امر حتمي لا خيار للعرب فيه ولا بديل لهم عنه مها طال الزمن ليس من اجل شعب فلسطين وارض فلسطين وحسب . وانما من اجل بلاد العرب والشعب العربي قاطبة . ولقد ثبت لمن كان عنده شك ما - أن اسرائيل ومن وراءها من طواغيت الاستعمار يبيتون التوسع والهيمنة على بلاد العرب وإبقاء العرب ضعفاء واهنين وابقاء بلادهم مجزأة معطلة عن اي ازدهار وتكامل ووحدة ويتخذون اسرائيل مخلب القط . وان اسرائيل مادامت قائمة مستقرة في هذا الجزء المهم جداً الذي قامت فيه من بلادنا ،فلن يكون امن ولا سلام ولا تكامل ولا ازدهار ولا وحدة بل ولا استقلال حقيقي للعرب قاطبة . واقتلاع جرثومتها لا يمكن ان يكون إلا بالقوة الحربية على أرض فلسطين .

أما الجواب على السؤال فهو في تحقيق قرارات مؤتمر القمة التي كانت نتيجة لادراك الملوك والرؤساء وحكوماتهم لأبعاد القضية ومقتضياتها وطريقة السير فيها تحقيقاً فعالاً يضمن لمنظمة التحرير وجيش التحرير المنطلق والحماية والتمويل ، مع ضمان قدرة الدفاع العربي على حماية الحدود العربية . وننص على وصف التحقيق بالفعال لأن المنظمة التي قامت تطورت الى دولة لها خصائص ومراسم وتشكيلات وأبهة الدولة . وفعلت كل ما تقتضيه هذه الخصائص والمراسم والأبهة والتشكيلات عدا حرب التحرير التي وجدت من أجلها. ومثل هذا يقال بالنسبة لجيش التحرير الذي تقيد بسياسة الحكومات وارادتها واعتبر نفسه جزءاً من الجيوش الرسمية تابعاً للقيادة العربية الموحدة او بتعبير آخر جيش (الدولة الرابعة عشرة) وربط حركته بحركتها ولم ينطلق بعمل التحرير الشعبي المستقل عنها الذي تكون في الاصل من اجله .

ولست اقول هذا الآن ، فقد قلته قبل بضعة اشهر لرئيس المنظمة وقائد جيشها في زيارة تكرّم بها عليّ .

وقد تكون حالة وظروف وسياسات الحكومات العربية ذات أثر في ما كان من تجمد المنظمة وجيشها رغم ما اقترحته الحكومات عليها من اموال طائلة وحصل في إيديها من اسلحة متنوعة بمقادير كبيرة . غير أن لطبيعة الاشخاص الذين تولوا زمامهما أثراً كبيراً كذلك في هذا التجمد . ولا انكر أنهم استنفدوا كل ما عندهم من طاقة وبذلوا كل

ما يمكنهم من جهد . ولكني للحق والواجب أقول بكل صدق وصراحة أنهم لم يكونوا ذوي طبيعة ثورية فلم تؤت تلك الطاقة والجهود التي بذلوها ثورية كما هو المطلوب بل وليس قريباً منه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الحماية والمنطلق الذين كان يجب توفيرهما لم توفرا أيضاً . فالقيادة العربية الموحدة التي جعلت وسيلة الحماية - تعثرت بعثرات عديدة ومتنوعة وفي أكثر من بلد حتى غدت مشلولة . وهذا أغلق امكان الانطلاق التحريري على اعتبار أنه يكون قبل أوانه . ولقد حاولت المنظمة تنظيم الشعب الفلسطيني وتعبئة طاقاته فوضعت في سبيل ذلك من العثرات ما عطل المحاولة . وبعض البلاد لم يسمح بانشاء كتائب لجيش التحرير لاعتبارات علية وشخصية وسياسية خاصة . ولقد تعرض العمل الفدائي - الذي سبق قيام المنظمة واستمر والذي كان موضوع ترحيب حار من الجماهير في كل البلاد العربية لأنه كان معبراً عن مشاعرهم وهتافاتهم ورغباتهم العامة العارمة وتمرداً على جمود الحكومات العربية التي ظلت تذكر انقاذ الوطن والجولة الثانية عشرين سنة دون أي عمل جدي ساكتة على الظلم والغبن والواقع المهين والعار المشين ولأنه حمل بشائر نواة تحقيق شعار الحرب التحريرية الشعبية والذي أثار من هلع اليهود واضطرابهم ما كان مقدراً له على ضيق نطاقه - لعراقيل متنوعة وصل بعضها الى المطاردة والتعذيب والاغتيال الرسمي بحجة أنه كان قبل أوانه وأنه قد يكون ضاراً . ولم يأت هذا الاوان رغم مرور عشرين سنة طويلة عليه . ثم انيط استكمال بنيان وقوة القيادة الموحدة بالذين اعترضوا سبيل العمل الفدائي بالذات ووضعوا في طريقه العقبات والعثرات .

واذا لاحظنا ان عمليات الفدائيين التي أثارت الرعب والهلع في اليهود كانت محدودة النطاق والافراد والامكانيات ، ظهر لنا ما تستطيع ان تحدثه عملية تحرير واسعة تقوم على الآلاف بل عشرات الآلاف مدداً بعد مدد من الفلسطينيين اللذين يتحرقون لذلك أشد تحرق بنسبة ما احدثته النكبة في انفسهم واحوالهم واحوال ذويهم من مهانة وذل وجوح وضياع وجوع وحرمان وتشرد وفقد للوطن ، مما افقدهم كرامة الشعور بالوجود والكينونة الوطنية التي لا يمكن ان يعوضها شيء وما تعرضوا له هم وذووهم من تقتيل وتمثيل وانتهاك اعراض وما فقدوه من أموال وممتلكات وحقول وكروم وبساتين وحوانيت واستقرار وهناء عيش في أرض الآباء والاجداد ومن اخوانهم من ابناء البلاد الاخرى الذين كانوا يهرعون الى التضامن معهم في ثوراتهم ويمزجون دماءهم بدمائهم ويعيشون لكيتهم . ويكونون مجهزين منظمين ميسراً لهم الانطلاق ، يقودهم ويدبر شؤونهم ثوريون واعوان مؤمنون بالنضال الى النهاية مهما عظمت تضحياته ومشقاته وطال أمده ، حيث

يتثالون على ارضهم المغتصبة من كل صوب ومنفذ وفي كل نهار وليل يدفعهم الحقد الذي يغلي في صدورهم والشوق العارم المشتد في نفوسهم الى أخذ الثأر وغسل العار واسترداد وطنهم السليب العزيز، وحيث يستطيعون من دون ريب بحرب الكر والفر التي مارسوها ان يزلزلوا الأرض من تحت اقدام اسرائيل ويضيقوا عليها الخناق ويزرعوا فيها الرعب والهول فتكاً وتدميراً ويمنعوا نموها ويشلوا حركتها ويجبروا سكانها على الرحيل منها النجاة بأرواحهم وأموالهم والخلاص من الجحيم الذي انفتح عليهم . ويستمرون على ذلك بدون كلل ولاملل الى ان تنهار في مرحلة او مرحلتين دون ان تستطيع الجيوش الرسمية اليهودية ان تقهرها .

ولقد فعل ثوار فلسطين شيئاً من ذلك في سني ١٩٣٦ – ١٩٣٩ فزلزلوا الأرض تحت أقدام الانكليز واليهود والحقوا بهم الخسائر وضيقوا عليهم الخناق واوقعوهم في أشد حالات الارتباك والذعر والذهول ، برغم ضعف امكانياتهم وقلة عددهم بالنسبة لعشرات ألوف الجنود الانكليز وعصابات اليهود المدججين بالسلاح الفائق كثيراً جداً على سلاح الثوار كمية وكيفية ، أجبروهم على الغاء التقسيم الذي اقترحته اللجنة الملكية عام١٩٣٧ ووافقت الحكومة الانكليزية واليهود عليه ، وعلى الاستجابة الى مطالب العرب بوقف الهجرة وبيع الاراضي وتشكيل حكومة وطنية باكثرية عربية . وكان هذا عرضاً من الحكومة الانكليزية على ممثلي الحكومات العربية والفلسطينيين في المؤتمر المنعقد في لندن في اوائل عام ١٩٣٩ . وقد رأى الممثلون بعض الثغرات فلم يتقيدوا به فأعلنته الحكومة الانكليزية كحل مرتبطة به في كتاب أبيض . وكان يمكن تنفيذه لولا نشوب الحرب العالمية الثانية واغتنام الانكليز فرصتها لمطاردة مدبري الثورة واركانها مطاردة عنيفة .

ولقد يحلو للذين وقفوا ضد العمل الفدائي ان يقولوا إنه كان من اسباب النكبة الجديدة . ونقول كلا بملء الفم ! فالسبب الحقيقي هو تصامم حكام العرب عما جاش في ضمير العرب غداة النكبة الاولى وهتافاتهم التي وصلت الى عنان السماء الداعية الى توحيد طاقات العرب الهائلة العسكرية والاقتصادية والسياسية تحت راية قيادة موحدة صحيحة وعن الاستعداد المتناسب مع قوة ومركز المئة مليون انسان المنتشرين في العشرة ملايين من الكيلومترات المربعة للجولة الثانية التي يغسل بها العار ويؤخذ بها الثأر ويسترد بها الوطن السليب عشرين سنة طويلة ، مفضلين على ذلك اعتباراتهم الشخصية والاقليمية والفردية وقانعين بذلك الثغرات للمستعمر يندس من خلالها دسائسه فيأتيهم حتى ، برغم ما كان من آلاف المرات التي اعتدى اليهود فيها على حدودهم فرضوا بالذل والمهانة دون ان تحركهم نخوة او كرامة . ولو انهم استجابوا الى تلك الهتافات واتحدوا عسكرياً واقتصادياً وسياسياً وسدوا ثغرات

الدسائس الاستعمارية وعرفوا كيف يستعملون طاقاتهم لما كان لحثالات الأرض وأذل أممها ان يتحدوهم هذا التحدي الصارخ المهين في عقر دارهم فضلا عن عدم استطاعتهم الصمود في الارض التي اغتصبوها . وهذا القول الذي يقوله قائلوه يستتبع التسليم بالأمر الواقع المهين المذل القابل للاتساع والامتداد حتى يشمل كل مايريده اليهود والمستعمرون الذين يؤيدونهم . ورحم الله الشاعر حيث يقول :

ولا يقيم على هون يراد به | إلا الاذلان عير الحي والوتد
هذا من الضيم مربوط برمته | وذا يشج فلا يرثي له احد

ومن الجدير بالتأمل ان الذين يقولون هذا القول هم اكثر الناس عداء للوحـدة وتخريباً لها وتعاوناً في ذلك مع اعدائها في الخارج .

وقد يبتسم بعضهم حين تذكر المئةمليون عربي، ويقول: ومانفعهم وهم في اشدحالات التخلف الذي كان من اسباب النكبة من مختلف النواحي الخاصة والعامة والفنية وغيرالفنية !

ونقول لهم :إن التخلف ليس جبلة في العرب وليس مستمراً . وهم منذ خمسين سنة رغم ما كان من دسائس الاستعمار وعراقيله في حركة مستمرة نحو الامام . ويكفي ان يقايس بين حالتهم العلمية والاقتصادية والاجتماعية والذهنية الآن ، وحالتهم في كل ذلك قبل إربعين سنة بل وقبل عشرين سنة ، ليظهر الفرق العظيم والاثر البالغ لحركة التقدم مهما بدا انهم مايزالون متخلفين جداً بالنسبة للدول الغربية التي اسرائيل جزء منها بل انشط جزء منها والتي تسبق العرب في مجال العلم والفن والاقتصاد والاجتماع ثلاثمئة سنة على الاقل. ومع ذلك فان هذه الامة على تخلفها كانت تنفجر كالبركان حينما كان يتيسر لها القيادة الصالحة المؤمنة وتقاتل بكل ضراوة وتتحمل أجسم التضحيات ثم تنتصر على اعدائها في النهاية . فعلوا هذا في الحروب الصليبية التي امتد كفاحهم فيها مائتي سنة . وفعلوا هذا في الجزائر التي امتد كفاحهم فيها مئة وثلاثين سنة . وفعلوا هذا في مصر والسودان وتونس والمغرب وسورية ولبنان والاردن والعراق التي امتد كفاحهم فيها عشرات السنين، وحرروا نتيجة لذلك بلادهم من رجس الغزاة .

ومن الجدير بالتأمل ان الذين يقولون هذا القول هم من الناس الذين يكونون في سبات شهواتهم وانانيتهم ثم يفيقون في الازمات ليرصوا الكلام ويوزعوا اللوم والمسئوليات ويثيروا روح اليأس والانهزام .

، والتجمد الذي وقع في تحقيق قرارات مؤتمرات القمة تحقيقاً فعالاً انما كان لأن

البعض يعمل بوجهين باطن وظاهر . ولأن الحكومات ظلت تحتفظ بسيادتها وتستطيع أن تعطل كل قرار لايحلو لها ولا ينسجم مع سياستها الشخصية والمحلية وارتباطاتها وعواملها الخارجية . وقد تكرر ذلك منها منذ انشاء الجامعة العربية ثم منذ انعقاد معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي واستمر الى مؤتمرات القمة .

وعلاج ذلك الوحيد هو الاتحاد الدستوري الذي تتنازل به الحكومات عن تلك السيادة في امور الجيش والسياسة والاقتصاد والمواصلات على الاقل ، بحيث يتاح لحكومة الاتحاد توفير أسباب قيام قيادة عربية موحدة نافذة قوية مستعدة كل الاستعداد ، والسير في سياسة عربية مستقلة لاتستوحي الا المصلحة القومية . ومن ثم توفير الدفاع عن حدود الأرض العربية ، وتيسير التمويل والتجهيز ، والانطلاق لحركة تحرير شعبية واسعة ، وتسليمها لأيد ثورية فعالة لاتبعثر الاموال ولا تستنفد الطاقات بالكلام والتصريحات والخطابات والرحلات والمراسم والتشكيلات .

ولقد رسمنا في مقالنا المنشور في عدد المجلة السابق خطة دستورية اتحادية في نطاق اضعف الايمان ، ولكنها يمكن أن تضمن العلاج العاجـــل . وقلنا انه اذا لم تستجب كل الحكومات اليها فعلى الحكومات التقدمية التي يظهر انها اكثر ادراكا لأبعاد الموقف وأشد ايماناً بوجوب النضال والاستعداد له واقوى حماساً لتحرير فلسطين أن تستجيب اليه : إما في نطاق اتحاد الدول العربية الذي رسمنا خطته الدستورية ، وإما في نطاق الدولة المتحدة الذي ينبغي حينئذ تعديل وتوسيع نطاقه بما يتناسب مع اسلوب الدولة المتحدة . ونعتقد ان ميثاق ١٧ نيسان ١٩٦٣ المنعقد بين مصر وسورية والعراق مايزال صالحاً من مختلف الاعتبارات في هذه الحالة لاقامة وحدة اتحادية بين الحكومات التقدمية ، مع تعديل موضوع القوة الدفاعية بحيث تتحرر من اية صبغة اقليمية ادارة وتنظيماً وحركة ، ولا يكون للحكومة المحلية أي سلطان عليها وتكون تابعة لقيادة عامة تنظيماً وإدارة وتحريكاً .

ولقد طرحت حكومة سورية وحزبها بعد النكبة الجديدة الاليمة موضوع تحقيق صيغة مناسبة للوحدة بين الحكومات التقدمية كعلاج عاجل وكتوليد لشعارها العقائدي . ويعني هذا أنها قانعة اكثر من غيرها بوجوب وضرورة وسرعة تحقيق ذلك . وانه لكذلك حقاً . وانه لجدير بالترحيب الحار . ولا ندري هـــل خطت خطوة عملية في هذا السبيل أم لا ؟ فان كانت فعلت فنرجو ان تحث الخطى بنسبة ضرورة الموضوع العاجلة الخطيرة وتلاحق الامر ملاحقة متواصلة وجادة . وان لم تفعل فنرجو بكل الحاح ان تفعل وأن لا تكتفي بالإعلام والبيانات والتصريحات ، مع بذل كل جهد للتغلب على اي اعتبار وازالة

كل عقبة في الطريق . فالوحدة مصيرية للأمة العربية . وفي هذا الظرف الذي تواجه فيه امتنا اعظم التحدي واشد الاخطار والمؤامرات، هي اشد ضرورة وعجلة من أي وقت آخر. مما يوجب على كل عربي مؤمن صادق أن يجعلها فوق اي اعتبار . ان ما جرى في السنوات السابقة قد اوجد شيئاً من الانكماش في الآخرين نحو الدعوة الى الوحدة والحديث عنها وجعلهم يترددون بل ويقولون انه لم يأت وقتها . وجعل بالتالي إستجابتهم للدعوة اليها غير سهلة . وهذا يجعل ماقلناه آنفاً أشد وروداً وضرورة .

التنمية والإنسان

جاك بيرك

ترجمة

أديب اللجمي

« قدم الأستاذ الكبير جاك بيرك هذا البحث الرائع الى لجنة من الاخصائيين شكلتها منظمة اليونسكو في آخر سنة ١٩٦٥ ، حول « دور العنصر الانساني في البلاد التي استقلت حديثاً . » وفيما يلي ترجمة امينة لهذا البحث. على أننا قد اجتزأنا منه بعض الفقرات، لا لضعف قيمتها ، بل بسبب ضيق المكان المخصص للبحث في هذه المجلة » :

ان تزايد عدد الشعوب التي نالت الاستقلال بعد أن كانت من قبل مستعمرة ، هو أحد الوقائع الكبرى في عصرنا . فبالرغم من تفجيره لمنطق الأشياء الأكثر تنوعاً: العاطفة والحساب، المهمات المادية والالتزام المعنوي ، التطبيق والنظرية ، فهو يعبر قبل كل شيء عن استعادة الانسان الحرية والكرامة اللتين طالما عاكستها علاقات القوة . ومن الضلال أن نتوقع من هذه

العلاقات توقفاً سريعاً كلياً ، الا أن الإشكال الذي تثيره ، حين تقف في وجه مايبنغي أن نعتبره بالحركة التي لاسبيل الى مقاومتها انما هو أمر واقع، لاتستطيع أن تبدده السياسات مها تكن واقعية .

ان هذا هو مايقره الفلاسفة على طريقتهم . فقد جعل ماركس الانسان غاية العالم الحقيقية ، والأب تيلاردي شاردان أدخل مفهوم « الأنسنة hominisation » للكون . أما الوجودية فتريد أن تكون مذهباً انسانياً . وليس علينا هنا أن نفرّق بين هذه المذاهب ، يكفينا القول انه مامن أحد ينتمي اليوم ، بصورة مكشوفة على الأقل ، الى داروين المزيف ، أونيتشة الكاذب ، أو غوبينو المزعوم ، هؤلاء الذين ادعت ايديولوجيا القتل أنها قد استمدت وحيها منهم منذ ربع قرن فقط . ان المساواة بين الناس ، وبين الأعراق ، أو القوميات على الأصح ، قد أصبحت اليوم مسلمة . فالامبراطوريات الاستعمارية تنهار ، وان لم يكن انهيارها بدون معارك ، وبدون خدعة ، فهو انهيار لامدافع عنه . ان الاحتلال والاستغلال ذاتها اليوم ، يجب أن يكوناً ، أو رسمياً ، لخير البشر .

لئن بلغ عدد أعضاء الأمم المتحدة ضعفي أوثلاثة أضعاف عدد أعضاء عصبة الأمم ، فتلك دلالة اجمالية ، الا أنها لاتقبل الشك . فقد أضيفت الآن الى حقوق الانسان والمواطن ، التي كانت تطالب بها أخلاق عصر النهضة ، حقوق الشعوب بوصفها كذلك ، استناداً الى مطلب عام واجماع عام تقريباً ، الا أن الشعوب ذاتها ليست وحدها الداعية الى هذا المطلب الجديد : فالمرأة ، والطفل ، والكهل ، والقاصر ، والمريض ، والجانح ، يفيدون منها كذلك . ان فكرة الانسان ، والانسانية ، قد تشعبت وعمقت . ثم انها تزودت بتجربة موضوعية ومكتسبات . فلم يعد أحد يكتفي بالمسلمات المجردة . وكل ماكان لدى

الانسان مكبوتاً ، ومهدوراً ، ومستغلاً ، قد تأكد الآن وفرض ذاته ، لاعلى شكل استقلال أودمقراطية صوريتين وحسب ، بل في أكثر ميادين التفوق تشخيصاً . ان المثل الأعلى في الرخاء ، ومعه المثل الأعلى المتوقع في الوفرة ، بعد الانطلاقة الاقتصادية ، يتراءى للجميع ، بل ويحاول أن يخفف المعارضة بين الأيديولوجيات ، في سبيل المهمات المشتركة . ان موضوعات ، كموضوع تدمير الأرض، أو موضوع الجوع ، أو سوء التغذية ، أو الأمية ، أصبحت تثير أكثر من مجرد مؤتمرات وأكثر من مجرد حملات . ان الفكرة والتطبيق قد نشرهما تضامن عالمي ، ينبذ السيادات المكتسبة ، ويطالب على الأقل بتوزيع الميزات الأولية ، خارج جميع سياسات المعونة ، الثنائية الجانب أو المتعددة الجوانب .

قد يكون في هذا شيء من التفاؤل والمثالية ، أو شيء من الوهم ، ولا يجوز لنا أن ننكر ذلك . ان مجموع البؤس المادي والمعنوي الذي يشكو منه العالم في منتصف القرن العشرين قد لا يكون أقل مما كان عليه من قبل . الجديد في هذا هو فكرة البؤس ، واستهجانها . كان نهرو يقول : « ان الجديد في الهند، ليس هو البؤس ، بل شعور الشعب الهندي بالبؤس ، واستعجاله وجوب التحرر منه» . ولو حرّفت كلمة مأثورة ، لقلت ان الشقاء فكرة جديدة في العالم . هكذا تنمو سلبياً اكثر مما تنمو ايجابياً ، نزعة انسانية يمكن اعتبارها شاملة الارض كلها . حقاً انها لم تعبىء بعد جميع الجهود التي يمكن وينبغي أن تضعها تحت تصرفها تنمية التحليل والانتاج . بل يحدث أن تحيرنا جدتها . كما أن اخفاقاتها كثيرة ، تثبط عزيمة كثير من النوايا الطيبة ، بينما تزييفها يدعو الى القنوط . واذ أنها تربط فكرة التفوق المشخص بفكرة الحقوق المعنوية ، كما تربط المطلب الجماعي بالتقدم

الشخصي ، فان بعض الصعوبات التطبيقية التي لا يمكن تجنبها، تتيح احياناً ظهور نقيض خدّاع او ظهور أُلْبِية ، من بين اختيارات متكاملة . ويمكننا على الأقل أن نبحث عن دلائل ذات مغزى في مقاربة فكرية وأخلاقية لهدف معترف به من الجميع ، او في انجازاته الملحوظة .

وقد خصصنا هذا البحث التمهيدي لجمع هذه الاهداف وتقييمها. وسيصار الى تعميقه ومراقبته ، باستقصاء اكثر تدقيقاً .

– ١ –

أراد بعض الناس أن ينكروا على مجتمع غير غربي امكانية تطوره مع محافظته على هويته ، فاستندوا زمناً طويلاً الى الزعم بوجود عقبات ناشئة عن معتقدات المجتمع أو عن اوضاعه ، تقف في وجه تطوره . الا أن ما بينته الوقائع ، على ما يبدو ، هو أن افضل مناسبة لتطور الشعب ، بل المناسبة الوحيدة لذلك ، انما يستمدها الشعب من ذاته . أما التدخل الخارجي فلا يلعب في ذلك سوى دور الحافز ، او المثير ، او المربي في احسن الفرضيات . وصحيح أن هذا الادعاء الثاني ، ليس أقل افتقاراً من الأول الى تشذيب جدّي ، ليكون اكثر تفاؤلاً منه ، وأكثر مطابقة للتجربة الراهنة على العموم . فاذا صح أن التنمية ، بالواقع وبالعقل، تستمد قوتها الرئيسية من تعميق الشخصية الجماعية، فما هي هذه الشخصية؟ انها تفرد ثقافي قبل كل شيء . ان تكاثر الاستقلال، وتقدم الصلات الدولية، يجعلاننا اكثر تأثراً بهذا التفرد مما كان في زمن الأمبراطوريات . ان هذا التفرد، في أكثر تجلياته تشخيصاً ، يرتد الى روابط بين ثقافة وبين بيئة فيزيائية . فليس من قبيل المصادفة أن تخص امة جديدة او متجددة ، مثل هذه الطاقات لإعادة تشييد مثل تلك الروابط .

« ان قدوم الربيع قد أطلق نشاطاً واسعاً في جقول وادي لولونغ Loulong ، فالجواميس التي كانت في السابق تنحر او يضحّى بها ، لم تعد ترسل الآن الى الجزار لتهدئة الإلهة ، انها اليوم تجرّ محاريث من الحديد ، صنعت لخدمة الانسان . » المكان هنا هو مقاطعة نائية في جنوب شرقي الصين . والجملة السابقة تبرز ادوار عدة اشخاص من مأساة متفائلة : الانسان ، وقد استعاد حقوقه اخيراً ، الحيوان ، الارض ، نسق الطبيعة . ويمكننا ان نقدم امثلة لاتحصى عن جهود مماثلة في سبيل اعادة البناء تلك . ان مصر تعقد آمالها على ارواء الصحراء ، والهند تخصص ، في دكا ، لجنة تقوم بدراسة اقتصاديات الدلتا التي تغذي جماعات ريفية كبيرة . فالماء والنبات ، والتربة العضوية ، يبحث عنها في علاقاتها المتبادلة فيما بينها ، وفي علاقاتها مع حياة الجماعات وعقليتها ، في هذه الارتباطات ، يكفي تبدل عامل واحد لكي يؤثر على سائر العناصر الاخرى . ان استعاضة شعب الموسي Mossi عن الحرث على الحمار باستعمال المقلاب ، قد ضاعف من مردود اقتلاع النباتات الضارة . وبعد أن تعلم المغرب كيف يستخلص الفوسفات من فلز البيريت ، اكتشف بذلك امكانات كيمائية ، ذات تأثير زراعي ، كبيرة جداً ، واكبر منها بكثير النتائج المتوقعة من بترول صحراء الجزائر : ويؤمل الا تكون هذه النتائج مالية وحسب . وهكذا يتراءى التقدم في كل مكان تقريباً كأنه تفتيح للممكنات بعد ان كانت مغلقة ، واعادة تملك جغرافي ، يظهر الكفاءات والخبرات نتيجة اعادة الاتصال بين الانسان وبين البيئة التي كانت منسية او مهملة .

ان هذا الخلق الجديد ، حين ندفعه الى اقصاه ، يضع في قيم جديدة ملاءمة الانسان السابقة في إطار الجماد ، والحيوان والنبات . وهكذا تقوم من

جديد ، بفضل الأداة العلمية ، صلات، طبيعية كانت الحضارة الصناعية ، في مرحلتها الأولى، قد حطمتها . ان هذا ، في معناه الاصلي ، هو اعطاء هوية ووطن للتقدم، وهذا ايضاً هو ما يجب ان نفهمه منه . فالبحث الذي يتوخى تكوين الانسان تكويناً جديداً وذلك بالغوص في أعماق أغواره ، هو البحث ذاته الذي يحاول تكوين هذا الانسان استناداً الى خصائصه المستمرة ، وسواء كان الأمر دراسات محليـــة ، كما في المكسيك ، او مراجعات تاريخية ، كما يفعل الآسيويون والافريقيون ، او محاولات إحياء للتراث البوذي او الكونفوشيوسي ، او تسلم الشرقيين انفسهم للدراسات الشرقية ، كما يفعل العرب بصورة خاصة ، فاننـــا نلاحظ في كل مكان محاولة التشييد ذاتها . ان التحام الشعب بماضيه وأرضه لا يقدم له دعمـــاً معنوياً وحسب ، بل ومصادر موضوعية لتفتحه . . . ان الاتصالات الجماهيرية يجب ان تعتمد على اللغات الاوروبية الممتازة. فموسكو تبث اذاعات بلغات الكيشوا والسواحلي . والافلام الهندية تنطق بلغات التامول والبنغالية والهندية البنجابيه والهندية الغجاراتية . وبصورة موازية تقريباً ، تبث اذاعات افريقيا الشمالية ، الى جانب اللغة الفرنسية ، بالعربية الفصحى والعربية الدارجة، والبربرية . ان مثل هذا التعقد ينطوي على نزاعات مخيفة ولاشك . ان ما يبقى موضع اهتمام هو بذل الجهد في تتبع الانسان مع تراثـــه الثقافي ، وفي عفويته المعنوية وفي مقوماته الفيزيائية .

لا شيء من ذلك ممكن اذا لم يقبل الانسان بنفسه . والحق ان في هذا ثورة . ان نشدان الحرية ، والمطالبة بالعدالة والرخاء او المساواة تحرك خصائص في الانسان على وجه العموم . اما بالنسبة للشعب ، فان اهتمامه بذاته ، واعترافه بالشخصية التي كافح طويلا في سبيلها ، انما هي أمور أخرى . وطبيعي ان ذلك

ليس من الامور البديهية . ان نزعة التركيز الاوروبية في السابق كانت تعمم نموذجها الخاص عن الانسان العالمي . وكان من الصعب التحرر من هذا النموذج. أما اليوم فان التعميمات ذاتها تؤثر انطلاقاً من المجتمع « الفائض » ، ومن انجازاته الامريكية ، او المتخذة طابعاً امريكياً . ان تساؤل مونتسيكو « كيف يمكن إن يكون الانسان فارسياً ؟ » تطرحه على نفسها جميع شعوب العالم تقريباً . أينبغي لها ان تجيب عنه ؟ نعم ، والا كانت جهودها في سبيل الحرية والرخاء عديمة المعنى لانها خلو من أي موضوع . فيجب اذن أن نعيد هذا الموضوع الى حقوقه ، الى حقه اولاً في أن يشعر بذاته ويعرف ذاته ، ويتصرف وفق ذلك .

ان نوعاً من النظرة التي نلقيها على ذواتنا ، هو أحد الدلائل الصارخة على تحول كهذا . ففي حضارات الشرق المتسمة بالحياء ، في هذه الانظمة التي يملي فيها الاعتقاد والعادات انفصال الجنسين عن بعضها ، ومنع التمثيل وبصورة عامة اختلاف الاسماء ، تنمو الآن ، وفي هذا دلالة ، أشكال فنية كالمسرح ، والقصة ، والرسم . من المحقق ان هذا التعبير هو تعبير عن الاضطراب ، وأن الغم الوجودي أو القلق كما يقول العرب ، هو موضوعه العام ، هذا ان لم يكن هو التمرد . لكن هذا التعبير عن الاضطراب ، والتدمير ، والتشتت — انني افكر مثلا **بالبومة العمياء** للفارسي صادق هدايات ، او **بالمغامرة المبهمة** للسنغالي الشيخ حميدو كان — ليس أقل ايجابية في دلالته . ان قبولنا بذاتنا هو قبول بتاريخنا . فليس من قبيل المصادفة ان تعيد التحولات الحاضرة ظاهرات كانت اوروبا مسرحاً لها اثناء ادارتها لشؤونها وذلك بعد ان تنقلها من مستوى الى آخر وتجعل ابعادها شاملة الكرة الارضية . ولكن حركة العالم الثالث تحرك مسافات سيكولوجية اكثر اتساعاً ، وتدخل او تعاني أدوات أقوى . من هنا نشأ اكثر من تضاد ، واكثر من تجديد .

وفي إبان الثورة التقنية ، في هذا الوقت بالذات الذي فتح فيه علم الالكترون ، والسيبرنتيك ، ونظرية الألعاب ، والملاحة في الفضاء دورة جديدة من التنمية ، تتجلى العاطفة ، في كثير من الأحوال ، أكثر فعلاً من التحديدات الدقيقة ، إن التزام الانسان ، وغضبه في سبيل الاندماج ، يبدوان قادرين على التعويض عن نقص التجهيزات المادية والاجتماعية والعقلية . كان ابن بلّه يقول : « ما كنا لنثور ، لو لم نحلم » . وقال سوكارنو اثناء افتتاحه مؤتمر باندونغ الأول : « انطلقوا في مداولاتكم ، مهتدين لا بالخوف ، بل بالآمال ، والعزائم ، والمثل العليا ، وبالأحلام أيضاً . »

إن الطوبائية ، في كثير من الأحوال ، تحمل القوة الى المشروع . انها تحرّكه على أقلّ تقدير . انها تواجه ، بنجاح في أغلب الأحيان ، علاقات القوة التي قد تقيمها نزعة موضوعية جافة . وصحيح أيضاً أنها تخرب المشروع في أغلب الأحيان . فمن إخفاق الى نجاح ، يتقدم العمل الانساني أو يتقهقر ، في خطوط منكسرة ، دون أن يكون ممكناً إقامة توازن بين أشكاله اللاعقلية والعقلية ، وإسباغ حجة كبيرة عليه . ربما كان ذلك هو ما سيحاول القيام به علم السياسة المقبل . ثمة مع ذلك شيء يبرز من معارك التحرر ومن الجهود الأولى في التنمية المتواصلة . مهما يكن التوازن المنشود أو الحاصل ، المحبوك أو المنحلّ بين العناصر المادية أو المعنوية في تنوعها المتبدل ، للمشروع القومي ، فينبغي أن يكون هذا التوازن شخصياً أو لا يكون .

ان المبادرة ، والحركة ، ونجاح التجربة الى حدّ كبير ، تبدو كأنها مرتبطة ، لا بمحاكاة السوابق الأوروبية ، الليبرالية او الاشتراكية ، بل بإقامة نماذج خاصة ، تُعنى بالانسان كله وبنوعية السياق ، في إطار محلّي شامل . ان

المطالبة بأعمال خاصة ، تنجم عن قوانين عامة بدورها ، وتحرك وسائل تقنية متخصصة ، تتعرض بذلك الى التناقض . إن الالتقاط الصاخب للواقع المتفرد ، يؤول الى العقم إذا لم يتقيد بالعقلانية وبالتواصل العالمي الذي هو اليوم أحد أشكال العقلانية ، إن الشعور بالآخرين ، كالشعور بالذات ، واللجوء الى العلوم الاجتماعية ، كاللجوء الى العلوم الدقيقة ، والانفتاح على البحث النظري والتطبيقي : ان كل هذه السمات تتجلى ، على التوالي أو معاً ، في هذه القضية العامة التي تجعلها تحت عنوان « التحرر من الاستعمار » . والنضج المتزايد لهذا المسعى ، ينبثق بصورة جماعية من مؤتمرات تتعدد وتتخصص . فالى جانب الجماعات السياسية ، كمنظمة الوحدة الأفريقية ، والكتلة الأفرو - أسيوية ، توجد الآن ندوات متخصصة ، كالندوات التي تعقد عن البترول ، والتصنيع ، وتطوير اللغة . لقد أصبحت القاهرة مركزاً لكثير من هذه الهيئات التي تتعاقب فيها بنسق متسارع . إن الدراسات وتنفيذ الخطط القومية تجتهد أحياناً بنجاح ، في التعميق التقني ، وفي التكملة البشرية ، بينما تعمل مؤسسات دولية ، كمصارف التنمية ، على تلبية الحاجات الخاصة لقارات مثل افريقيا او امريكا اللاتينية .

ان الايديولوجيات تلح اكثر فاكثر على ضرورة سلوك « طرق » ملائمة للشعوب المعنية ، اضافة الى كونها تنبثق من جوهرها ذاته . ان هذا في النطاق السياسي ، ليس اكثر من استخلاص نتائج لبديهية سوسيولوجية ومطلب معنوي . وفي حالات اخرى ، تظهر نظريات عامة ، تدعي أنها تنتمي الى العلم ، ثم تنتهي بالخرافة ، كالنظرية الزنجية . لقد اعطى غاندي ، ومن بعده نهرو ، قيمة في العالم لطريقة طريفة في مقارنة مشكلات التحرر . واقل مايقال في ماوتسي تونغ انه « صيّن »(١) الماركسية . ان نكروما بنظريته في « الوجدان » ، وفانون

(١) أعطاها طابعاً صينياً (المترجم) .

بتحليله المجدّد أضاع الشخصية ، وسانغور ، الانساني على نسق تيلار دي شاردان ، وعبد الناصر ، وغيرهم آخرين ، قد أدخلوا فكراً واسلوباً . انهم جميعهم ينطلقون من الانسان ، في عموميته التي تفرضه بوصفه مسهماً في الحضارة الصناعية ، وفي شخصيته الجماعية التي تمنحه الحق في ان يظل هو ذاته .

ان افريقيا ، بسبب كونها تحملت لعنة العبودية المخيفة قبل ان يجزئها الاستعمار ، تشيد برمز للانسان جسدي ومعدني . كتب جومو كنياتا يقول : « ان الارض مازالت هي روح الشعب . فالاحياء ، والأموات ، والاطفال الذين سيولدون ، يؤلفون زمراً ثلاثاً تشكل كلاً عضوياً . » وقال نيريري : « ان الاشخاص هم الذين يشكلون موضوع كل تنظيم بشري » . ولكن هؤلاء الاشخاص هم وحدات وجماعات بآن واحد . ان التقدم لايثوي في امتداد حقوق مجردة ، بل في إمكانات مشخصة ، توضع في خدمة أشخاص ، ينادون ، في جملة ما ينادون به ، بتنوعهم .

ولهذا التنوع معنى آخر يختلف عن معناه في العصر السابق حين كان يعبّر عن التفاوت في السلطة بين الجماعات . انما نفهم استنكار المستعمَر ، ورفضه لما كان يقيمه هذا التفاوت من غربة مهينة ، وتجزئة نفعية . كان على المستعمر ان يحارب لكي يفرض الاعتراف بوحدة العنصر الانساني وتجانسه . الا ان هذا الاعتراف الحاصل ، مع كل ما استتبعه من حقوق وواجبات ، يفترض أيضاً اعترافاً بالشخصية النوعية . فالمطلب يجمع إذن بين جذوبة الوحدة وإلحاح الكثرة .

من الصعب تلخيص تطور عملاق كهذا ، واذا جرأنا على ذلك ، لخصناه بما يلي :

١ – ان ازدهار الحضارة التقنية التي جعلت منها بعض الشعوب ، منذ قرن

ونصف القرن ، وسيلة للاستقلال والتفاوت ، يجب ألا تصبح احتكاراً بعد اليوم ، بل يجب ان تفيد في تنمية الجميع .

٢ ــ من هنا ينبغي ان يقوم كلٌّ انساني ، كان العصر السابق قد حطمه ، وهو يبدو على درجة من السعة والتشخيص بحيث نربطه بقواعده الاساسية وبطرافة الثقافات .

٣ ــ ان اقامة هذا الكل ، تعني منح السبق لاحتمالاته على انجازاته ، ولطموحه على اصوله . ان الحاجة ، والتمرد على الظلم ، والأمل والقلق ، قد سيطرت ، من خلال الوقائع ، على الظاهرات الموضوعية الضيقة ، ولم يعد بوسعنا أن نجعل من تطبيق ما معياراً للتاريخ ، ومن باب أولى ألا يكون هذا التطبيق معياراً لما هو انساني .

اذا قارنا هذه المبادىء ، التي تنعت ، بالعقل والواقع ، من ملاحظة العالم الراهن ، بالمبادىء التي استوحاها مثالو جيل الحرب العالمية الاولى ، من أمثال ويلسون وبريان ، وجدنا تبدلاً ملحوظاً في الدرجة والنوعية بين نوعين من النزعة الانسانية العالمية ، ان بين هذين النوعين من البعد مابين النزعة الانسانية لدى الموسوعيين وبين تأملات هيجل ، منشىء الانسان التاريخي ، والشغوف « بالكلية الكاملة » .

- ٢ -

ان هذا التعميق للواقع المشخص ولمعرفته ، هو تعميق للمجازفة . إن سلسلة جديدة من الملاحظات ترينا بأن نظرتنا لاتنطلق فقط من تفاؤل لايقبل الارتداد الى التجربة ، بل هي تحاول أن تقيم توازناً للواقع الواحد ، وان تضيء وجه السالب بوجه الموجب وبالعكس .

فالاستقلال الذي ضم في مكان واحد الولايات المتحدة وغامبيا ، الاتحاد السوفييتي ودولة مالديف،قد أقام بلا شك مقولة من مقولات الكرامة بين الأمم، إلا أنه أظهر فاصلاً مخيفاً فيما بينها . واذا كان جيلنا ، الذي يتذكر العالم وقد تقاسمته بعض الدول ، منح التحرر قوة تحركية عميقة ، فان شيوع هذا التحرر اذ أنقص من قدرته قد أنقص بالتالي من قيمته ،او جعلها نسبية ،او بالأحرى فرض عليها تحليلا واقعياً . فهل تكون حال المساواة بين الامم كحال المساواة المزعومة بين المواطنين ، حين كانت تتبجح بها الديمقراطية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ؟ ما من شك في ان ثمة تفاوتاً أخطر من التفاوت الذي فضحته الاشتراكية القديمة ، مازال يفصل بين الفرقاء . فهو لم يعد تفاوتاً في مستوى الحياة او وسائل الانتاج وحسب ،بل اصبح اساساً لهذه الكرامة التي تحاول الاخلاق الدولية اقامتها .

ثلثا البشر في عالم اليوم جائعون ، واكثر منهم الاميون . ان اقل من عشرين بلداً يبلغ سكانها ١٦٪ من مجموع سكان العالم ، تتمتع بأكثر من ٧٠٪ من الانتاج الكلي . وثمة قارات بأسرها تعاني من قسمة ضيزى : فأفريقيا التي يبلغ انتاجها الزراعي ٩٠٪ من مجموع انتاجها،مازالت بحاجة الى استيرادالغذاء . ويبدو أن المنطقة الاستوائية هي المنطقة الأكثر تأثراً ، وهي العامل في حدوث هذه الفوارق الخطرة على صعيد القارة ، وصعيد الوطن . وثمة في امريكاالجنوبية منطقة آهلة بنصف السكان ولا تنتج اكثر من ١٥ ٪من الموارد اللازمة . ان اتباع الاسلوب العصري ، بدلاً من ان يزيل التفكك الذي كان سائداً في العهد السابق قد اضاف الى القطاع التقليدي قطاعاً جديداً مستمداً من مناهج واوضاع البلاد المتقدمة ، ومنفصلاً في اكثر الاحيـــان عن واقع البلاد الداخلية ، ممهداً بذلك السبيل الى استعمار جديد .

ولو كان الأمر متعلقاً ببقايا الماضي وحسب ، لكان ثمة أمل في غد افضل ولكن الأمر كذلك مشكوك فيه . فكثير من هذا الاعوجاج يتسع . والتفاوت يزداد . وستكون التنمية في الفترة من ١٩٦٢ – ١٩٧٠ بمعدل الثلث في البلاد المتقدمة ، وبمعدل العشر في البلاد الاخرى التي هي أحوج اليها من الأولى . ان الاستثمارات ، والجهود المبذولة في نطاق البحث العلمي ، ونوعية وسائل توزيع الانتاج ، تزيد من الفارق بين الأغنياء والفقراء . ففي السنوات الاخرى ، زادت اوروبا الغربية والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي انتاجها الخام اكثر بكثير مما زادته الهند ومعظم بلاد العالم الثالث . ان البلد المتخلف ليس هو البلد الذي وصل متأخراً الى حدود النصف الثاني من القرن العشرين كما تأخر في تجديد جهده وحسب ، انه فوق هذا بلد ينمو بسرعة اقل مما يحدث لدى غيره ، رغم كونه أحوج من سواه الى سرعة التنمية . ثمة استثناءات ولا شك ؛ فالطاقة لدى بعض الشعوب ، تضاف اليها سعة مواردها الطبيعية ، وقوة شخصيتها ، ومهارتها في معالجة الظرف السياسي ، اتاحت ان تحرق المراحل ، وتجتاز الانطلاق او تختصره كثيراً . الا ان هذه ليست هي حال المجموع .

وظهرت جميع هذه الوقائع المحزنة الخطرة في مؤتمر جنيف (١٩٦٤) فبين سوق المواد الأولية التي هي الصادرات الأساسية للبلاد المتخلفة ، وبين سوق المواد المصنوعة ، يزداد الفرق منذ أربعين سنة حتى الآن . فكأن التحرر الشكلي في نطاق العلاقات السياسية ، قد استعيض عنه بسوء المبادلة . ومنذ الحرب العالمية الثانية ظهر أن انخفاض بعض المنتجات الطبيعية ، بعد أن تحذف منه مجموع المساعدات الخارجية ، يظل في حالة عجز يدفع ثمنه العالم الثالث . فما يسمى باقتصاد الهبات ، انما ينزع الى نتائج لا تختلف كثيراً عن نتائج الميثاق الاستعماري .

* * *

ان أكبر صعوبة يواجهها العالم الثالث ناشئة عن زيادة السكان فيه بنسبة عالية ، أو ان زيادته السكانية التي ترتفع بسبب تحسين المستوى الصحي الاجتماعي لانجد ، كما هي الحال في أوروبا قبل قرن ، زيادة مادية تتناسب وإياها . ففي بعض بلاد العالم الثالث لم تعد توجد أراض ينتشر الناس فوقها ، وعلى هذه البلاد أن تواجه مجتمعة أخطار زيادة سكانها ، والاضطراب الاجتماعي الناشيء عنها ، وهي أخطار لم تتمكن انكلترا في القرن الماضي من تجاوزها ، حسب رأي جون ستراتشي ، الا بإنشاء الامبراطورية . فبلاد العالم الثالث تكدس صعوباتها ، وزيادة سكانها تذهب بتنميتها . ان أفريقيا ، في عشر سنوات قد زادت بنسبة ٨٪ في عدد السكان ، وبنسبة ٣٪ في الموارد : انها تزداد فقراً . فكيف تكون حالها بعد ثلاثين سنة ؟ لقد قيل ان سكان أوروبا لن يزيدوا بأكثر من الثلث حتى سنة ٢٠٠٠ ، أما سكان أفريقيا وآسيا الجنوبية الشرقية فسيزيدون بنسبة ثلاثة أضعاف ، وسكان أمريكا اللاتينية بنسبة أكبر . ان الجهود التي تبذلها بعض البلاد بعزيمة نادرة ، كما هي الحال في التنمية في مصر ، والتي تصل الى حدّ تغيير الأسس البنيوية ذاتها (كالسدّ العالي) لاتؤدي ، في أحسن الأحوال ، الا الى ابقاء مستوى الفرد على حاله .

فالافقار الذي نخشاه لايزيد فقط من التفاوت بين الأمم بحيث يؤذي مطالب الانسان كما طرحها في هذا العصر ، بل انه ينتشر أكثر فأكثر داخل البلد ، فيزيد من التفاوت بين الأمم ، والتفاوت بين الطبقات ، ويزيد من المآسي الفردية والانسحاق الاجتماعي . ان اتباع الاسلوب العصري في بعض المناطق الاساسية ، الغنية بامكاناتها ، في كثير من هذه البلدان ، والتي تطلب من أجلها المعونات الخارجية ، يرافقه بصورة موازية تقريباً ، انتشار طبقة دون الطبقة

الكادحة ، تقبل بمطالب أقلّ من الحد الأدنى . ويبدو ان تاريخ الكيان القومي الجديد وتاريخ بعض الطبقات في الأمة ، يتحقق على حساب تمييع القواعد أو على حساب الشك بالذات . ثمة ضرورات واضحة تملي على التنمية ان تتركز في بعض المراكز ، التي تؤثر على الاقتصاد تأثيراً حاسماً . وحين نبالغ في تطبيق هذه المقولة بفعل الاستجابة الى مطالب العصر ، نكون قد تركنا مناطق جغرافية او اجتماعية او فكرية غارقة في حمى التخلف ، لأننا حكمنا عليها ، خطأ او صواباً ، بعدم الكفاءة للتقدم . ولكن ، ألا تشكل هذه المناطق قسماً كبيراً من الكيان القومي؟ ان هذا الازدواج الرهيب ، لايستطيع أن يحله او يزيله الا منهاج يصل الى حقيقة الانسان بفضل تعمق التقنية .

كم تحديات تواجه هذه الحقيقة ؟ ان النضال في سبيل التحرر قد جمع بشكل مثير حماسة الجماهير ، ونشاط بعض الجماعات ، ومبادهة البطل . الا أن الخفاقات لاسبيل الى تفاديها ، تدشن بدء حمل المسؤوليات . فثمة قلب الاوضاع لابدّ منه . وهو قلب مفيد، الا انه قد يحدث احيانا عن طريق العنف أو التزييف . بذلك يمكن ان يتشوه الاستقلال فتقوم المعارضة — في المنفى او في الخفاء — لتفضح وقائع تتجاوز بكثير حدود الواقعية التاريخية . حقاً ان التبدل القومي قد غيّر مستواه اذ أنه وضع الآن مواطنين في وجه بعضهم بعضاً ، ولم يعد للأجنبي دخل في ذلك الا بصورة غير مباشرة . واذا كان التقدم يشوهه الاستغلال الطبقي ، واضطهاد الكرامة الانسانية ، فان الاستقلال يقدم بذلك سلاحاً الى اعدائه . ويخطىء هؤلاء الاعداء حين يقدمون مقابل الحركات الانفعالية الجامحة بل والاخطاء والاساءة الى الحرية ، بديلاً يقوم على نموذج في الاستقرار المقبول أو الرخاء الثانوي . واذا كانوا يستخلصون من المشكلات والبؤس مثل هذه النتائج

الوهمية ، فان البؤس يظل أمراً واقعاً . حقاً ان كل عودة مقنّعة او مكشوفة ، الى الوضع السابق ، مستحيلة . فسيتصر الاستقلال، عاجلا او آجلا ، على أعدائه الا أنه قد يخطىء بحق ذاته ، وفي هذا خطر كبير ....

- ٣ -

ان التشوش الذي يتجلى في سلوك شعوب العالم الثالث ، والذي نحس به تجاههم ، ينبغي ويمكن تحليله الى عناصر موضوعية ، قادرة على تأسيس العمل والمعرفة .

فالتطور الذي نحاول التقاطه هنا ، منظوراً اليه في النطاق العالمي وفي منظورات الاحقاب الطويلة ، يرتد اولا الى نقل ضخم للثقـافة . ان التقنية الصناعية ، وقد هزت العلاقات بين البيئة البشرية والبيئة الطبيعية ، واتسعت على شكل طبقات متسارعة ، بدءاً من اكتشاف الآلة البخارية حتى اكتشاف تهشيم الذرة ، قد انتشرت فوق المعمورة كلها ، واذ انها كانت تنشىء التوسع لدى لدى المجتمعات المبدعة ، فقد فرضت ذاتها على المجتمعات الاخرى بصورة احتلال اجنبي . وقد استعملت في اتجاه وحيد أسلحتها ، وأدواتها ، ومفاهيمها ، فأثرت لا في الاسس المادية للواقع الاجتماعي وحسب ، بل ايضـاً في سائر مستوياته الاخرى . فهي اذن ، عن طريق أفعال وردود أفعال ، قد كيفت القسم الاكبر من الاشياء ، والكائنات والاوضاع في عالم القرن العشرين . وحتى المقاومة التي لقيتها عند المستعمر ، لم تأخذ كامل معناها الا حين تمكن هذا من أن يـلبها المبادرة في هذه التحولات ، او أن يمارسها هو بنفسه ؛ وهذا هو ما نسميه اليوم «التنمية» . فالتمييز بين بلاد متقدمة وبلاد متخلفة ، يجب أن يقوم بآن واحد على وجود عتبات مادية عند « الانطلاق » تصل اليها الشعوب تباعـاً ، حسب رأي روستو ، وعلى

وجود درجات في المبادرة الجماعية وفي السيطرة على التبديل، وفي الشعور بالذات.

ومن سوء الحظ ألا يكون مثل هذا التقدم على خط واحد، ولا سريعاً. ورغم ان معناه البعيد ليس محال شك من أحد، ورغم كونه معترفاً به من الجميع، فهو يتضمن امكانات التقهقر، والتفاوت في النسق بين الفرقاء، وخاصة مضاعفات غامضة، يصار الى ابرازها اكثر فأكثر، بقدر ماتمحي التبعيات السياسية والاحتكارات التقنية. ان الانسان، وهو الغاية النهائية لهذه التطورات، والذي دفع ثمنها غالياً خلال زمن طويل، في شكل تبعية قومية أو ضياع بروليتاري، يعود إذن الى مركز اهتمامات الأفراد والحكومات.

ولأن الحضارة الصناعية قد نشأت في مراكز محدودة، ثم انطلقت منها الى باقي المعمورة، ولأن ثمة ظروفاً صعبة رافقت هذا الانتشار، فان مشكلات مستمرة مازالت مطروحة على البحث، ان الغرب الأوروبي، إذ كان البادىء بها والمستفيد منها، قد تقاسم الأرض في أواخر القرن التاسع عشر. وولادة المركزين الآخرين، الأول في الغرب، والثاني في الشرق، لم توسّع جذرياً هذا الاقتسام. ورغم ان هذه المراكز لم تعد محصورة اليوم في هذا الاحتكار الأولي، بل أصبحت تشع لدى بعض الشعوب الملونة، كاليابان مثلاً، او الصين مؤخراً، فان الغرب الأوروبي بالأساس هو الذي أحدث في اكثر أجزاء العالم الصدمة الأولى من صدمات تخريب واعادة بناء الحضارة الصناعية .....

حقاً ان انتقال شعب من شعوب العالم الثالث الى الحضارة الصناعية لم يعد يحدث - كما كان متوقعاً قبل خمس وعشرين سنة خلت - على حساب الأجنبي المسيطر وحلفائه المحليين، ان الاستقلال، وإن يكن صورياً، يفتح إمكانات فورية. وباستطاعة الخطط آنئذ أن تستهدف اعادة بناء الأجهزة واعادة دمجها،

بعد أن كانت تدار لحساب الآخرين . ومهما يكن من أمر الصعوبات القائمة ، فما من واحدة فيهـا حاسمة . ان المطالب تكبر ، ولو عن طريق الشعور بالعوائق . فعلى الاحتلال ان يتنازل بعد الآن ، إذ لم يعد بوسعه أن يتحدى مصالح الفريق الآخر ، ورأيه .

صحيح أننا في الوقت الذي تنمحي فيه اشكال الضياع البسيطة ، نلاحظ الأشكال الدقيقة منه . هل تحرر الانسان فعلاً ؟ ان الشر لم يكن مرتداً كلياً الى التبعية السياسية والاقتصادية . لقد نزل بعيداً في أغوار كيان المستعبد .

ان الحضارة التقنية ، حتى في مراكز نشوئها ذاتها ، قد أصابت بعنف ما كانت تستخدمه او تستبدله . ففي أوروبا وغيرها ، ظهر أن تقهقر الثقافات التقليدية ، وبخاصة الريفية ، وتحول الجماهير الى كادحين ، وتفجر جميع أنواع التوازن الأخلاقي والاجتماعي ، قد أثرت في سير هذه الحضارة . إلا أنها بحكم كونها منبعثة من داخل أوروبا ، وتعمل في مجموعات متماسكة تماسكاً متيناً تزيد من قوتها واتساعها ، فقد كانت آثارها أقل تخريباً ممـا فعلت في بلاد ما وراء البحار . وبدلاً من أن يستخلص المجتمعُ المستعمَر دعماً من التقدم الصناعي لقواعده الإقليمية ولغته وثقافته ، كما حدث في بلاد أوروبا ، فانه ، على النقيض منذلك ، قد انهار . فثقافته الأصلية انفصلت عن طبيعته ، إن صـح التعبير ، ووقعت موارد هذه الأخيرة تحت سيطرة الدخيل .....

فبقدر ما يمنع التحلل من التبعية ، وتقدم التربية ، ومنافسة الآخرين ، شعباً من الشعوب ارادة ووسائل السيطرة على مصيره ، تقف امامـه مشكلة تتناسب خطورتها ودرجة بُعد هذا الشعب في شروطه القومية ، والجغرافية

والتاريخية ، عن مراكز انطلاق الحضارة . هذه المشكلة هي مشكلة الهوية . ورغم كونها تطرح بصيغ مختلفة حسب الأحوال ، فهي بالنتيجة ترتد الى احتمالين:

١ ــ ان الحضارة الصناعية ليست سوى فرضية من بين فرضيات الانسان، وثمة فرضيات أخرى غيرها . ان من مزايا علم الانسان الحديث كونه أبان بأن في ماضي البشرية ، بل وفي تنوعها الملحوظ ، سبلاً أخرى غير سبيل الغرب . ومثال الهيلينيين أكثر الأمثلة وضوحاً في هذا المجال . واليوم بالذات ، دون أن نستشهد بالعجائب الغريبة لـ « التفكير المتوحش » ، فان انظمة كبرى ، كالنظام الهندي ، تشير بلسان مفكريها ، الى أن ثمة اختيارات أخرى . ولا شك في أن مواقف كهذه ، في الوضع الراهن ، تعرض الشعب الذي يتمسك بها الى تهجم الآخرين عليه . لذا فان المناداة بها تتخذ طابع التعويض ، كما أنها تقدم على أنها تعيد التوازن الانساني الذي شوشته التقنية .

٢ ــ المشكلة ترتد إذن الى عملية استملاك للثقافة الصناعية ، الأخذ بها لا ينال من شخصية الشعب ، او انها تترك له ، وبالأصح تمنحه وسائل الانتعاش بفضلها، ولكن ، لئن كان هذا هو الهدف المقبول عامة ، علماً بأن له المتفائلين به والمتشائمين منه ، فلقد تمت مقاربته بصورة تجريبية فقط . حقاً ان ممارسة التنمية ونظرية التنمية قد حفزتا منذ الحرب العالمية الاخيرة على تقدم العلوم التطبيقية . ان التجربة الحية للشعوب تقدم للملاحظة سلماً غنياً بصورة متزايدة، يسمح لنا باجراء شيء من التنظيم كما نعتقد . ان الدراسات عن التثقيف ، وعن تحليل مضاعفات التقدم التقني، وعن الآلية بصورة خاصة ، وعن التحريك الآلي ، قد أصبحت كثيرة وقيمة . ومع ذلك فان الانتباه ، على ما يبدو ، لم يتجه اتجاهاً كافياً ومنظماً الى المشكلة المركزية التي يمكن تحديدها كما يلي :

ما دمنا قد استبعدنا ان يكون تبني الحضارة ، أي الحضارة الصناعية ممكناً عن طريق تخلي الشخص المتقبل لها عن ثقافته الموروثة وشخصيته الخاصة او عن طريق تصفيته لها ، فقد أصبح الموضوع الان هو ان نعرض كيف نأخذ هذه الحضارة، أي كيف نصطفي منها ما نصطفي في بنى خاصة .

— للبحث تتمة —

الآداب

الكتاب والموضوعات

يوسف الخطيب	عناقاً لك الصبح — شعر
خليل الخوري	الى نسر — شعر
محمد احمد العزب	الصيف الرجيم — شعر
محمد عمران	مذكرات شهريار الملك — شعر
نواف أبو الهيجاء	ايليا اهرنبورغ
جوان سمول	ارملة الكولونيل — مسرحية ترجمة فاطمة السقطي
عبد الله الشيتي	اترك لي أبي — قصة
ياسين رفاعية	زهرة البنفسج — قصة

عناقاً لك الصّبح

يوسف الخطيب

عناقاً لك الصبحُ رغم الظلام   ويا أمــلاً غائراً في الألمْ
عناقاً لكِ النارُ تحت الرمادِ   ويا ثورةً في بطونِ الجحيمْ
لأوشكُ في الليلِ أن أستضيءَ   بأجنحةِ الصبحِ – آنَ ادلهمْ
ولِي رايةٌ قــد أرى خفقَها   على كل صرحٍ هوى ، أو علَمْ
وألمحُ في القدسِ شُمَّ القبابِ   لها في السحابِ رفيعُ السَنَمْ
وما هي أخيلــةٌ لا تُرام   وأخيلةٌ هي ان لم تُرَمْ
ولو كنتُ في الصعبِ رَخوَ الجَنانِ   شقيَّ اللسانِ ، دَنِيَّ القيم
لمزّقتُ في النادبين الثيابَ   وقصّفتُ بالكعب هذا القلم
ولكنَّ لِي غايةً في البعيدِ   وهمّــاً أحاوِلُهُ ، أيَّ همْ

* * *

يقولون : « إن لم يكن ما تُريدُ   أردْ ما يكونُ » .. فهذا قَسَمْ

مُحالٌ على العربي المحالْ   عديمٌ على العربي العدم

وما أخصبَتْ في حِمانا الشرورُ   فذاتَ غدٍ ستَجزُّ اللمَمْ

غداً يا حَصادَ الربى والكروم   ويا موسماً عربيَ الكرم

هنا أمةٌ وغفوةُ صهوةٍ   كَجَمْحِ الكُمَيْتِ اذا ما التجم

دع الريحَ تعصفْ بنا ما تشاءُ   فانّا لها جنَباتُ الخِضَمْ

أفِض يا زمانُ الردى والخطوبَ   أفِضْ ننتفضْ ، أونَنَمْ إنْ تَنَمْ

لأنّا ، وانتَ ، هُما التوأمانِ   رهانا خلودٍ ، وصِنوا شَمَمْ

* * *

عناقاً لك الصبحُ رغم الظلام   ويا أملاً غائراً في الألَمْ

عناقاً لك النارُ تحت الرمادِ   ويا ثورةً في بُطون الخِيَمْ

هنا أمةٌ فرعها في السماءِ   وفي كَبِدِ الأرضِ منها قدم

وتَمهل ، لاتهمل ، الفاتحينَ   وتهدأُ كي تستجِنَّ الحِمَمْ

ويا باذراً شوكَهُ في الربوع   أتحصدُ كفاكَ إلا الندم

ومن أين تَلقى سبيلَ النجاةَ   إذا زأرةٌ لعلعت في الأجم

إذا الشعب أغلالُهُ مُزّقَتْ   وجرحُ الهزيمةِ فيه التأم

هنا أمةٌ من لِيانِ الزمانْ   غذَتْ لحمَها ، من ثُديِّ الألم

أسارى على أرضِها الفاتحونَ   ومنهزمٌ دونها ، مَنْ هَزَمْ

هنا أمةٌ ، ياحُدَيّا الفناء   توالتْ عليها ، ورَدَّت ، أُمم

تُبدّلُ رأساً برأسٍ ، إذا ما   عَراها المَشيبُ ، ودماً بدمْ

وما اللاتُ أولَ من حطّمتْ   ولا اللاتُ آخرَ بعلٍ جثم

لتشهدُ مكّـــةُ في كلِ يومٍ ... حراءً . . إذا كلّ يومٍ صنَمْ
لتشهد مكةُ عن فجرهــا ... عميم التبــاشيرِ ، فجراً أعَمّْ
ويمضي على دربِها الصامدون ... ويرتدُّ عنهــا الرّديُّ الكهَمْ
لظى ثورةٍ ، يَستَجِدُّ اشتعالاً ... متى حال شبه الرمادِ ، احتدم
هو البعث ، ما البعث ان لم يكن ... ليَحثُو القبورَ ، ويُحيي الرِمَمْ
ولا تخدعنك الظنونُ العِجافُ ... فثـــأرُ العروبة لمـّا يُشَمْ
وكم ثائرٍ . . ثائرٌ في السجونِ ... حكيمٌ على الضيمِ إمّـــا حَكَمْ
ومن عجبٍ أنّ مَنْ في الوهاد ... يخالونهـــا شرُفـــاتِ القمم
هنا ما يرى الشعبُ ، لاماترَوْنَ ... طريقُ الملايـــين رَحبٌ أمَمْ
وما هو إلا الدليلُ ، الكليلُ ... على الدرب ، وهو العَميُّ الأصمْ
« انزمع لقدس ؟ ! » . . يغتالنا ... سؤالاً . . «وهل نستطيع؟!» . . نعم!
متى خِلتَ أنك ربُّ الرُعاة ... وخلتَ الجماهيرَ مرحى غنَمْ
هنا أمــةٌ ، لاهرقلٌ تأبى ... عليها . . ولا عَزّ كسرى عجم
وان تكُ قد طُويتْ صفحةٌ ... فَسِفرُ البطولةِ مازالَ جَمّْ
أأبرهةٌ عادَ ؟ . . يامرحبــاً ... سقاءُ الأبابيــلِ نارٌ ودَمْ
أبابيـــلُ من أمتي في الشعابِ ... تَصُبُّ عليه الردى والشَجَمْ
لتشهدُ مكّةُ في كل يومٍ ... حراءٌ . . إذا كلّ يومٍ صنم
عنـاقاً لكَ الصبحُ خلفَ الظلام ... ويا أمَـــلاً غـائراً في الألم
عناقاً لكِ النارُ ، تحت الرمادِ ... ويا ثورةً في بُطون الجحيمْ

الى نسر

خليل الخوري

مروان : لا بما هو فرد بل بما هو مَثَل ، يقال فيه الشعر . واحداً من الشعب، بطلاً ، عطر أرض فلسطين بدمه ، مثلما أدهش أجوامها بانتصاره على الموت العادي بالموت الكبير .

أنا لم أعرفكَ يامروانُ لكني عرفتُكْ
أنا لم أحسد حياتي أحداً لكن حسدتك
ثمّ لما
قيلَ ماقيل عن النسر الذي كنتَ عشقتُكْ
وبكيتُكْ
ودموعاً في مآقي شعبك الصافي رأيتك
أنا لاابكي ولكني لعينيكَ بكيتك
للبريئين اللذين

سيسيران على دربك يوما
أنا سميتُ على الجوزاء نجما
باسمك الخالد يامروان في الجوزاءِ
قد سميتُ نجما
باسمك الخالد لما
قيل ماقيل عن النسرِ الذي كنت عن النسرِ المدمّى
لم تردني فيك هذي الميتةُ العصماءُ علما
واحدٌ أنت من الشعب الذي كان أعدّكْ
لتعلّي مجده ، مجدي ، مجدكْ
من صخور الموت بالسري الذي أمضيت وعدك
وطنٌ يهديه للعلياء سمتُكْ
وطنٌ يدميه صمتُكْ
أنت صمتٌ ؟ لا محالٌ ، أنت في الأسماع صوتُكْ
أنت في الأكبادِ بيتُكْ
سمةٌ أنت على خدِّ البطوله
صفحةٌ زهراء في سفر الرجوله
أنت عمدت بكبر الأرض أفلاك السماء
كنت يامروان بوح الأرض في سمع الفضاء
ولك العهدُ الذي وثّق بعدك
بالأساطير النسور ، العهد مايبرح عهدك
وطويلا سوف تبكيك المواويل الجريحه
ايها القربان في ملحمة الشعب وياحمر الذبيحه
بطلي ياحافراً في جبهة النجم ضريحه

الصيف الرجيم

محمد أحمد العزب
– القاهرة

الصيفُ كان واحةَ الذين يتعبونْ
ومرفأَ الذين في الشتاء ينزفون .. ينزفونْ
عرائشَ الكرومِ كانْ
واتكاءةَ السمرْ
ورقصةَ النماءِ في الجذورِ ..
وارتعاشةَ الوترْ
الصيف كان كالقدرْ
يوزّعُ الظلالَ في الغصونِ ..
والضياءَ في العيونْ
ويستريحُ في مخادع القمرْ

* * *

الصيفُ كان رايةَ الذين يحجزون للنهارْ
لكنه قد عاد هذا العامَ مطفأ العينين
ممزّقَ الإزارْ
تلكأتْ قوافلُه
على موانىء الغبار
واصطاف ملاّحوه في شواطىء الأنين
وأقلعوا بالعارْ
الصيفُ .. هذا العام .. فارسٌ رجيمْ
جوادُهُ الأجيرُ مات في مطالع النهارْ
لا تُعلنوا الحداد ..
لا ...
لا تلبسوا السّوادْ
أحزانكم أغلى من الجوادْ !!

* * *

يا أيها الصيف الرجيمُ ..
أيها الحزين مرتين
قلبي معك ..
مع الشواطىء .. المهجورة .. العريانة .. المؤرّقَهْ
مع النوافذ الشرقية المُغلَقَهْ
مع الحدائق التي ما استقبلتْ رُوّادَهَا ..
ولم تزلْ .. نَضيدةً .. مُنَسَّقَهْ

مع المواعيد التي أخلفها العُشّاق
في موسم المباهج المُسبّقة
قلبي .. مع الزهو الذبيح ..
في لقاء جيلنا الجريح
على موائد .. ليليّة .. مُفرّقة
تقتلُنا ..
نقتُلها ..
يقتلُنا معاً ..
أنينُ أحلام الجموع المُرهقة

يا أيها الصيف الرجيم
عرفتُ فيك أنني مغامرٌ مهزومْ
وأن قدرتي .. من فرسخٍ .. لفرسخين
وقدرة الحياة .. دائماً .. بلا تخوم
سَدُومُ .. كانت بدء رحلة الضياع ..
وكل رحلاتي ..
إلى الضياع ..
في سَدُومْ !!!

مذكرات شهريار الملك

محمد عمران

« ... »

مدينة الحزن أنا ، أقفلتُ أبوابي إلى البطولة

خلف جداري تنشج المرايا

تساقط الوجوه ، والتكايا

والمدن القتيله

مدينة الحزن أنا ، ضيّعتُ مفتاحي إلى الرجوله

« ... »

أمس حملت جثتي القتيله

سرت بها في شارع الدماء

وحدي ، بلا ندبٍ ، ولا غناء

جثتي الذليله
كانت تئن في أصابعي الهزيله
كنت بها أمشي إلى الأحجار

« ... »

تسألني الأحجار :
« ما أنتَ ؟! » — مسبيٌ بلا أنصار
بيت بلا أسوار
بيت من الرمل ، من الفخار

« ... »

في مثل نومي أسمع الرياح
تدق باب جبهتي ، أرى الجراح
سفينةٌ معطوبة أرست على الدموع
أرست بلا قلوع
أرست بلا مرساة
في مثل نومي ألمح المأساة
ألمح نهر النار
يمتد حتى في عروق الغار

« ... »

أذكر كيف ارتقيت عن الفجر ،
كنت أسوقُ الرياحَ ،
لجامُ النهار بكفيَّ ،

تصهل خلفي المرايا :
« موكب شهريار
يخرج من بوابة العطور
من غابة التكايا
من أضلع السبايا
يسيرُ في البخور
يسير في الوجوه ، في العيون ، في الشفاه ،
في أكفنا العرايا ... »
كنت أرى نفسي على المرايا
أخب في الوجوه ، ترحل الوجوه في دمي ،
تسافر التكايا ...
« ... »
أذكر كيف ارتميت عن الزهو ،
كيف تهشّم وجهي ،
تكسّر رمحي
أذكر كيف تدحرج رأسي أمامي ،
تناثر جرحي
وكيف انكفأتُ ، بعينيّ ساقايَ ،
كيف نجوتُ بقبحي ! !
« ... »
هذا المتوّجُ بالهزيمة شهريار

ملك النجوم السودِ ، والمدن القتيلةِ ، والغبارْ
ملك الليالي الميّتاتْ
هو شهريارْ
لا فارس في مقلتيه ، ولا أميرْ
هو وجه مهزومٍ صغيرْ
ملقىً بأرصفة الحياةْ
« ... »
في أضلعي تختنق المدينهْ
تساقط الشوارع الحزينهْ
يموت تاريخ من الغبار والغباوة
في أضلعي مقبرةٌ ، نهرٌ من الضراوهْ

إيليا اهرنبورغ

والعشب الذي كسر الجليد

نواف أبو الهيجاء

ايليـــا اهرنبورغ[١] ولد في «كييف» عاصمة اوكرانيا عام ١٨٩١ في السابع والعشرين من كانون الثاني. كان أبواه يهوديين ميسوري الحال.

---

(١) ملاحظة هامشية: انه لمن المؤسف حقاً أن يبحث المهتم في الادب والفن وغيرهما عن مراجع عربية مترجمة لكثير من الأدباء والكتاب السوفيت وغيرهم فلا يعثر إلا على القليل القليل. ان ايليا اهرنبورغ نشر اكثر من خمسين كتاباً خلال حياته التي جاوزت السبعين عاماً ومع ذلك فان ماترجم الى العربية من أعماله لايتعدى ستة كتب. وهـذا بالطبع من حسن حظنا إذ أن هناك كثيراً غيره لم يترجم من أعمالهم إلا النزر أو لاشيء. ان المكتبة العربية لتعاني عجزاً كبيراً واضحاً. لقد اهتم معظم المترجمين بالنتاج الغربي، الغث والثمين على حد سواء، واهملوا نتاجاً نحن بأمس الحاجة اليه لاهميته البالغة التي تزداد في أيامنا الراهنة.

وفي سنة الخامسة انتقل معها الى العاصمة « موسكو » . وما أن أصبح يدرك ماتحيط به حتى أصبح من أشد المعادين للنظام القيصري الجائر . كان طالباً عام ١٩٠٧ عندما قامت مظاهرات عنيفة ضد السلطة القيصرية ، فاشترك فيها وتم اعتقاله . حوكم ووضع في السجن مدة خمسة اشهر أبعد على أثرها خارج روسيا . وهكذا ذهب الى باريس وهناك ، في فرنسا ، تعرف الى العديد من الكتاب والفنانين ومن بينهم بيكاسو ، الذي أصبح صديقه الحميم فيما بعد . في مطلع شبابه كتب الشعر ونشر أول مجموعة شعرية له وهو لما يزل في التاسعة عشر من عمره (١٩١٠) ولما نشبت الحرب العالمية الأولى عمل ايليا اهرنبورغ مراسلاً حربياً . شاهد الحرب عن قرب وعاناها . رأى بأم عينيه أهوالها فأثر فيه ذلك كل تأثير مما جعله ينشر كتاباً عن أهوال الحرب . كان عنوان ذلك الكتاب « مغامرات جوليو جورنيتو » . وفي عام ١٩١٧ ، نشبت الثورة الروسية ، ثورة اكتوبر ، فانضم اليها ، رغم أنه لم يكن عضواً في الحزب الشيوعي في يوم . أن عداءه للنظام الاقطاعي الجائر جعله يقف في صف واحد مع الثورة ويساندها بامكاناته كلها . وفي موسكو اخذ يدرس الأدب في جامعات العمال . وفي سنة ١٩٢١ ، وهي السنة التي طبعت فيها روايته الأولى « جوليو جورنيتو » عاد الى باريس ليعمل هناك مراسلاً لجريدة « الأزفيستيا » السوفياتية . وفي باريس بدأ نتاجه الادبي الكامل . نشر هناك عدداً من القصص والكتب ، بينها « خارج الفوضى » (١٩٣٤م) . ورغم أنه كان خارج الاتحاد السوفييتي فلقد تم انتخابه عضواً في مجلس اتحاد الكتاب السوفييت . وحتى ذلك الحين لم يكن عضواً في الحزب الشيوعي السوفييتي . رغم انه أطلق عليه ذات يوم لقب « السفير الشيوعي » ، ورغم ان لينين وضعه في مصاف الشيوعيين الكبار أمثال « بليخانوف » !

الحرب العالمية الثانية :

بزغ نجم اهرنبورغ اثناء الحرب العالمية الثانية كاتباً سياسياً مجيداً ، ومصوراً روائياً بارعاً . لقد كان في باريس عندما سقطت ، وكان قريباً جداً من

الكواليس البرلمانية والحكومية والصحفية والادبية فيها . اضافة الى انه شارك في الحرب الاسبانية الأهلية ، حيث عمل مراسلاً حربياً هناك ، واكسبته التجربة المزيد من القدرة على ادراك الامور . كتب رواية « سقوط باريس » ونشرها في موسكو حيث عاد اليها عام (١٩٤٠) ونالت استحساناً كبيراً وحصل على جائزة (ستالين) تقديراً له على كتابتها . وتلك الجائزة كان لها اهميتان :

الأولى أدبية والثانية مادية . وأود هنا ان اتوقف قليلاً عند هذا العمل الأدبي :

سقوط باريس :

هذه الرواية تعطينا الكثير عن تفكير « اهرنبوغ » وفلسفته واتجاهه الفكري الواضح . الرواية بجملها تصوير دقيق - أدبي - وتاريخي - للفترة التي سبقت سقوط باريس وحتى سقوطها . نرى فيها العالم القلق الواقف على شفا حفرة من الحرب من خلال عيني الرسام « أنـــدريه » الذي ينظر الى العالم « بعينين مشدوهتين » لايصدق مايرى من خداع وغش وصراع عنيف في الداخل والخارج. نرى العالم من خلال « بيير » الذي ينظر الى البرجوازية الحاكمة بعين العارف . ان الحاكمين في فرنسا آنذاك « رجال لا كالرجال . . رجال يرتجفون فرقاً من جيرانهم كما يخشون شعبهم نفسه » . ان اصدق والطف تعبير عن تجار الحروب في ذلك الوقت جاء على لسان « لوسيان » ، وهو شاب مثقف يساري النزعة ، يقول : « ان مصير الارض سيكون تحت رحمة اولئك الذين يطيرون فوق الارض . » ان هؤلاء الذين يتاجرون بالحـــروب ذباب يفقس بيوضه في الحشرات . يبقى الذباب وتموت الحشرات . « انهم الدويدات « الذبابية » المتحركة ونحن الحشرات » .

في ص (٢١) من الرواية [١] تتجلى الروح القلقة التي يعيشها العالم . هتلر يهدد بالحرب . وفي الداخل نزاع على السلطة ، كل قوة تريد ان تستولي على الحكم وتتحكم بمصائر العالم . يقول الماني لأندريه « الفرنسي » :

لشد ما كان حظنا سيئاً نحن الاثنين ، حرب أولى فحرب ثانية وبين الحربين حياة قلقة مضطربة .

ومن خلال ظلام القلق والدوار الذي يعيشه العالم كان ثمة من يثق بالنصر لأنه يدرك حقيقة الحركة التاريخية المسايرة لإرادة الشعوب .

« سننتصر لأن الناس شديدو الامل بالسعادة ، بيد مخلصة ، بصداقة وثيقة ! وبالاضافة الى هذا الجانب من الحياة ، كانت الكواليس تحفل بالمساومات على الوطن : كان المال يلعب بمصائر الأمــة . « المال ليس شرفاً ، بل قدرة » ص (٦٠) !! وهنا وفي زحمة الأحداث والتوقعات تظهر عبقرية الرجل المؤلف ويجعل رجال السياسة يدينون انفسهم بأنفسهم . يقول « ديسير » وهو رأسمالي كبير يتحكم بمصائر الانتخابات: «ما السياسة سوى خطابات كبيرة واعمال صغيرة» ص (١٢٤) . ويضرب لنا تاريخ باريس وفرنسا مثالاً ساطعاً على المراوغة والخداع . كانت « الجبهة الشعبية » قد نزلت الى الانتخابات بشعارات جماهيرية في الظاهر ، وفي الحقيقة يصبح اليميني (تسا) بين عشية وضحاها « يسارياً » ، وتخيب آمال الجماهير في « الجبهة الشعبية » . وفي اثناء الحرب . . وباريس مهددة بالسقوط في قبضة الفاشية «تعمل الخيانة في الوطن عمل الصدأ » ص (٢٦١) . ان حركة الشخوص في الرواية طبيعية كردود فعل لمؤثرات الحرب وجو سقوط باريس بالذات . لقد سقطت باريس بيد السياسة الانتهازية قبل ان تسقط بيـــد الفاشية . وفي

(١) سقوط باريس : ترجمة ونشر دار اليقظة العربية بدمشق .

الصفحات (٧٥٥ – ٧٦٥) من الرواية يرينا المؤلف ماذا يحدث للمدينة التي يتخلى الناس عنها . انها تسقط فريسة سهلة بين انياب العدو . ان رواية « سقوط باريس » عمل ادبي كبير لا لأنها تحكي فترة الأيام العصيبة للحرب العالمية الثانية فحسب، بل لأنها تفضح الاسس التي جعلت بناء الصمود الوطني ينهار !!

اعمال اخرى :

وقعت على ثلاثة كتب تحوي على بعض ما كتب من مقالات سياسية وفكرية اثناء وبعد الحرب . هذه الكتب هي :

١ – **أقوى من الموت** : مقالات كتبها اثناء الحرب ضد الفاشية التي تجتاح العالم . ان براعة ايليا اهرنبورغ في هذا النوع من الكتابة شيء لا يمكن ان ينكر قط . كتبت هذه المقالات في اوج الحرب العالمية الثانية « ١٩٤٢ – ١٩٤٣ » ، ولعل من الضروري جداً ، لكي نعرف كيف نعالج امورنا في هذه المرحلة ، ان انقل فقرة مما كتبه في ٢٤ حزيران عام ١٩٤٢ (ص ٥٤ – ٥٥) من هذا الكتاب تحت عنوان « من أجل لديشه » .

يقول اهرنبورغ : « وقع الفاتح الالماني أمراً بمحو اسم لديشه » من السجلات الى الأبد . فاذا بالجلادين الذين يمرون في شوارع براغ ، تصدم عيونهم هذه الكلمة مكتوبة في كل مكان : لديشه ، لديشه ، لديشه ! وفيما الالمان يحرقون المدينة المنكوبة ويوارون جثث ضحاياهم ، يقسم مليون من التشيكيين هذا القسم المقدس : الجلادون سيعاقبون ! لن تنسى المانيا اسم لديشه ، فقد دخلت اليوم هذه الكلمة في ثبت الخلود . وسيقاتل المقاتلون وهذه الكلمة على شفاههم . وبهذه الكلمة ايضاً سيحاكم الجناة ويحكمون . وسيسمع آخر الهتاريين وهو مختبىء تحت السرير ، صرخة الجماهير الثائرة تهدر هدير الموج : لديشه ، لديشه !

ونحن ايضاً عندنا « لديشه » : عندنا منسك ، وكييف ، وتيودوسيا ، وأوديسا . فنحن لا ننسى شيئاً . واذا كنا نلزم الصمت ، فلأن الكلام اليوم للسلاح . قال لي احد الجنود الذين نزلوا وراء خطوط الاعداء : « قتلنا في احدى الليالي مائتي جندي الماني . وكنا لا نستطيع اطلاق الرصاص لئلا يشعر بنا الاعداء ، فلجأنا الى السلاح الابيض . ولما طعنت اول جندي هتلري ، فكرت بمدينة كييف ، مسقط رأسي ... »

لن ننسى دموع النساء الروسيات ، ولن ننسى دموع نساء الشعوب الاخرى . سنذكر دموعكن ايتها الامهات التشيكيات ، انتن ايضاً ، وسنقول للجلادين الالمان غير مرة : وهذه الضربة من أجل لديشه ! »

ويلاحظ ان اهر نبورغ كان يصب لعنته ونقمته على « الالمان » لا على « الفاشست » ؟! وقد نوقش اكثر من مرة وقيل له : نحن لسنا ضد الالمان انما ضد الفاشية ، ولم يكن ليقتنع بسهولة !!

٢ — اذا أردت أن تعيش : « دار القلم للطباعة والنشر سنة ١٩٥٣

مجموعة مقالات كتبها اهرنبورغ ما بين ١٩٤٨ — ١٩٥١ تعالج مشكلة الثقافة . ولعل ابلغ تعبير في ضرب الثقافة البرجوازية هو ذاك الذي يتصدر مقالته الاولى : «ونستون تشرشل لا يستطيع أن يختبىء وراء تمثال شكسبير ! » وفي هذه المقالات يدافع عن الثقافة الاشتراكية ويستشهد بالكثيرين من كتاب « الغرب » الذين ابدوا تعاطفاً وتفهماً للثقافة الاشتراكية ومن بينهم « اراغون ، بيكاسو ، شابلن ، غارسيا لوركا ، وبرناردشو » . يقول اهرنبورغ : « لقد آن لنا أن نقول ان هذه اللعبة الصغيرة ، لعبة « الشرق » و « الغرب » ، ليست شيئاً آخر غير الجهالة ، وعبادة الجهل ، وتبعية الفكر الانساني لحرس الحدود وموظفي الجمارك السياسيين » ص (٣٥) .

٣ – سنوات حاسمة (دار القلم للطباعة والنشر ١٩٥٣)

مجموعة مقالات سياسية عن الحرب وتأثيراتها السياسية الحرقاء التي تتبعها الامبريالية . يقول اهر نبورغ ص ٨ « أنا اعلم ان رجل الشارع الاميركي ، وهو رجل شريف ومسالم ، سيدرك ، إن لم نقل غداً فبعد سنة او سنتين على الأقل ، الى أين يقوده هؤلاء المتآمرون المجانين . لست ألوم رجل الشارع الاميركي . »

وفي هذه المقالات نرى اهر نبورغ ناقداً لاذعاً وساخراً وجاداً يعطي لكل شيء حقه . يدافع عن حرية الناس ويفضح اعداء الانسان .

الخطان المتلازمان :

ان من يقرأ اهر نبورغ يلمس ان هناك خطين متلازمين يميزان جميع كتاباته . انه يؤكد في كل ما كتب ، لا سيما في روايته الطويلة « العاصفة » وفي روايته الأكثر طولاً والمؤلفة من اجزاء عديدة « الموجة التاسعة » ، اقول يؤكد على شيئين لعله كرس حياته كلها من أجلهما : **الانسان بصورة عامة ، وحرية الأديب** . فهو يقف دوماً الى جانب الانسان يدافع عنه ويفضح مستغليه ويحثه على الثورة للتخلص منهم ، يكشف عيوب المجتمع الرأسمالي ويجعلنا ، كقراء ، نلمس الظلم الفادح اللاحق بالعمال والفلاحين والمثقفين الاحرار من جراء عسف الانسان . وفي حياته الطويلة لم يشأ أن يلتزم الحزب الشيوعي . فضل ان يبقى خارج نطاق الرسميات ليكتب ما يريد . لقد كان دوماً يقف الى جانب حرية التعبير بحيث لا تكون تلك الحرية تخريباً للثورة وللافكار الانسانية . ويتوضح هذان الخطان اكثر في كتابين آخرين هما « الرجال والسنين والحياة » و « ذوبان الجليد » والكتاب الاول يحتوي على مقتطفات من حياته وآرائه « لم يترجم الى العربية بعد » !!

أما كتابه « العاصفة » فقد نال جائزة ستالين لعام (١٩٤٧) وهو يعتبر مكملاً لروايته « سقوط باريس » .

الموجة التاسعة

رواية طويلة في اجزاء اربعة او خمسة « لم يترجم منها غير جزءين فقط » وتعتبر من أنفس مؤلفاته لما لهـا من أهمية في تصوير فترة مابعد الحرب العالمية الثانية . تصور، بأسلوبه العميق الشامل ، علاقات الناس في كافة مجالات الحياة ، وفي مدن واقاليم مختلفة . ويذهب فيها الى تصوير نفسية الجيل الخارج من اهوال الحرب في علاقاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

الذوبان والتحول :

بعد أن مات ستالين نشرت روايته « ذوبان الجليد » التي تعتبر من أهم ما كتب ؛ لأنها خلقت تحولاً كاملاً في المجتمع السوفياتي . كانت الرواية ادانـة للعصر الستاليني والتسلط والديكتاتورية ، واضيفت اليها أهمية أخرى بسبب كونها اجرأ عمل استطاع أن يكسر الجليد ويذوبه ويظهر الحقيقة عارية . ولا يسعني هنا الا ان أتوقف عندها قليلاً قبل أن نصل الى صفحة تطوي فيها عرضنا السريع لحياة وأعمال ايليا اهرنبورغ .

نشرت ترجمتها العربية دار المعارف بمصر « ترجمة سعد زهران » عام ١٩٦٦ تحت عنوان « ذوبان الثلوج » .

تدور حوادث القصة في مدينة يوجد فيها معمل كبير . ولعل من المجدي ان ندرس الشخصيات السوفيتية التي يقدمها لنا اهرنبورغ لنصل بالتالي الى النتيجة التي أرادها المؤلف ذاته .

١ ـ جورافليوف : يقول عنه المؤلف انه « شخص غير مكتمل النضج »

صحيح انه كان شجاعاً اثناء الحرب، وانه اصبح مديراً للمعمل عن جدارة، الا انه يحوي الصفات المتناقضة التي تجعل منه « غير مكتمل النضج ». فهو شجاع الا انه بيروقراطي . « سافل » لايهتم لشيء الا للمعمل، ولا يريد الا ان تبقى « موسكو راضية عنه » . يقول ص (٢١) :

« انا – ببساطة – لايمكنني ان اتصور المصنع بدوني انا » نلاحظ ان اهرنبورغ اكد هنا على « أنا » فهو « أي جورافليوف » أناني لايهمه الا أمره . ويروى لنا اهرنبورغ حادثة قام بها جورافليوف تدال على بيروقراطيته وطاعته العمياء للسلطة ، بل انه ملكي اكثر من ملك . لقد خصصت مبالغ من أجل بناء « باوكات » بيوت سكن للعمال . وكان المعمل بحاجة الى فرن الصهر فاشترى جور افليوف بهذه المبالغ « فرن الصهر » وقال : يستطيع العمال ان يسكنوا في بيوتهم « الطينية » هذه سنتين او ثلاث .. المهم ان يزداد الانتاج . وكانت نتيجة ذلك ان هبت عاصفة هدمت بعض البيوت وشردت العديد من العائلات . عند ذلك قال جور افليوف « العاصفة هدمتها » ولم يقل انه هدمها بالذات . ان جور افليوف يمثل العقلية السلطوية – اذا جاز التعبير – في ذلك العهد – الستاليني – !! انه مجرد « نختم من المطاط » ص (١٤٩) .

٢ – ديمتري كوروتييف : مهندس ناجح الا انه « كانسان سوفيتي » او هكذا صور له « يجب ان يبتعد عن العواطف : كيف يفكر ، مجرد تفكير بحب امرأة !؟ انه الجانب الثاني من الناس .. الجانب الذي ترهبه الدكتاتورية فيعش في قلق شديد .. انه يخشى الاعتراف بأن ثمة عاطفة .. مجرد عاطفة اسمها « الحب » . ويقف معه في الرواية « لينا » – زوجة جور افليوف التي تضيق به ذرعاً ، وترفض الاعتراف بانها تحب كورتييف رغم انها في النهاية تتخلى عن زوجها وتطلقه تصديقاً لما تحس به .

ومع ذلك فان كوروتييف يقول قولاً يمس صلب الموضوع « المعرفة لاتوصلك بعيداً، إن الاحساس هو الذي يجب ان يدرّب » .ص (١٧١) . في داخله، في اعماقه يعاني من التشتت ان « التوهات» .تنتصر عليه في الربيع .. (التوهات) التي اسمها « الاحساس بالحب » تدرّب رغماً عنه فيوح بحبه رغم أنه كان منقسماً على نفسه في البداية .

٣ — سوكولوفسكي : الشخصية التي تمثل رأي اهرنبورغ بالذات، مهندس كبير السن نسبياً . فهو الشخص المعادي للمظاهر المخادعة والبيروقراطية ، هو الشخصيــــة التي تخيف جورافليوف ، وهو الانسان الذي يعرف كيف يروض الاحساس ويعرف نتائج اهمال الاحاسيس وعدم تحريك الضمائر والحماسة . ولكنه يؤمن الى جانب كل هذا ، بالعمل .. بالايجابية . يقول في هذا المضمار : « إما أن تسهم في وضع اللبنات او لاتقول شيئاً على الاطلاق » ص (١٨٣) .

٤ — وثمة فنان كبير ، وابنه : بوخوف الرجل الكبير الذي يمثل الرعيل الاول .. المتزن المتعقل الذي يهمه الآخرين بقدر مايهمه نفسه : يقول « احاول ان افكر في حياة الاخرين ، عليّ ان اقتحم حدود هـــذه الغرفة ... » انه معقد لاحول له ولا قوة . ورغم ذلك فقد زرع في الجيل الجماعي الانساني ، الروح التي تنبذ التسلط والدكتاتورية . يقول بوخوف الصغير : « باستطاعتي ان اسافر الى موسكو ، واعرف قليلاً ، واتزلف قليلاً فينظمون لي معرضاً ، ويمنحوني جائزة ويقول هذا « اوه » ويقول ذلك « آه » ص (١٤٤—١٤٥) .

التيارات الثلاثة :

من سياق الاحداث اليومية التي يعرضها اهرنبورغ في الرواية يتبين لنا ان الانسان السوفيتي انقسم على نفسه . انه يعرض لنا ثلاثة نماذج لهذا الانسان :

الأول : الانسان الآلة ، « ختم الجلد » الذي لايعير للعاطفة وللانسان الآخر أي اهتمام . جل اهتمامه محصور ضمن دائرة واحدة : الآلة ، ورضى السادة القابعين على الكراسي .. لاشيء آخر . وهذا بالطبع مردود ايجابي « نسبياً » على « الأنا » الكامنة فيه والتي تسير كل شيء كردود فعل لهذه « الأنا » وما تفكر به ضمن قوقعة « زيادة الانتاج » « انا والمصنع » .. « الترفيع المرتقب » و« سمو الشخصية وبروزها » . يمثل هذا الجانب جورافيلوف .

الثاني : القسم المتردد : لم يعتد بعد تدريب الأحاسيس، انه يرى ، او يفكر ، ان من العيب على الانسان « الاشتراكي » ان يفكر بأمور الحب والعواطف الاخرى . وفي نفس الوقت يشعر هذا القسم بالظلم ، بالقهر الذي يجثو على صدره محاول ان يكتم انفاسه ، بل يشعر بشيء حتى وهو مع نفسه منفرداً ، إذ يخشى ان يفكر بأمور « ليست ذات شأن » او هي تافهة الى الحد الذي تجعله يغرق في بحران التفكير فيها . ان هذا القسم كبالع الموسى لا يستطيع ان يبتلعها خشية أذيته، ولا يستطيع اخراجها خشية ان تجرحه. يمثل هذا القسم كوروتييف ولينا .. الخ .

الثالث : وهو القسم الذي يشعر بكل المأساة تجرح الجميع . يشعر بان السلطة تحاول ان تحيل الفنان الى « جماد » الى آلة مطيعة تذهب لتصوير « دجاجة » في مزرعة » او « شخصية » سوف تسطع في يوم لانها تخدم الارادة العليا خدمة عمياء . هذا القسم يشعر بأنه « تكاد توجد مؤامرة صمت وعمى بإزاء الامور السيئة !! وكم من الفضل لايزال موجوداً » ص (٨٨) . يمثل هذا التيار بالطبع سوكولوفسكي وبوخوف الكبير .

« الافكار حين تصل الى وعي الملايين تتحول الى قوة مادية »ص (١٢٧) -

هذا ما يقوله اهرنبورغ . الافكار التي يدعو اليها بوقوف والتي يؤمن بهـا سو كولوفسكي . وبالفعل فيها يقومان بايصالها الى وعي الجماهير وكل حسب طريقته الخاصة ، سو كولوفسكي بانتقاده اللاذع ، وبوفوف بهدوئه ومحبة للجيل الجديد ينفخ فيه روح الاتزان والمواجهة الصادقة للامور ذلك « ان مستقبل المجتمع يتوقف على الطريقة التي نحيا بها ونعمل ، ونقيم علاقات مع الناس الآخرين . »ص(١٢) -

وتتوالى بعد ذلك « الاعترافات » الضمنية والصريحة والقائلة بخطأ كبت وقتل الأحاسيس والمشاعر الانسانية الصادقة . بل ويبدأ التمني بأن يكون الانسان السوفيتي بعيداً كل البعد عن ان يكون آلة صماء بلا مشاعر اوعاطفة :

« كم تكونين سعيدة لو أنك تستطيعين ان تحبي ، وتعاني ، وتبكي بهذه الحرقة !! » ص (١٥٨) .

نعم ! الآلة صنعها الإنسان لا لكي يكون عبداً لها ، بل لكي يسخرها من أجل سعادته بالذات . ومع الأيام يتكشف لأبطال ايليا اهرنبورغ حقيقة صراعهم مع انفسهم . ان هذا الصراع انما جاء نتيجة التسلط الستاليني .. الجمود .

« لكأننا بذلنا جهداً مضنياً للعناية بنصف الكائن البشري ، اما النصف الآخر فقد اهملناه . والنتيجة هي ان نصف المنزل قذر وفي حالة مزرية »ص(١٧١) -

« النصف الآخر » هنا هو الروح .. متطلبات الإنسان الروحية لايمكن ان تزول لأن الإنسان أصبح اشتراكياً ؛ لقد كانت المشكلة المطروحة في « ذوبان الثلوج » تتلخص في جملة كبيرة صغيرة :

المشكلة تكمن في الفصل بين الطريقة التي نفكر بهـا والطريقة التي نحيا بها .

الربيع :

تدور الشخوص في حركة لولبية منذ البدء حتى ما قبل النهاية . ولكأني بها تسير حسب الطقس .. الصيف ، الخريف .. الشتاء .. ثم يجيء الربيع . وفي الربيع لايستطيع الإنسان ان يتجاهل ما بداخله من مشاعر واحاسيس .. في الربيع ذهب سوكولوفسكي الى محبوبته واعترف لها بحبه . وفي الربيع ذاب الجليد الذي كان يفصل ما بين كوروتييف ولينـــا ، ورأى كوروتييف نفسه يصرخ ويقفز فوق الجليد كالاطفال رغم انه في الخامسة والثلاثين في الربيع بدأ « العشب يكسر القشرة الثلجية » ص (٢٤٨) . هذا ما يقوله فولوديا ، الشاب العاشق ، لمحبوبته تانشكا .

وفي هذا الربيع يذوب الجليد ويكشف للجميع الحقيقة . تنتصر ارادة « الترهات » لانها الحقيقة التي كان يحاول كل منهم كبتها او اخفاءها .. وهكذا يستطيع العشب الاخضر الناعم ان يكسر الجليد ويظهر للشمس يعانق وسليا ، اماجورافلوف ، فالعاصفة تدمره .. وبنساه الجميع الذين يعاودون الحياة .. مع نسمات الربيع وذوبان الثلوج .

فترة صمت قبل النهاية :

بعد أن نشرت روايته « ذوبان الثلوج » عام ١٩٥٤ ، واحدثت تلك الضجة في الاتحاد السوفييتي لجرأتها في نقد النظام الستاليني والقبضة الفولاذية التي تريدأن تحيل الإنسان الى آلة . عاش اهرنبورغ فترة صمت لم ينشر بعدها الا القليل . ومن هذا القبيل مقالات تدافع عن حرية التعبير للأديب ، ومنها مقالات تفضح حقيقة ما يسمى « الثقافة الغربية » . ثم ظهرت اخيراً مذكراته التي نوهنا عنها وهي بعنوان « الرجال والسنين والحياة » وتوفي اوائل الشهر الماضي « ايلول » .

يعتبر اهرنبورغ من ألمع الشخصيات في الأدب السوفيتي المعاصر . ولقد تميز ، كما سبق وأشرنا ، بدعوته الحارة لحرية الاديب وطريقة تعبيره شريطة ان لاتؤثر هذه الحرية في خط سير التقدم ، او تدعو الى الانحراف عن خط الثورة ومهاجمتها .

لقد كانت حياة هذا الاديب الكاتب متميزة عن غيره من الأدباء السوفييت المعروفين من حيث تنوعها وظرافتها وغرابتها . ولعلي في النهاية استطيع ان أطرح سؤالاً هامشياً : هل كانت حياته وليدة الظروف ، وبالتالي سارت على هذا المنوال عفوياً ، أم انها كانت مخططاً لها ؟!

مسرحية

أرملة الكولونيل

للكاتب السوفييتي
جوان سمول

ترجمة : فاطمة السقطي

بدأ الكاتب الاستوني جوان سمول حياته الادبية خلال الحرب العالمية الثانية فنشر بواكير اشعاره عام ١٩٤٣ . وفي سنة ١٩٥٥ ظهرت له أول مجموعة قصص قصيرة « رسائل سوجيدات » ؟

ولد هذا الكاتب سنة ١٩٢٢ في جزيرة موهو فجذبه البحر اليه ، وهو في ريعان الشباب .وقد اوحت اليه رحلات الصيد الكبيرة التي قام بها في القطب الجنوبي وفي بحر اليابان مسرحية«المحيط الأطلسي» ، والقصة القصيرة الهزلية «عجائب مغامرات ملاحي موهو في عيد الغنـــاء » ،وقصص اسفار (في جليد القطب الجنوبي) و (بحر اليابان في ديسمبر) .وفازت قصة (في جليد القطب الجنوبي) بجائزة لينين لعام ١٩٦١ بعد أن نشرت عام ١٩٦٠ في العدد الرابع من مجلة « اعمال وآراء Oeuvres et Opinions »السوفييتية.

هذا وقد اهتم جوان سمول اهتماماً كبيراً بالمسرح ، وكتب سنة ١٩٦٥ مسرحية **أرملة الكولونيل** هذه فنشرتها له مجلة « لومنغ » Looming التي تصدر في تالين عاصمة استونيا في عدد شهر سبتمبر من السنة ذاتها . ونشرتها مجلة اعمال وآراء باللغة الفرنسية في عدد شهر شباط لعام ١٩٦٧ .

الاشخاص :

ارملة الكولونيل

الكاتب

المعترضة

الموسيقا العسكرية .

الشخصيات الصامتة :

ابنة الكولونيل

صهر الكولونيل

حفيدة الكولونيل

صديقة زوجة الكولونيل

خادم زوجة الكولونيل

الطبيب

عشيق حفيدة الكولونيل

الشيخ الأطرش .

مكان التمثيل : هنا

العصر : هذا المساء .

بينا تعزف الموسيقا العسكرية لحناً صاخباً تدخل المسرح امرأة جميلة هي المعترضة.

المعترضة

ان القصة التي ستسمعونها تبدأ بالموسيقا العسكرية وتنتهي بها . وستعزف الموسيقا على وقع اقدام ارملة الكولونيل، وستفصح عن حالاتها النفسية وتكون مصدر ايحائها ، وتفسح امامها المجال لتستعيد انفاسها ، وانعلق على سيرة الاشخاص الثانويين وترافق خروجهم من المسرح . وان ايقاع هذه الموسيقا العنيف سينعكس على سير حوادث المسرحية وينحدر الى اعماق الاغوار أو يسمو الى القمم . وبفضل هذه الموسيقا سوف نستر ضعف القصة ولكننا سنشير ايضاً الى فضائلها . وبالاختصار فان الموسيقا العسكرية مثل ارملة الكولونيل ومثل المؤلف ومثلي أنا ، تحتل مكاناً مرموقاً من المسرحية . على اعتبار انها شيء رئيسي وخفي معا والبعد الرابع من ابعاد المسرحية .

ان مؤلف هذه القصة يعشق الموسيقا واغلى امنية لديه هي أن . . . . . .

والمزعج انه لايعرف ان يفرق بين (لا) و (مي) في السلم الموسيقي ولكن اقبح الجهالات لم تمنع في يوم من الأيام من يشعر في نفسه بالحاجة الملحة لتعليم غيره ، من أن يجلس في مقعد الاستاذ المعلم !

واذا ما اتفق المؤلف الدرامي أن يعطي الملحن درساً في الموسيقى، فليس في ذلك أي جديد بل هذه عادة قديمة قدم العالم ! واذا كان للنبوغ وللعبقرية وللمعرفة حدود ، فليس للغباوة حدود ولا شواطىء ! فلنحن الرؤوس امام هذا اللا محدود !...

واذا لم يبدع المؤلف شيئاً جديداً بدعواه تعليم الموسيقا للموسيقيين ، فانه بالمقابل قد ابدع شيئاً جديداً في عالم القصة يتركني فوق المسرح ! فأنا في الواقع المعترضة التي تتكلم وتغدو وتروح وتمثل ! وهـــذا اول حدث من نوعه في حياة المسرح أو على الأقل في هذا المسرح !

هل لاحظتم بأني جميلة ؟ ان نصفكم ولا شك لم يحلم ابداً بامرأة مثلي ولها مثل جمالي!... ومع هذا فلست الا معترضة ! وقد كنت منفية خلال قرون ، في حواشي المخطوطات فوق مكاتب المخرجين ، ويطبعني الناشرون بالحروف المائلة اذ لم يكن لي في نظرهم اية اهمية أو اي وجود تقريباً ، بل كنت أستعمل لازعاج الممثلين ! وعندما كنت أفتح « أي المعترضة » لأشير بانه في المقطع الفلاني يجب على الممثل الفلاني أن يعض اذنه اليسرى . فلا يسع ذلك الممثل التعس الا ان يعض اذنه اليسرى ! ويكفيني بان آمر قائلة : « لتكن

حركة مرح على المسرح » حتى يتحرك المسرح مرحا ولو كان المتفرجون سيكونون أو كانوا نياماً !...

لقد كفاني مالاقيت وكفاني بقاء خلف الكواليس ، وكفاني تحريك الخيوط على مسرح العرائس ! وكم اتوق بان اشعر بنفسي بأني أعيش ولو لمرة واحدة على الاقل ومن حقي أن أولد وتكتحل عيناي بالنور بعد هذا العمر الطويل في الظلام !...

لقد قالت ماريا أندر ذات يوم وهي من بلاد كاثي : « ان الجسم يغدو كلمة » . ان هذا قول جبل أليس كذلك ؟ أما أنا فاني احرص على الاشياء الكلاسيكية واقول : « أنا الكلمة التي غدت جسما » وقد قررت بأن لا أخرج من هذا الجسد حتى نهاية هذه القصة.

وينص الموضوع بأنه يجب على الموسيقا العسكرية بان تعكس الآن الفكرة الرئيسية في هذه القصة وان تهيء الجو لدخول المؤلف الى المسرح فلنستمع اليه اذن !.

تذهب المعترضة وتجلس في زاوية من المسرح وتبـدو جيلة . وتعكس الموسيقا العسكرية الفكرة الرئيسية ويدخل المؤلف .

المؤلف

لكل انسان علاقة كلام يكثر استعمالها وتغدو ظلاً له وجزءاً من حياته لايقوى على ازالتها مئة حمام من حمامات السوق البخارية، وتعيش عمراً أطول من عمر اربعة ازواج من القفافين تستعمل وقتـاً طويلاً ! طويلاً ! حتى تتمزق وتغدو كالمصفاة من كثرة الثقوب ! ... لا بل اكثر من ثلاث بدلات تموت بالتعذيب ! ...

وحينا نطرد علاكيز الكلام القديمة فان علاكيز كلام جديدة تحل مكانها رويداً رويداً ! ونستخلص من ذلك اننا اصبحنا مسرحاً لتحول جذري في اخلاقنا وقد يكون هذا التحول ظاهرياً وقد يكون عميقاً !

اني اذا ما ابتدأت من هذه الملاحظات فذلك لانـه لابد من البدء بشيء ما . وفي البداية كانت الكلمة ! وقـد نسيت ان أقول لكم انهذه الكلمة قيلت في الانجيل ولكنها تنطبق أيضاً على المؤلفين والملحنين ، ولذا فاني ابدأ بهذه الكلمة الكامنة فينا والتي اسميها (الكلمة سبوتنيك) ! انكم تعرفون ولاشك هذه الجملة المتداولة :

(أما قلت لك ذلك ؟) وقبلتها (لقد كان هذا متوقعاً أو محسوباً وهي كلمة لاغنى عنها لمن يعرف كيف يفرح بمصائب الآخرين ! .. وان كلمـات : مدهش ! وفظيـع ! وغيرهما من العكاكيز الكلامية تعيد لاذهانكم المراحل التاريخية لعالم الفكر في الهواء وتعيد اليكم صورة القطة الصغيرة والتفتيش على طعامها اليومي !

استمعوا الى كلمة زوت ! أو وي ! تصدر من فم صغير لسيدة جيلة ! انكم تفهمون حتما فوراً بان الحليب قد فار وفاض على النار !.. اما اذا استمعتم لصوت الضمير يهمس في اذنكم : (يا الهي يجب ان لا افعل هذا) فانكم تشعرون براحة لأن هذا التضرع لله يعني تسلط الشيطان عليكم ! افلا تعني جملة (يجب ان لا افعل هذا بانكم مستعدون لفعل كل شيء ؟ ؟ ...

وان هناك كلمات كثيرة من كلمات السبوتنيك هذه لايقل عددها عن اهل الارض ولا شك في ذلك ابداً . واذا ما تفحصتم ضمائركم باخلاص فانكم ستعثرون على عكاكيزكم الكلامية . وليمد كل واحد منكم لسانه قليلا ليقع الكثير من هذه العكاكيز في راحة يده وانظروا الى نفوسكم في هذه المرآة فانها لاتخدع ابدا ! .

ان المنولوج الذي ستلقيه عليكم بطلة القصة من هذه المسرحية يبتدىء بجملة مازالت منذ سنوات مخلصة لهذه السيدة إخلاص الكلب الامين لصاحبه، ومازالت السبوتنيك الذي يدور على لسانها الا وهي : (ان الاطبـاء لا يفهمون شيئاً ولا يعرفون شيئاً) وهي موقنه بهذا القول مثل يقينها بانها دفنت منذ زمن زوجها الكولونيل، وانها ما زالت حية ترزق (او تسعى) من بعده وستسمعونها تردد دائما « ان الاطباء لايعرفون شيئاً » .

ومن خلال هذه الساعة التي ستقضيها معاً سيهطل عليكم وابل من الكلمات : كلماتي وكلمات بطلتي لأن مهنتي (صف الكلام) فلا تستغربوا اذن من امتلاكي ذخيرة كبيرة من كلمات السبوتنيك . وقـد اصطدت كلمة خاصة من اجلكم انتم الا وهي سبوتنيك المتشكك، وهي الكلمة التي تعني كل شيء لاننا نستطيع ان نحشر في مفهومها المعجزة كما نحشر القرميد ، وان نضع فيها على قدم المساواة انبل نزاهات العالم مع احقر سفالاته !... وهي الكلمة التي يقف الشك على عتبتها كل يوم بألف وجه ووجه الا وهي كلمة « ربما » أو « قـد يمكن » . وهي باب ذو مصراعين فاذا ما دفعتموه تجدون « قد » عن يساركم و « يمكن » عن يمينكم وسترون ماوراءها بعد ذلك !.. وهذا الباب هل هو باب الافراح أم باب الاتراح ؟... هل هو الشك الذي يعذبني لأني لا أعرف مسبقاً ماذا ستقص عليكم او كيف ستتصرف هذه البطلة التي تفزعني ، هذه الكلمة « ربما » ذات المصراعين اللذين ما زالا مغلقين واللذين لا انتظر منها اي شيء حسن . ؟؟ .... في الحقيقة ان ما يقلقني هو اعظم من هذا بكثير : اذا لم تكن بطلة هذه المسرحية وحيدة من نوعها ؟ . واذا ما كانت بدل ان تمثل الشذوذ الذي يدعم القاعدة ، ليست سوى مجموعة من قطع ملتصقة مع بعضها بعضا مستعارة من كثير منكم يا أعزائي المشاهدين ، ومن ايضا ، ولأعترف بذلك مادمت تحت تأثير حرارة الصراحة ؟ ؟ لانني في الواقع إكتشفت هذه المرآة ، اذا صح هـذا

التعبــير ، من بين النــاس الذين بين ظهرانيهم ، وقدمت لي الانسانية الطين الذي عجنت بطلتي منه . نعم لقد خلقت من هــذا الطين شكل بطلتي ووجهها غير اني قد استعرت تلك الطينة واختلستها من الناس ؛ ولذلك فان هيئــة بطلتي ارملة الكولونيل وتصرفاتها لاتتعلق بي انا بل تتعلق بالمادة الاولية التي خلقتها منها .

نعم لقد نحتوا الآلهة من الرخام ، وسال القواد العظماء والرؤساء المخلصون في بحار من تماثيل البرونز ، ومجدوا الشعراء بعد موتهم وخلدوهم على احجار الغرانيت السوداء . هؤلاء الشعراء المختصون بوصف نزعات النفس العميقة الخفية على اختلاف أشكالهـا وألوانهـا . أما أنا فليس بين يدى سوى الطين وأي طين ؟ طين المجاري القذرة (أوحقر المزابل) . واحتراماً لهذه المادة النادرة فاني لم اصنع منهــا إلهاً ولا قائداً ولا رئيساً للجمهورية ولا فيلسوفاً ولا شاعراً بل صنعت منها ارملة كولونيل (وتدخل ارملة الكولونيل وتجلس على رأس مائدة حافلة بافخر انواع الاطعمة) انهـا ماتزال محافظة على جمالها إما ترون ذلك ؟ ... واذا لم تكن وردة خريف فانها على الاقل زهرة داليا وذلك بفضل اطبائها (الذين لايعرفون شيئاً) ، وبفضل حلاقها (الذي يعرف كل شيء او يكاد !) وبفضل من يعنى بتجميل وجهها (وهو الشخص الوحيد في العالم الذي تعترف له ارملة الكولونيل بالتفوق الثقافي .)

لقد خرجت ارملة الكولونيل من المستشفى حديثاً : اولا لأن الاطباء لايفهمون شيئاً ، ثانياً — لانه كان لابد من اخلاء سرير على عجل لتمريض طبيبها الذي كان يعالجها والذي اصيب بسببها بانهيــار عصبي شديد من أرق واضطرابات سمعية وبصرية واختلال في الاعصاب ، وهي امراض بعيدة عن بطلتي حسب الظاهر . (والسلام على الطب والاطباء) ولنتمن لطبيبنا المسكين الشفاء العاجل اذ لاينقطع الامل مادامت الحياة ! ولكننا لانستطيع أن نقول مثل هذا القول للطبيبين اللذين عالجاها قبل هذا الطبيب لأنهما ماتا من علاجها هما الاثنان !...

وبالاختصار فقد قررت ارملة الكولونيل عند خروجها من المستشفى بان تحتفل بانتقالها من سيدة مريضة الى ربة منزل سليمة الاعضاء وذلك باقامة حفلة عشاء متواضعة للاصدقاء المقربين بغية ....

المعترضة

كم ترن جلتك ؟

سدي بوزك ! انا لم اعطك دوراً لتنتقدي اسلوبي . انك لم تصلحي ابداً الا لمنع الناس من ان يمثلوا باطمئنان فكفي عن ازعاجنا . (وتتبختر المعترضة .) – الى اين وصلت ؟ . . .

– آه ! نعم ! ان ارملة الكولونيل تقيم اذن وليمة للاصدقاء المقربين لكي تستطيع ان تأكل ماتريد بقدر ماتريد واليكم اولا خادمتها (يشاهد خلف كرسي ارملة الكولونيل انسانة متواضعة ولكنها ليست في ثياب رثة ويبدو عليها شيء من النضارة . ومفردات كلامها لاتزيد على كلمتين : – « نعم » و « لا » – يزينها احياناً فعل (لااظن) وحيث ان اعداد هذه الدعوة قد اثار على هذه الخادمة كل العواصف التي يمكن ان تثيرها زبونة المستشفيات الدائمة ، والتي خرجت منها موقتاً ، فان المسكينة قد فقدت النطق هذا اليوم . ولندع هذا :

ان عدد المدعوين ثمانية وهم : صهر الكولونيل (يسلط النور على هذا الوجه : جبين عريض لرجل مفكر واذنان كبيرتان تسكب فيها الحماة الامثال والحكم ، وهو يصغي اليها بشكل كأنه يعتبرها كبشاً من اكباش المرينوس الاسبانية .) انه مهندس . وبما انه يقضي وقته في القيام باعمال تتجاوز الفهم او يصعب عليها فهمها ولا تعود بفائدة مادية كبيرة ، فان ارملة الكولونيل تعتبره ابله وفي غاية البلاهة . انكم ترون الان ابنة الكولونيل (النور على ابنة الكولونيل جالسة بين زوجها وامها .) طبعة ثانية مصححة ومنقحة عن الأم ، حذفت منها احرف التاج واصلح معطفها حسب ذوق العصر .

ولابنة الكولونيل أربعة انتصارات في رصيدها فقد استولت على زوجها وقرأت جملة واحدة لبروست (ولكن من اولها لآخرها) وصبغت شعرها بلون بنفسجي زاه وولدت بنتاً وحيدة (اما انتصارها الخامس فمسألة فيها نظر ، وهو انها رفست طبيبة اسنانها في بطنها) . واذا ماتركت انسانة فاتنة كهذه تفتح فمها المرسوم بالاحمر على شكل قلب فلن يسقط منه الا جملة سبوتنيك اقسمتها لخدمة اربع سنوات : على شاطىء بالطة من هذا الصيف قال لي رشيد بيبوتوف باتي ... ولاتذهب في جلتها بعيداً اكثر من هذا . وسيبقى ماقاله رشيد بيبو توف سراً من الأسرار لأن رشيد بيبوتوف لا وجود له أصلاً!.. وبجانب البنت سترون ابنتها (وتسلط الانوار على الحفيدة وهي فتاة ممتلئة كقطرمين

مصر لاقامة ولاخصر) . وحيث كانت الطبيعة في يوم سعيد حين ابدعت هذه الفتاة فقد منحتها دماغاً مثل دماغ ابيها وسحراً كسحر امها وعينين مفتوحتين جيداً على العالم، وارادة قوية لاستعمالها حسب ماتريد . وهما في عراك ابدي مع جدتها. وقد اجبرت هذه الجدة لأول مرة في حياتها الى اللجوء لموقف الدفاع : فقد شنت بعض هجمات مضادة تحت ستار سجف من دخان ولقد تلاشت آخر هذه الهجمات في محبتها اللانسانية .

فقد عثرت ارملة الكولونيل اخيراً على خطيب — أوه ! لا ! لا من اجلها هي، وانما من اجل حفيدتها. وهذا الخطيب سيقوم بخدمة العلم. هذا شيء لا يحتمل أليس كذلك؟ وقد وضعت الجدة كل نشاطها في الميزان وكل صداقاتها وعلاقاتها في العمل وبراهينها المبتكرة من البطارية . لتبرهن ان الشاب كان يملك الكثير من المواهب العبقرية الغنية وحرام ان يضيعها في السلك العسكري لأنه كان موضع امل المصارعين وموشحاً لبطولة الملاكمة. وانه فوق هذا مصاب بضعف الاعصاب المزمن الحاد ومرامي قلبية ناتجة عنه .

ولكن الحفيدة عارضت جدتها بضربة دنيئة حقاً وأرسلت العروس المنتخب من قبل الجدة يعرض نفسه في مكان آخر — كما يقال باللغة الاستونية باسلوب خيالي — وبما ان المهر الصغير كان يتمتع بحماية الكولونيل فقد تجرأت الفتاة على نعت الارملة المحترمة بانها من بقايا الطوفان وبانها من موديل ١٩٠٠ . ثم انها لم تكتفي بهذه الالقاب التي تعود الى التاريخ وقبل التاريخ أيضاً ، بل انها ذهبت الى ابعد من ذلك ولم تفكر بشيء اصلح من مغازلة هذا الفتى الذي تزوله هنا! وهو عامل كهربائي (يسلط البروجكتور على العاشق وهو بنظر المؤلف انموذج كلاسيكي جداً للبطل الايجابي . انفه متوسط ووجهه بيضوي الشكل ، فمه متوسط الحجم، شعر رأسه قصير، ويداه متينان من صفات العامل النشيط، وهو يلبس بذة كحلية اللون من الالبسة الجاهزة وقيص من قطن ابيض ثمنه ست روبلات و . ٥ كوبيك).

وكاد هذا العاشق ان يسبب مرتين موت ارملة الكولونيل بالسكتة القلبية . في المرة الاولى لرفضه ان يفسر لها ماهي الموجات القصيرة ؛ وفي المرة الثانية لأنه حاول ان يقنعها بان الجزائر توجد في افريقيا الشمالية في حين ان كل الناس يعرفون انها واقعة في الشرق الأقصى ! وكانت لها بطبيعة الحال الكلمة الاخيرة في هذا الموضوع لأنها طلبت اليه ان يترك البلاد في امكنتها وان يبقى هو في مكانه أيضاً . ولكنها كانت على قاب قوسين او أدنى من الاغماء وفقدان الوعي مرتين، وكان لابد لها من ليترات من الماء البارد لتدفع عنها النوبة القلبية ولذلك فهي تكره هذا الفتى — لأنها تكره بشكل فظيع كل ماهو بلدي وغير معقول — ومن أجل العشاء هذا اليوم قد وضعت له بنفسها صحناً مكسوراً وقدحاً مشعوراً عاملة بمبدأ عدم تشجيع خرق مسح الصحون ان تحشر نفسها مع فوط

المائدة . هذا بالاضافة الى انها اجلسته الى جانب اعز صديقاتها (تسليط الانوار على الصديقة : طراز غرفة الطعام من عهد هنري الثاني ومعها مقعد) وهي نموذج من الانتاج العادي الشائع عام ١٩٠٥ . وهذه السيدة الصديقة اغتنمت فرصة تغيير الهويات أثناء الاحتلال فقفزت عشر سنوات الى الوراء ، تريد ان تستعيدها اليوم من اجل احالتها على التقاعد . واذا ماقرأتم الآلام على ملامحها فذلك لأن شيطاناً داخلياً انذرها بأن ارملة الكولونيل لن تتركها تفتح فمها الى درجة انها لن تستطيع ان تروي النكات التي جمعتها بكل صبر وعناية في مصنع طلاء الاحذية حيث تعمل محاسبة ، وسيمضي وقتها غدا كما يمضي وقت جريدة اليوم . اما اذا ارادت ان تفتح حديثاً مع جارها فيجب ايضاً ان يكون هذا الفتى قادراً على فهم كيفية الحياة التي كانوا يعيشونها فيما مضى ، ذاك الزمان الذي كان فيه الشبان شباناً حقاً وكان المثلج اكثر بياضاً وكانت العصافير الدورية اكبر من حجمها الحالي بثلاث مرات !.. ذاك الزمان الذي كنتم تلاقون فيه في نادي الضباط ملازماً ثانياً ، من فرقة الفرسان ببنطلونه القرمزي ، ينصحكم بابتسامة عذبة بالا تظنوا انفسكم سر القربان المقدس ...

ولكي تحكم ارملة الكولونيل الداهية حصار صديقتها العزيزة اجلست الى يسارها شيخا اخرس لاتقاسمه اية ذكرى لتحدثه عنها (اضواء على الأطرش العجوز) . ولقد مضى خمس سنوات على هذا الاطرش العجوز وهو يصغي لحديث الكولونيل لا لأنه يتمتع بصبر الملائكة او بصبر ايوب فقط ، بل لأنه لايسمع شيئاً مما تقول . ولاتؤثر في عواطفه قصص امراض هذه السيدة حتى ولا صوتها . انه يتظاهر بفهم ماتقوله بتحريك رأسه . وحينما ينسى دوره ولايحرك رأسه تصيح بـه ارملة الكولونيل « هل انت اطرش ؟ » فينتفض من مقعده ويبتسم ويبدأ (بهز الفاوروق) . فهو مواطن لعالم مغلق اغلاقا محكما لاتستطيع اية كلمة (قد يمكن او ربما) ان تطعن فيه . وحديثه مع نفسه يدور بلا انقطاع حول موضوعين : كلبه الصغير الذي داسته سيارة ، وشجرات التفاح الاربع التي قضى عليها برد شتاء قارس . وقد لايدخل دماغه شيء غير هذا تقريباً ! واخيرا وكذلك وبالرغم من ان « الاطباء لايفهمون شيئا » ها هو الطبيب جالس الى جانب الشيخ العجوز (اضواء على الطبيب : انه شاب ووسيم وناعم اكثر من اللازم ولم تستشره ارملة الكولونيل بعد لمعالجة امراضها ولذلك دعته لتناول طعام العشاء عندها ، ولهذا السبب مازال يتمتع باحترامها حتى الآن .)

وهكذا فان الحلقة قد تمت الآن .. — اه ! كلا ! لقد اخطأت الحساب . لقد قلت

لكم بان عدد المدعوين ثانية ولكن مازال هناك كرسي فارغا تروه بين إرملة الكولونيل وبين الطبيب فلعله لي ؟... ومهما يكن من امر فاني سأجلس عليه .

ولابد ان يكون عند الانسان بعض الامراض ليستفيد في معالجتها إذا ماجلس بجوار طبيب . والتمتع بصحة جيدة تسمح لي بتحمل إحاديث ارملة الكولونيل . (ويتجه نحو المائدة) — دكتور ! لا تخش شيئاً : لقد نشأت في القرية ، لا اعض اليد التي تطعمني ولا ابصق في الحساء الذي يقدم لي . اما أنت ياسيدتي ارملة الكولونيل فأرجوك ان لاتنظري الي هكذا ! اننا نعرف بعضنا لابل اعرفك معرفة جيدة ... (يجلس) .

ملاحظة هامة : اذا ما اتفق لي ان قاطعت حديث ارملة الكولونيل فاني انما افعل ذلك بدافع انساني فقط وذلك لأسمح لهـا بأن تستعيد انفاسها بين حين وآخر . وهناك تعود لحديثها بعد ان (زيتت الماكينة) ويصبح معدل القذف ٦٠٠ ضربة (او كلمة) في الدقيقة الواحدة .

ارملة الكولونيل :

ان الاطباء لا يفهمون شيئاً (الى الطبيب) . عفواً يا عزيزي الدكتور ، ولكنهم في الواقع لا يعرفون شيئاً . وهذا لا يمنع بالطبع استثناء القلائل النادرين منهم امثالك ، ولكنهم لا يعرفون شيئاً ابداً ! — انا مثلا وصدقني فيما اقول بأني كنت مريضة وبقيت مريضة وسأموت مريضة ، ولذلك هل تعرف (وقد صوبت الى انسان عين الطبيب نظرة بالغ السيوف ، نظرة لايتحملها الفتى المسكين اكثر من ثلاث ثوان) ماذا قلت لطبيبي ؟ نعم قلت له كما تراني الآن ما يلي : « تستطيع القول بأني شفيت من كل امراضي لأنك جدير بكل الاعمال وقادر على كل شيء بحجة ما لديك من انابيب ومسابر وحقن للزرق ، وتستطيع أن تميت مرضاك جوعاً بان تحرمهم من اشهى الاطعمة التي هي منتهى مسراتهم ، وتستطيع ايضاً ان تعامل ، مثل (الكوبوي) ، سيدة محترمة جليلة القدر لتقدم سنها ولمركزها الاجتماعي المرموق دون مراعاة مركز زوجها ، حتى ولو كانت ارملة جـديرة بالاهتمام ، انك تستطيع ان تمتحن جسمها بفرضك عليها حركات رياضية مضحكة مثل بوليشينيل ..

المعترضة :

لكي تتصوروا مشاعر الطبيب الذي لم يكن يدرك حتى هذا اليوم فظاعة مهنته ، افترضوا انكم في قفص الاتهام وتحاكمون بتهمة بيع سرير الزوجية لإنفاق ثمنه على عشيقة غير شرعية ! ..

ارملة الكولونيل :

... إنك تسمح لنفسك بان تسمي هذه السمنة التي تعطينا الوقـــار ، زيادة شحم وتجرؤ على ان تمنعني من أكل سمك السوموت المدخن والبارات ولحم الخنزير المحمر بالفرن والخردل.. ولديك الوقاحة لأن تغتصب من انسان بالغ ، القدح الصغير من الفودكا الذي يود تذوقه قبل طعام الافطار ، وان تفرض على الناس أكل الرجيم كالارنب بالجزر .. نعم لقد قلت كل شيء لهذا الجبان الكبير ! كل شيء ! كل شيء وقذفت كل هذا في وجهه حتى اصفر وصار مثل (الكاريا) وقد لاحظت ايضاً في ذلك اليوم لأول مرة انه اصيب بحركات عصبية وقد ازدادت كثيراً خلال الشهرين اللذين كان يداويني بهما للمرة الثانية الى درجة ظننت فيها في احد الايام، وربما كان ذلك شعوراً فقط ، بأنه يريد أن يقذف مشربة الماء على فقرتي الجبينية (اي انه حاول أن يضربها بالمشربة على جبينها) هذا بالاضافة الى رفعه صوته مرات وهو يكلمني ظـــاناً بأني أسمح له بذلك . ولكن لا تتصور يا دكتور (الطبيب يتنبأ مرتجفاً) باني تركته يفعل ما يريد ، وأنا ارملة الكولونيل العالمة بحقوق المريض السوفييتي التي لا توصف ! اوه لا ! لا ! لقد قلت له : « جرب قليلاً بأن تشفيني وهذا اولى بك ، من أن تشخص تشخيصاً خاطئاً لمرض زوجة كولونيل لا تسمح لانسان فان بأن يقتلها » ثم اني وضعت له النقط على الحروف — لمـــاذا لا تأكل يا دكتور ؟ — وقلت له بصراحة كما تراني « الجهاز العصبي هل تعرفه ؟ حتماً لا ! لأنك لا تعرف فيه شيئاً . أما انا فاني اقرأ بانتظام مجلة « الطب لأجل الجميع » التي لا تقرؤها انت بدون شك. واريد أن اقول لك بصراحة باني لو كلفت بتشخيص مرضي لشخصته اصدق من تشخيصك بعشر مرات . لأني سأجد عندي خمساً وعشرين مرضاً أكثر من هؤلاء الاطبـــاء البله . » ولقد انتهى اخيراً بأن لاحظ قليلا — تفضل يا دكتور ! ان السمك طازج جداً ونحن بين اصدقاء مخلصين — وحينما ذهب الطبيب سرّت عني الخادمة بقولها لي: « سيدتي الكولونيلة كلي على قدر شاهيتك ويجب على الانسان إن يصغي دائـــا لصوت معدته لان الاطباء لايعرفون شيئا كثيرا بدليل انهم لم يسمحوا بشيء » وكانت النتيجة، كما ذكرت لك آنفا ، بان هذا الطبيب قد انتهى بان لاحظ قليلا بأنه لم يعد يستطيع ابدا ان يرفع جفنه اليسار في الوقت الذي كان خده اليمين يرقص رقصة الشارلستون — اني اراك شاحبا يا دكتور فهل انت مصاب بليرقان المعدي ؟ اتوسل اليك بان تأكل ! — وبالاختصار فان الطبيب المذكور قد انتهى بان لاحظ قليلا كما أوضحت لك ولذلك فقد قلت له انا مايلي : « إنك ياصديقي المسكين لاتعرف شيئا ولكني سأبتهل الى الله فـــوق سرير موتي بان يسامحك

ويعفو عنك ، لأن الاطباء لايعرفون ، ماذا يعملون ثم اترك بعد ذلك وادي الدموع هـذا واموت باناقة وقلب مطمئن وصلابة كالعدالة نفسها ! » (وترفع كأسها) للشرب اذن .. (صوت في الظلام : « نخب صحتك ») حسنا نخب صحتي ، ان هؤلاء الحمير حرموا علي حق الكأس الصغيرة مـن الكونياك ولكني حينما علمتهم بان اجسامنا تحمل ١٨٠ بالمئة من الماء فانهم لم يستطيعوا ان يفتحوا افواههم . فاشربوا نخب صحتي اذن فاني بحاجة ماسة للخمرة ! ...

يسمع قرع كؤوس الكريستال في سكون كسكون القبور وقد هيمنت ارملة الكولونيل على الحاضرين وهناك تندفع المعترضة بسرعة لمقدمة المسرح .

المعترضة

ان هذا الموقف عظيم جـدا (حين ؟) أليس كذلك ؟ ثانية ممثلين لم يعهد اليهم الكاتب ولابجواب واحـد حتى ولا كلمة « اوه ! » ولا كلمة « آه ! » ثانية . ممثلين كلاسباك "بكثم" كبكامة ادوات المسرح ذاتها ، بينما انا ، المعترضة التي كنت صامتة منـذ الأزل ، اغرد الآن واثرثر واصيح كما شئت وشاء هواي ! (تلتفت الى الممثلين) هل يعجبكم هذا ؟؟ .. ايعجبكم بالا ارغمكم على طاعتي باشارة من اصبعي أو نظرة من عيني ؟ انا الحاكمة المستبدة بكم ؟ ... وهل يرضيكم ان اكتفي بمراقبتكم حين تقومون باعمالكم كسيدة من الطبقة الراقية ؟ ... وما رأي ابنة الكولونيل بهذا ؟؟ ...

(تقترب من ابنة الكولونيل) – ابوه لاشيء ! انها سكرانة وشبعانة ومنتفخة مثل حية البوا ، ولايوجد في فمها الصغير مكان الا لفكرة واحـدة وهي : ان الطبيب شاب جميل ويجب على امها ان لاتزعل هذا الشاب الحلو ! . . وتحلم بانهم اجلسوها الى جانب هذا الدكتور اللطيف الشاب ، وان تهمس في اذنه بحنان : « على شواطىء يالطافي هذا الصيف كان رشيد بيوبوتوف يقول لي باني ... » أما الصهر (وتقترب من الصهر) فانه يعتبر ارملة الكولونيل من اكثر المصائب الشعبية شيوعا ، ولذلك فانه يتسلى بان يحل في عقله معادلة من الدرجة الثالثة ، حيث يكون حرف س خياليا .

اما حفيدة الكولونيل (تحتضن كتفيها بحنان) فانها تغلي من الجزع وتريد ان تعرف رأي حبيبها بها وهو الشخص الوحيد الذي يهمها في هذا الوجود . وتحتل قلبها موجة غضب باردة . وفي الواقع فان عامل الكهرباء (وتقف خلف كرسي العاشق) يفكر بما يلي : انه اذا ما احبته ارملة الكولونيل نتيجة لاضطرابات مفاجئة فانه سيلقي

بثيابه الرثة في حقيبة ، ويضع فيها الفتاة ايضاً ، ويأخذ اول طائرة مسافرة الى براتسلاف .

اما الصديقة الحميمة (تقترب المعترضة باحترام على مسافة من الصديقة) ، انها تتألم ألماً شديداً ، ويدور لسانها بصعوبة حول (بدلة اسنانها المستعارة) ويراودها امل ضعيف بان تترك لها ارملة الكولونيل المجال لتنطق ولو بكلمة واحدة ، ولكن هذا الامل الضعيف بدأت تذروه الرياح . ويفكر الشيخ العجوز بكلبه المدعوس فيوحي اليه باللوعة والاسى ! فأرملة الكولونيل لاتسمح له الا بان يحرك رأسه فقط بينما كان الكلب يسمح له بالكلام على الاقل . اما بماذا يفكر الطبيب فانكم تعرفون ذلك دون ان اذكره لكم ! اما الكاتب فهل يفكر حقا ؟ .. هذا مايعنيه هو فقط . وفي الواقع فان قصته هذه تنبئكم الخبر اليقين ! ولم يبق سوى الموسيقا العسكرية ، فلنترك الكلام لها !

وتذهب المعترضة لتجلس من جديد في مكانها . وتعزف الموسيقا العسكرية بعض الالحان الصاخبة .

ارملة الكولونيل

. . . ان الناس لم يعودوا يتكلمون إلا بالتربية ! في الصحف ! وفي الشارع ! حتى الانسان المسكين الذي نال رتبة كابورال بقوة ساعديه صار يتكلم في التربية . وكذلك الممرضات والخادمات في المستشفى ! والناس لايشكون في شيء ! ويظنون ان هذا العلم اصبح خبزهم اليومي وانه يشترى من غير تذكرة وان اي انسان له الحق في ان يبدي رأياً علمياً في اللحظة التي يلبس فيها البالطو الأبيض . اتفهم هذا يادكتور ؟... (وتخاطب الشيخ الأطرش الذي اخذ غفوة) ايه ! انت الذي هناك ! هل انت اطرش ؟ . (ويستيقظ الاطرش مذعورا) . تصور يادكتور انني لم اعد استطيع النوم تقريبا في المستشفى ، ومع هذا فاني كنت احاول ان أنام على الجانب الايمن قبل ان اقلب الى الجانب الايسر . والذي كان اسوأ ، ولذلك كنت استلقي على ظهري لأنبطح اخيرا على بطني – اعذرني على هذا التعبير المبتذل – ولو اني وضعت وركي فوق رأسي لكانت النتيجة واحدة تصور حدوث كل هذا في الوقت الذي بدأت فيه روحي بالانشراح وبدأت استعيد نشاطي ، حينما شعرت وانا متألمة قلقة ضعيفة (نظرة طويلة حزينة الى المؤلف) معذبة ، بحاجة حقيقية للحركة ، واستعمال كل نشاطي وقوتي التي تعطلت عن العمل في هذا المستشفى اللعين حيث يأبى لذيذ الكرى ان يستجيب لندائي القلق ، بينما كانت ذكريات الكولونيل تتسلط على احلامي في اليقظة ، لأن الكولونيل كان انسانا مهذبا لدرجة انه لم

يكن يرفض لي طلباً قط. اوه ! . . . انني استطيع القول بأني عرفت الحب معه — ! وهذا لايمنع انه لم يكن كذلك مع ضباطه . لأنه كان مستقيماً في العمل كالعدالة نفسها — ولعلهم بسبب صوته البرونزي القوي — أسموه جرس البقرة ، اما انا فكان ينظر الي بعيني كلب مخلص وهو يرتعش من الحب اللهم الا مرة واحدة كان فيها فظاً عديم التهذيب بسبب هر جارتي ، ولكن يجب القول بان هذا الهر تسلل خلسة الى قبو منزلي واكل لي سمكتين وقد قررت بحزم ان اقتل هـــذا الحيوان الشرير ، ولكني ارهقت اعصابي وانا اتربص به ثلاثة ايام دون جدوى ، لانني كلما كنت اصعد من القبو لحظة كان يتسلل اليه ويأكل سمكي فقلت للكولونيل اخيراً : (يا ديكي !...) — كنت اناديه دائمــاً « ياديكي » — فقلت اذن للكولونيل « يا ديكي ، انك ولا شك لا تريد بان اموت مجنونة ! » وقد اجابني بنظرة عبادة قائلاً : « ستحصل لي بذلك سعادة كبرى يا دلوعتي » ثم اخذني بين ذراعيه — واني لا اخجل بان اعترف بهذا على الاخص وان ذاك اليوم كان يوماً سعيداً جداً — ثم ادخلت اصابعي تحت الابيوليت وسألتــه « هل تحبني ؟ » وحيث انه بطبيعة الحال قال نعم ، فقلت له ما كنت اقوله له ايام شهر العسل : « تذكر يا ديكي باني انا جنرالك » فاجابني : تحت اوامرك يا دلوعتي ! « غير انه كان يتصور بان يخرج من هذه المداعبة بزوج من الجوارب فقط ، بينا كنت اطمع باكثر من ذلك لدرجة انه بهت كثيراً حينا سألته : فيما اذا كان يوجد بعض المدافع في فرقته العسكرية لقتل قط الجارة بلباقة واستقامة مثل العدالة نفسها ، هذا القط الذي أكل لي دمائي وسمكاتي ! .. فكانت هي المرة الوحيدة التي كان فيها (ديكي) غير مهذب معي . وقد صاح في وجهي مثل حمار احمر ، بأني حيوانة اكثر من جزمته وبأنــه التقطني من الشوارع ! ولكني كم كلت له الصاع صاعين او اكثر من شدة غضبي ! وصحت في وجهه قائلة : « ربما كنت بلهاء مثل جزمتك حينما اصطدتني من المجاري القذرة ، غير ان الاوان قد فات لكي انتقد تصرفاتك السيئة ايام شبابك ! اما الان فاني زوجة كولونيل فافتح عينيك واعرف مع من تتكلم » . هذا ما قلته له ثم قلت له ، ايضاً ، قلت له : « ان الرجال الآخرين يرتكبون جريمة القتل كلما لزم الامر ويسرقون ايضاً من صندوق الدولة لكي يبرهنوا على حبهم لزوجاتهم او انهم يغرقون بالديون من اجلهن اذا لم يكن لديهم وسيلة اخرى . وعرفت رجالاً اخرين يتسلقون الميازيب الى الطابق الخامس لكي يهمسوا الى من يحبون : « اني اعبدك ! » ! وآخرين يخسرون ثرواتهم في مونت كارلو وفوق ذلك فان العالم مليء بالازواج الذين يحرقون دماغهم في رصاصة يصوبونها الى قلوبهم ! اذا لم يشنقوا انفسهم على خزانات مياه المراحيض او يبتلعوا خمسين حبة اسبرين او يربطوا

حجراً في عنقهم ويلقوا بانفسهم في النهر ، وبعد ذلك ، ترى فقاقيع الماء تصعد الى الاعلى من تنهداتهم التي يقولون فيها لمن ماتوا من اجلها ! « يا ملاكي الحبيب » ! اما انت فانك لن تبلغ هذه المكانة السامية ابدا لانك مصاب بتقلص القلب ولا تصلح للحب الا كحارس الاسطبل واريد ان اقول لك ...»

المعترضة :

تفكر الصديقة بأن الكولونيل اذا لم ينتحر ضرباً بالرصاص او بالشنق أو بالغرق فما ذلك الا لأنه كان (بابوجة) حقاً . امـــا الشيخ الاطرش فيرى بأنه لايمكن نظرياً لانسان ان يعيش مع هذه الامرأة ستة اشهر من غير ان يفقدسمعه، ولكن هذه الظاهرة نشاهد عملياً في كثير من الاسر والرجال لايفقدون اسماعهم . وعلى كل حال فالمرحوم كان ينتسب لجنس الابطال . اما الصهر فانه يشعر نحو المرحوم باحترام وحب عميقين : وبما أنه اخصائي بدراسة مقاومة الاجسام فانه يعتبر الكولونيل منـــذ زمن بعيد نموذج المرونة سواء أكان ذلك من الناحية العسكرية او الناحية الزوجية والانسانية . وهي الصفة التي اتمناها لكم لأن المؤلف كتب هنا يقول :انارملة الكولونيل قد بلغ بها الغضب حد الغليان ولا تسمح لأحد بأن يقاطعها قبل ان يرفع من امامها القتيل الاول .

أرملة الكولونيل :

لقد عفوت عن الكولونيل، لأن الرجال ليس لديهم اي تفكير منطقي، وخاصة في الجيش .ولم يتكرر هذا الامر بعد ذلك ابداً .. وأنتم تعترفون معي بأنه من النـــادر في وقتنا الحاضر العثور على ضابط اصيل مهذب وعلى الاخص بين الاطباء ! — وهكذا (الصديقة تفتح فمها) — تريدين ان تقولي شيئاً ياعزيزتي ؟. (الصديقة لا تنتظر سوى هذه الدعوة ؛ ولكنها تعود وتغلق فمها فوراً وقد علتها الكآبة) اصبري قليلا ريثما انتهي من الحديث اولاً عن مشكلة التهذيب هذه، وستكون لك فرصة لتغتنميها وتتعلمي التهذيب.— وهكذا فاني كما قلت لكم لم اغمض عيني طوال الليل وكان بقية المرضى يغطون في نومهم ، أما انا فلم انم لكثرة تفكيري لان العمل الفكري يسبب الارق بانتظام ، لاسيما لمن كان مثلي له رأس لأجل ان يستعمله ، لدرجة اني خطرت لي فكرة ، وهذا مايحصل لي أحياناً ، وهذه الفكرة هي أن اذهب الى ممرضة الليل واطلب منها ممرضة خاصة لي تسهر على راحتي . ولكن هذه الممرضة الحمقاء قالت لي : « لماذا الممرضة الخـــاصة ؟ » فافهمتها «لأني متضايقة»، غير انها كانت فتاة عديمة التهذيب وقليلة ادب، ولم تكن تعرف ايضاً من

تخاطب لدرجة انها اجابتني قائلة « اذهبي الى فراشك وكفي عن الدوران في المستشفى في الليل ، لأن هذا يزعج الآخرين » ولكني افهمتها من اني خشب استدفيء بأن اجبتها بهدوئي المعتاد : « انا ارملة كولونيل فاما ان تعطيني ممرضة خاصة بي واما ان اشكوك لرؤسائك ، وبذلك حصلت على الممرضة الخاصة في الدقيقة ذاتها، واجلستها قرب سريري وادرت المصباح الكهربائي حتى جعلت نوره في عينيها، ولم تكن الساعة تتجاوز بعد الثانية صباحاً ! تصور يادكتور ان هذه المرأة غير المهذبة لم تكن مسرورة الى جانبي حتى ان من يراها كان يتصور انها تموت من النعس لكثرة تثاؤبها ، فوجدت نفسي مضطرة لأن اقول لها ما كان يقوله الكولونيل دائماً في مواقف كهذه : « ماذا يعني نوم الجندي وهو في الصف ? » فأجابتني على ذلك قائلة : « يعني ان المسكين لم يأخذ قسطه من النوم» وهذا دليل ، كان علي ان اعرفه ، بأن ملاحظتي كانت ناعمة جداً يصعب على امرأة قروية بأن تفهمها ، ولذلك حاولت بأن اهبط الى مستواها وقلت لها : « ماذا يعني نوم الحارس في مقر عمله المشرف ?. » ولكني لم انجح ايضاً في افهامها مقصدي ، اذ ان هذه الوقحة اجابتني قائلة : « هذا يعني انه منهوك من التعب ، وكثيراً مايكلفونا بأن نسهر على ثلاثة او أربعة مريضات مصابات بأمراض أليمة جداً، فكم يجب علينا ان نركض يميناً وشمالاً بلا انقطاع. والأسوأ من هذا هؤلاء المعتوهات اللواتي لايعرفن مكان الوجع، لاسيما وان لبعضهن أخلاقاً سيئة مثل اخلاق الخنازير فيصحن بأعلى اصواتهن كصياح رقيب أعيد الى الخدمة ولا يتركن لك المجال بأن ترتاحي حتى تستنفذي كل قواك عرقاً وتعباً ! » واذ ذاك اضطررت لأن افهمها باني ارملة كولونيل ، وتصور يادكتور بانها اجابتني : « اوه ! هناك مريضات حقاً ، ولكن يوجد ايضاً من تجب معالجتهن بالمعول !» حرفياً كما اقول لك « بالمعول!». اني اعرف جيداً بأننا يجب ان لانطلب كثيراً من فلاحة تتقاضى خمسين روبلا في الشهر ، ولكني تلك الليلة شعرت بوحدة قاتلة وبحاجة ماسة للبوح بمكنونات قلبي حتى اصررت على ان اقول لها : « ظننت بأن هذا يهمك .. » — تأكد اني اخاطب باحترام من هم دوني — فقلت لها اذن « ظننت بأن هذا يهمك بأن زوجي كان كولونيلا » فقالت لي : « أوه ! كم وكم من الجنرالات ايضاً يلتقطون نساءهم من على المزابل». ثم عادت تتثاءب بقلة ادب دون أن تضع يدها على فمها . غير اني لم اتخاذل واعترفت لها بأني متضايقة، ولكنها عادت مرة ومرات للتثاؤب في وجهي : « وأنا ، ألا تظنين باني قلقة ايضاً?» وحينئذ عقدت العزم على ايجاد طريق هذه النفس المظلمة ، وان انتزع منها صوت الصراحة، وان اجعلها تصرخ بصوت الحقيقة — حيث انه (وتلتفت نحو المؤلف) اليست

الحقيقة ، ياعزيزي هي الشيء الرئيسي العميق) . صوت القلب هذا ، كما قال الشاعر حيث يهطل المطرفي الكمنجة ؟ — وبالاختصار فقد سألتها فيما اذا كانت متزوجة فتثاءبت بنعم ! وسألتهـا هل زوجك حنون فعاودت التثاؤب : « لا إنه اسكافي » وسألتها ثانية: « هل يحبك ؟ » جواب : « انه لم يضربني حتى الآن بحذائه الحديدي » — ما أسخف هذا التفكير ، أليس كذلك ؟ وما افقر هذا القلب ! وما هذه الروح المغلقة دون روائع الادب وما هذا العالم الذي يرتكز على قدم اسكافي ، واي جدار وأية هوة تفصلنا عن هؤلاء الناس ، فأنا مثلاً اشعر ، اما هي ؟ فتتثاءب ! إذن ، وبمـا ان النعاس لم يداعب جفوني بعد ، فسأقص على هذه الشقية كيف احبني الكولونيل وان صوتي (الحكيكي) (الحقيقي) ؛ في تلك اللحظة ، كان يفيض على كل حنايا روحي لدرجة اني ، أنا الصامتة المنكمشة على نفسي دائماً بطبيعتي والمحافظة على اسراري ، قد وجدت موهبة الكلام . فحدثتها عن العطور وانواع الحلويات ، والسوتيانات وكانت في الواقع احاديث قلبية حقيقية لايعرفهـا الا النساء حينما يتحدثن مع بعضهن ، وقد استسلمت لاحلامي وحلقت في أجواء بعيدة حتى فاضت دموعي وانهمرت الواحدة بعد الثانية ودمعة في دمعة مثل لؤلؤة قطر الندى كما كان يقول كولونيلي — وشعرت بحـاجة جديدة للكلام والى الكلام ايضا والكلام الى مالانهاية لافتح قلبي لهـذه المرأة من بنات الشعب ولأعرض عليهـا اللوحة الرائعة من حياتي مع الكولونيل ولأحيا شيئاً من اتواري (الحكيكية) ، ولكن ماذا رأيته فجأة ، او بالاحرى ماذا سمعت ؟ . انها تغط في شخيرها . ان امرأة الاسكافي تشخر بدل إن تصغي لحديثي بينما لم تكن الساعة الا الرابعة صباحاً . ولكن كم هززتها قائلة : أوه الا ! الا ! « اتنامين ؟ » وهي تجيب : « لا ! مستحيل ! كم يكذب هؤلاء الناس دون خجل ! — وانت الم يصفعك ابداً ؟ » فسألتها : من هذا ؟ وماذا يعني هذا الكلام ؟ » — « كولونيلك ! الم يدلعك قط بكم ضربه بالحطبة ؟ » . وهناك يادكتور شعرت بالسكتة القلبية تقترب مني وأية سكتة قلبية !؟ فأجبـت كلا بصوت خافت . وقالت وهي تتثاءب « هذا ظاهر عليك ! » اتسمع يادكتور ؟ . . ولكنها لم تكد تغلق بوزها القبيح حتى استجمعت كل ماتبقى لي من قوة وكمشتها من جلدة رقبتها وقذفت بها الى الدهليز (الكوريدور) . وقضيت ليلة بيضاء وانا احلم بهذه الجرمة الاثيمة فليلة التهذيب وهي تجرؤ على النوم اثناء عملها ، وفي الصباح كانت دورة تفتيش رئيس الاطباء ، ولا ادري فيما اذا كنت تعرف ماهي الدورة التفتيشية يادكتور ، ورأيت رئيس الاطباء وطبيبي الذي يعالجني والمختص بالامراض العقلية ، وهو الذي كاد انيقذف مشربية الماء في وجهي ومعه اطباء (شي بروس وشي بلا روس)

ومعهم ممرضتي ورئيسة الممرضات او بعبارة اخرى آلاف الرجال والنساء ينظرون اليك وكأنك حيوان غريب. فكانت رئيسة الممرضات وهي شقراء طويلة خبيثة، تسجل كل شيء في سجلها لتسمم بعد ذلك حياة المرضى والموظفين على السواء، وهكـــذا فانهم يذهبون من سرير الى سرير ويسألون ويتحدثون وتسجل رئيسة الممرضات كل ذلك – ولم يكن عملها هذا ليمنعها من ان تدير عينيها يمينا وشمالا حتى اذا رأت أحداً يعمل شيئاً لم يعجبها انقضت عليه انقضاض الصاعقة – كنت اقول لك اذن إنه في نهاية النهايات انصبت على رأسي هذه الحمم الجهنمية انا المريضة المسكينة المهجورة المهملة وانا في سريري اكثر بياضا من الزنبقة الذابلة كما كان يقول لي الكولونيل، وكانت وجنتاي حمراوان كالجمر وكان جبيني واذناي بلون قرمزي. وكانت اصابع قدمي مازالت مضطربة من أثر الاهانة التي ألحقتها في زوجة الاسكاف. وبينما كنت انتظر شيئاً، شيئاً واحداً فقط، وهو قليل من التفهم يتسرب في تلك الليلة البيضاء المروية باهانات دموية الى حد ان العالم كله كان يبدو لي في تلك اللحظة (غير حكيكي) ومحروما من التربية والتهذيب كأحقر مصلحي الاحذية.

وبالاختصار فقد اجتمع حول سرير آلامي هذا الجيش من الشياطين وسألني رئيس الاطباء «كيف حالك؟» فتنهدت وقلت: «لم يعد لدي أي شعور يا دكتور!» فرفع حاجبيه حتى وصلا الى منابت شعر رأسه وقال لي: «ومن أي مكان تتألمين؟». فقذفت في وجهه هذه الكلمات: «من كل مكان وكيف تريدني ان لا افقد احساسي وشعوري وأنا بين يدي موظفين عديمي الشعور يعاملون المرضى كالكلاب! وكيف لا أتألم وانا ارملة الكولونيل المسكينة العاجزة عن الدفاع عن نفسي، وليس من يسأل عني ليدفع عني هذه الاهانات التي أتلقاها في النهار، واتلقى اكبر منها في الليل!» واعاد قولي هذا الى طبيبي المعالج اضطرابه العصبي والشلل الى جفنه الايسر وامتقع لونه وصار كالأموات. وهمس في اذن رئيس الاطباء، بينما كانت رئيسة الممرضات – تصور انها لم تسجل شيئاً من كل كلامي هذا – اقول اذن ان رئيسة الممرضات كانت تنظر الي بعينين مثل الصحون الطائرة ثم قال لي رئيس الأطباء: «فهمت! فهمت! ولكن من الذي اهانك في الليلة الماضية؟» وحينذاك قلت كل شيء ورددت المعزوفة وقذفت الصراخ (الحكيكي) لروح متعطشة دون أن اترك لهم المجال لمقاطعتي على الرغم من انهم كانوا يريدون ذلك، ولكن كان لا بد لي من ان اقول كل ما في قلبي واخفف من العبء الذي يثقل كاهلي. وقـــد كان الكولونيل يقول لي دائماً: «اذا كان لا بد لي من ان تخرجي كل ما في بطنك يا دلوعتي! فاخرجيه في وجهي لأن صخبه يكون اقل حدة» – وبالاختصار فقد اعربت عما في نفسي ولقد خيم،

يادكتور ، بعد كل هذا سكون، يظنه المرء سكون قبل اليوم الاول من خليقة العالم! ولكنك لم تعرف بعد ماهو اجل من كل هذا — واني لحريصة على ان تعرفه لتدرك ما هم عليه زملاؤك يادكتور — بعد ذلك السكون المخيم تلقيت اكثر الاهانات فظاعة، وهي ما كان يسميه الكولونيل (رقصة الروح)، قلة أدب مثيرة للغضب يقف منها شعر اقدام اساكفي من طبقة منحطة. — (الى المؤلف) لاتنس ياصديقي العزيز بان تذكر هذا في مؤلفاتك — ، بعد هذا السكون فان رئيس الاطباء — اوه لا لا ! انني لا استطيع ان اتذكر هذا الحادث دون الشعور بأنه سيغمى علي — فقدر شقني رئيس الاطباء بسهم قاتل من عينيه، وببرودة عيني الافعى لاك بين أسنانه هذه العبارة: «إنك لست مريضه بتاتاً وفي كل هذا المستشفى لايوجد انسان أحسن منك صحة، حتى الاطباء انفسهم ! » ثم ادار لي ظهره حتى دون ان ينتظر جوابي وخرج متبوعا بكل هؤلاء السفاحين لابسي الباوزات البيضاء بما فيهم رئيسة الممرضات ، تلك الجثة الرقطاء التي تجرأت عند خروجها من الباب بأن تلتفت الي وتلقي علي نظرة استهزاء شامتة ، كأنما هو مكتوب في القانون السوفيتي بانهم يستطيعون أن يشتموا المرضى .

— ارجو ان تطلعني على هذا القانون ان كنت تعرفه يادكتور ! — لانه يحتقر كل نظام، ويضرب به عرض الحائط وماذا تبقى من النظام بعد هذا السلوك المشين ؟! بينما قبل ذلك كانوا يأتون لي بالطعام الى سريري وكانت جارتي وهي في حالة الاحتضار تجد في نفسها القوة لتنهض وتقدم لي بابوجي اذا اردت النزول من السرير حتى لا انحني ، أأنت مريض يادكتور ؟ — منذ لحظات اخذ لون الدكتور بالشحوب وهو ينظر الى ارملة الكولونيل بنظرات مخدرة بالتنويم المغناطيسي ؛ حتى غدا رويدا ازرق ضاربا الى السواد . وتعزف الموسيقا العسكرية ببطء مارشا شديد الايقاع فخما وباردا يتعالى وهو يقتحم نهاية العالم اويتجاوزها قليلا ، وكأن الدكتور تحت كابوس ، ويتراءى تراقص ازواج غريبة ، الكولونيلة ترقص مع المائدة، والكولونيلة ترقص مع الارض، والكولونيلة ترقص مع الثريا ، والكولونيلة ترقص مع جميع اقداح الخمر . ويسقط اخيرا عن كرسيه ، وتصدح الموسيقا المنتصرة مزعجة لا ترحم ، مثل منطق الكولونيلة تماما لتحيّ دخول الدكتور في حالة الغيبوبة الـــتي تسبق الموت . ويحمل الصهر والعاشق جثة الدكتور الى خارج المسرح.

وبذلك تكون نهاية الفصل الاول

— البقية في العدد القادم —

اترك لي أبي..

عبد الله الشيتي
- بيروت

قالوا له الدم ينادي الدم ياحمدان!
وهتفوا به مجتمعين : لايغسل الدم الا الدم ياحمدان . الدم ينـادي الدم يا حمدان ..

وحمدان ليس في هذا الوارد ابداً .. انه لا يود ان يصدق كل الذي قالوه وصوروه له من ضروب الشجـاعة والبطولة التي تدخل في باب الثأر .

وهو وان كان فتى صغيراً لم يعد الثامنة عشرة من عمره ، يشعر بينه وبين نفسه بأن الجريمة لاتعالج بجريمة اخرى او بجريمة مماثلة . ذلك ما زرعه في نفسه منطق الاشياء التي هضمها بفطرته .

ومع مرور الايام، ازداد اعتقاده يقيناًبأنه منغير الجائز ان يحل «المشكلة» القديمة بمشكلة جديدة .. وبين الحين والحين ، كلما ثارت ثائرته ، يود ان يأخذ المسدس الصغير من امه المهتاجة ، وينهب من فوره الى ذلك الرجل الآمن، قاتل ابيه ، ويفرغ في رأسه وصدره الرصاصات الخمس لعله يرضي امزجة المشجعين المتحمسين من حوله ، ويضع حداً لحيرته وتساؤلاته الفائرة في داخله كالبركان ، وشيك الانفجار .

قالوا له .. ان اباه سقط يتخبط بدمائه الغزيرة امام دكانه، بسبب خلاف طارىء على صفقة تجارية بسيطة نشأ بينه وبين احد الباعة من جيرانه المنافسين . واصدرت محكمة الجنايات ، وقتئذ ، حكمها على القاتل بالسجن خمس سنوات مع الاشغال الشاقة ، بجناية القتل غير المتعمد ، ولأن ما حدث كان في تقدير واجتهاد هيئة المحكمة والمحلفين مجرد مشاجرة عادية تحدث بين مطلق اثنين كل يوم، بيد ان لكمة قوية من قبضة البائع الجار ، قضت على « ابي حمدان » فوراً ، بعد ان استقرت على صدغه الايمن فمات لساعته .

مرت السنوات الخمس في سرعة خاطفة بالنسبة لذوي القتيل وابناء عشيرته، وكانت سنوات مشحونة بالاسى والتفجع ، ونيران الغضب تشتعل في صدور الاهل والاقارب ، ويزيدها اشتعالا وضراماً حقد دفين يتوالد . كان « حمدان » هو الانسان الوحيد الذي يستطيع أن يختاره القدر لانزال حكم الموت في قاتل ابيه ،باعتباران « مجلس العائلة » قرر ومن أول جلسة طارئة عقدها، نفاذ شريعة الثأر القديمة . العين بالعين .. والسن بالسن .. والبادىء اظلم !

لكن حمدان ، في عنفوان اطلالته على الحياة المخضوضرة من حوله ، لم يقتنع ،أوانه لم يشأ ان يقتنع بوجاهة هذا العذر ، ولا بالحجة الواهية التي ساقها اليه مجلس العائلة الموقر ، طالما ان القانون قال كلمته والعدالة لفظت حكمها ، فما عاد من مبرر لأي « اجتهاد » جديد .

على ان الغليان من حوله لم تهدأ فورته اللاهبة ، من خمس سنوات الى الآن ، وعلى نفس الوتيرة ..

– هوذا قاتل ابيك خرج من السجن يا حمدان وعاد لمزاولة اعماله ، يسرح ويمرح على هواه .

– انت ابن أبيك الوحيد ، فمن يأخذ للمغدور حقه من غريمه سواك ؟

– يا حمدان . أليست فيك نخوة الشباب ولا شجاعة الاقدام ؟

– لو كان ابوك قد خلف بنتاً لكان ذلك افضل له بعد موتـه ، من ان يخلف وراءه جبانا رعديداً مثلك ..

ظل الدوي يملأ اذنيه ويهدر في نفسه كقصف الرعد .. ولطالما كان يهرب من وجوه هؤلاء الناعقين النادبين ليختلي بنفسه ،وليصم أذنيه بكلتا يديه .. الهدير .. لايفتأ يناديه .. وما ان يهدأ روعه قليلا حتى يبدأ مع نفسه في حوار مكرور قد اعتاده : انا لست جبانا . الحيـــاة عندي لا تساوي قشرة بصلة .. لماذا يتهمونني بالجبن ؟ هل يعقل ان أخاف السجن وانا اتعذب في كل يوم اكثر بكثير مما يتعذبه السجناء انفسهم ؟ انني انا أيضاً سجين هذه العادة القديمة البالية .. عادة الأخذ بالثأر . لم اذن وضعني والدي المرحوم في المدرسة ، وأنفق علي تعب العمر كله ؟ أليس من أجل ان يعلمني الحياة كما يجب ان تعاش؟ والقانون.. أليس القانون سيد الجميع وفوق الجميع لاسلطان لأحد عليه ؟ أليس القانون هو الذي

يقول كلمته في الخارجين على النظام ..؟ والثقافة ..؟ مامعنى انه يصنف نفسه شاباً مثقفاً إذن ؟ ألم يسجن قاتل أبيه خمس سنوات مع الاشغال الشاقة؟ ولو ان القضاء العادل إرتأى موجباً لاعدامه ألما كان أدانه وأعدمه جزاء جريمته ؟ أليس ماحدث كان مجرد صدفة ، مجرد مشاجرة عادية ، انتفت فيها قرينة القتل المتعمد كما قال محامو الدفاع واقتنع بوجاهة الحكم محامو الادعاء الشخصي والحق العام ايضاً ؟

كل هذه الأسئلة كانت تدور في رأس حمدان كالطاحونة .. وكان صراع داخلي في نفسه يحاوره ويناوره — اقتله .. لاتقتله .. اقتله .. لاتقتله !

وسرعان مايخرج حمدان الى الهواء الطلق يفتح له صدره ويعبه بنهم مستبد ومع قدوم كل مساء بعد ان تغيب الشمس في القرية الكبيرة الهاجعة وراء التلال السمر .. يغفو حمدان قلق النفس مجهداً ، وشفتاه تتمتمان — لا .. لن أقتله . لن أقتل انساناً عوقب على فعلته .. انساناً لم يكن قصده القتل ، حتى ولو كان هذا القتيل أبي !.

وفي الصباح ، يذهب الى ثانوية المدينة القريبة لاكمال تحصيله ، ويختلس النظر فيما هو جالس بين رفاقه الى كتاب اشتراه حديثاً ، وظهر اسمه من العنوان البارز على الغلاف « الجريمة والعقاب » ..

كانت عيناه الحائرتان الحزينتان ، تلتهمان هذه الأقوال الصغيرة المتلاحقة يختزنها في ذهنه المكدود —

— لماذا نخاف العقاب ولا نخاف الجريمة ؟

— أي جدوى في ان نحل مشكلة بمشكلة اخرى ؟

— مامعنى ان نغسل الدم بالدم ؟

ويهتف به اعماقه زاجرة .. استيقظ ياحمدان .. أفق من سباتك .. لاتستسلم للحيرة والتساؤل .

عش ودع غيرك يعيش ، أمر لا يكفي يا حمدان .. بل عش وساعد غيرك على ان يعيش ، هذا هو المطلوب من الانسان المثالي .

تلك الحكمة الذهبية اختزنها من نصائح اساتذته في المدرسة وتوجيهاتهم . ويشعر لو ان يداً خفية تريد ان تطبق على عنقه كالكماشة .. آه لو ان أباه يعود حياً للحظة واحدة فقط حتى يسأله .

ــ هل تريد ان انتقم لك من قاتلك يا أبي ؟

وينتهي الدرس . ويقرع جرس المدرسة إيذاناً بالانصراف ، ويخرج حمدان تائهاً مع رفاقه الى الأزقة الترابية الضيقة ويعاوده شيطانه بهذا الحوار من جديد .

اقتله .. لا تقتله .. اقتله .. لا تقتله ! بل يجب ان اقتله (يقولها لنفسه بجزم) هذا اذا كنت ابن أبي حقاً ، فـ (نواف) ابن جيراننا ليس أشجع مني ولا أوفى لأبيه مني عندما ذبح قاتل أبيه بالسكين من الوريد الى الوريد ، قالها حمدان بصوت مسموع وخشي من ان يكون قد سمعه أحد من رفاقه الذين يحيطونه دائماً بنظرات الاشفاق والعطف والفضول ، ثم دلف في أحد الأزقة الضيقة مهرولاً ، كأن أحداً يتبعه .

* * *

بدأ جسم حمدان ينحف . لم يعد يأكل كما يجب . فقد شهيته للطعام ، وبالتدريج فقد شهيته للحياة . كاد يفقد أعصابه . صورة قاتل أبيه التي يجهل معالمها تخطف نظراته في كتبه وكراريسه ، وفي حلمه ويقظته ، وفي ليله ونهاره . وأهله من حوله ما برحوا يحسونه لأخذ الثأر ومحو « العار » : أنت يا حمدان جبان .. من لنا سواك يأخذ بثأر العائلة من القاتل الذي عاد الى دكانه بجوار دكان أبيك المغلقة يتحدانا جميعاً ؟

اقتله ياحمدان .. لاترحمه فهو لم يرحمك ولم يرحمنا . خذ بثأرك وثأرنا منه . خلصنا من شره ، ودع أباك يرقد في ضريحه قرير العين ، ناعم البال مرتاحاً . مازال الدم المسفوك على الطريق يصرخ ياحمدان .. مازالت روح أبيك تحوم فوق رؤوسنا تطالب بالثأر .. الثأر .. الثأر .

تصبب العرق غزيراً من جبهة حمدان، وأحس بما يشبه الدوار وكاد يتهاوى على الأرض إعياء عندما دخلت عليه امه في غرفته وهي مسربلة بالسواد، وتجاهلت، كعادتها حالته النفسية السيئة ، وبدأت تثرثر على مسامعه معزوفة كل يوم، بل كل ساعة من ساعات الليل والنهار .

ياخيف على الشباب الذين مثلك ياحمدان . ليتني أنجبت بنتاً لكان ذلك أفضل منك الف مرة . ابوك يموت غدراً وانت تسكت عن الانتقام من قاتله ؟! انت جبان ياحمدان ، مافائدتنا منك ومن علمك مادمت لاتستطيع ان ترفع رؤوسنا بين الناس ؟ ياخسارة ما انفقه ابوك على تربيتك وتعليمك . لشد ما انت ولد عاق وضيع . وحمدان يجد لها تبريرات كافية . يحاول ان يمسك اعصابه . يحاول أن يقاطعها بكلمات متوسلة يائسة .

— ولكن ياأمي ارجوك ان تصغي الي . حاولي ان تفهميني .. انني .. وتقاطعه امه غير مبالية بتوسلاته ؟

— انك لن تكون ابني ولن اكون امك حتى تبدل ثيابي السوداء هذه بثياب بيضاء جديدة، ثياب الفرح بعد قتل المجرم واخذ الثأر . ويصيح حمدان وهو يجمع كتبه ودفاتره المبعثرة من حوله ..

— هي ان المجرم كان اقدر مني وقتلني انا الآخر ؟ ترد امه بهدوء غاقلة . اقتله من ظهره . اكمن له من خلفه . قال حمدان — ثم ان المجرم نال عقابه ،

والعدالة قالت كلمتها ، حاولي أن تفهمي ذلك يا امي . وتزجره امه — اسكت ياجبان . ليس لمثلك حديث القانون والعدالة . المجرم لما قتل أباك لم يكن يفهم عدالة او قانوناً . ان السنوات الخمس التي عوقب بها القاتل لم تشف غلتي ولم ترو ظمأي للثأر وظمأ اسرتك . هو لم يرحمنا حتى نرحمه . أنك لو قتلته ياحمدان فستكون عقوبتك طفيفة . سجن بضعة اشهر ليس اكثر اتدري لماذا؟ لانك اخذت بثأر ابيك . ثم تنتهي المسألة عند هذا الحد ونرفع رأسنا جميعاً بين الناس .. قل متى ياترى نرفع رأسنا بين الناس .. متى ؟

تساءل حمدان : طيب ، واذا ادانتني المحكمة بجرم القتل عمداً عن سابق تصور وتصميم كما يقول المحامي ،هل ستسرين عندما تشاهدينني معلقاً من رقبتي بالمشنقة ؟ اظن انك يوماً سوف تحتاجين الى كل الثياب السود في العالم .. وضحك بسخرية يخفي وراءها عصبته الظاهرة ، لكن امه اخرجت من جيب سترتها الداكنة مسدساً صغيراً جديداً ، وتمتمت بكلمات كأنها فحيح الافعى — خذ هذا المسدس . أشتراه لك خالك منذ ايام . يجب ان تترصد قاتل ابيك وتصرعه امام دكانك وامام الناس يتخبط بدمه مثلما صرع والدك المرحوم .. خذه وجربه من فورك .. خالك يقول ان استعماله سهل جداً . انظر .. يكفي ان تصوب المسدس هكذا الى ظهر القاتل او صدره ثم اضغط باصبعك هكذا على الزناد ، فتخرج الرصاصات دفعة واحدة وينتهي الأمر بلحظات .

وبيد مرتجفة تناول حمدان المسدس الصغير المحشو بالطلقات الخمس وتدافعت كلمات امه كالقذيفة وهي تمسح على شعره باناملها الناحلة :

— قو قلبك ياولدي . شد حيلك . وليكن الله معك . وحذار ان تطلع أي انسان على هذا الأمر كي لا يأخذ قاتل أبيك الحيطة لنفسه ، ويلجأ الى الشرطة

لحمايته . ظل حمدان صامتاً لايحير جواباً ، وقد أطرق برأسه الى الارض ساهماً شارداً كأن جبلاً من الهموم يجثم فوق كاهله ، وظلت يده ترتعش والمسدس يلمع ببريق مذهل مخيف .

في المساء كان حمدان امام دكان قاتل أبيه . كان اسم القاتل عباس . وفوجيء بأن عباساً ليس موجوداً . قال له صبي المحل — لقـــد ذهب الى البيت ليعتني بزوجته المريضة . تساءل حمدان — أهو متزوج اذن ؟

قال الصبي — وعنده ولد وحيد اسمه خالد . قال حمدان كم عمره ؟ قال الصبي — خمس سنوات . رزق به وهو في السجن . وتمتم حمدان بينه وبين نفسه وهو يتابع سيره — خمس سنوات ؟؟ وخمس رصاصات .. في عمر الجريمة . لابد انه رزق به يوم قتل أبي ، هنا امام الدكان المغلق ؟ كنت صغيراً عامذاك لاأفقه شيئاً . وهز رأسه فيما لحق به صوت الصبي يصيح — تعال . انني أناديك ياشب . قل لي من أنت حتى أخبر معلمي ، ولماذا سألتني كل هذه الأسئلة .. هل تريد منه شيئاً .. هل تريد أن أبلغه أي شيء ؟

واجابه حمدان بدون مبالاة — لاشيء يهم .. اذهب الى عملك . وقبل ان يستدير الصبي ، استدرك حمدان قائلاً — اسمع ياغلام . هل يبعد بيت معلمك عباس من هنا كثيراً ..؟ اجاب الصبي — انه في الحارة الثانية بعـد ان تقطع هذا الزقاق ، تجد ، على يدك اليمنى .. اول بيت بابه عريض ولونه اخضر . وتمتم حمدان — لونه اخضر ؟ تماماً بلون عيني حبيبتي يسرى . واسرع حمدان الخطى . سوف يذهب الى البيت من فوره . سيقرع الباب وسيخرج اليه عباس سيقول له ببساطة انت قتلت ابي ، ويجب ان اقتلك لأثأر له ، أمي تريد ذلك وافراد الاسرة اصدروا حكمهم عليك واختاروني انا .. ابن القتيل .. فخذها من يدي . عاد حمدان يتمثل « جريمته » قال لنفسه — امي معها حق . امي

تقول ان علي تنفيذ الحكم في القاتل لاني ابن القتيل ولكي انجو من العقاب الشديد بدافع من حمية الاخذ بالثار . سوف لن ادعه ينبس ببنت شفة ولن امكنه من الفرار . سأنقض عليه بكل قوتي واهشم رأسه بقبضة المسدس . سوف ابادر الى مسدسي فأفرغه في رأسه . . لا . . لا في صدره احسن واضمن : وتسمر فجأة هذا هو البيت عند المنعطف والباب العريض الاخضر مفتوح على مصراعيه . . لونه اخضر ؟ تماماً كلون عيني حبيبته يسرى : من يدري ربما لن يقدر لنا ان نتزوج . . ثم من يرغمها على الانتظار او الزواج . . قاتل ؟ هز رأسه غير مبال . ووقف قبالة الباب المفتوح يسترق البصر . برز امامه طفل صغير يلهو بدمية حلوة تكاد تشبهه ، واخذ يتفرس في وجه الصغير الذي راح بدوره ينظر الى الغريب الواقف في الباب ويبتسم . . حاول حمدان ان يعبس ويفتعل الصرامة الحادة . . انه ابن قاتل ابيه ، وعليه ان يكون قاسي القلب ، لا يرحم . عليه ان ينهي مهمة القتل فوراً ، فهو قد استعد وتمرن واصبح « جاهزاً » للتنفيذ . سأله الطفل ببراءة بدك بابا ياعمو ؟ قال حمدان — ما اسمك ياولد ؟

— اسمي خالد . تعال عندنا . قال الصغير هذا وهو يبتسم ويقترب منه . امسك الصغير بيد حمدان كأنه يعرفه من قبل . وحاول ادخاله عنوة الى البيت فيما راح الطفل ذو السنوات الخمس يزقزق كالعصفور — تعال ادخل معي ياعمو . بابا هون . الدكتور جوا . . انا بحب الدكتور . . ماما مريضة كثير . . انت عندك لعبة مثلي . . ؟ الدكتور بدو يشفيلي ماما ياعمو .

ووجد حمدان نفسه يحمل الصغير الثرثار بين يديه وراح يعابثه — انت بتحب بابا اكثر او ماما يا خالد ؟ وطفق الصغير يغمغم وهو يقضم قطعة حلوى صغيرة كان يلهو بها — انا بحب ماما وبابا . بحب بابا كثير ياعمو لاني ما شفتو من زمان . . ماما بحبها بس بابا كان مسافر . . ماما مريضة يا عمو . انت عندك امك ؟

انتفض حمدان . واصطدمت يد الطفل الصغير بطرف المسدس في جيب حمدان وصاح من الفرح — هذا فرد مش هيك يا عمو ؟ بابا جاب لي واحد صغير تعال شوفو . بابا كل يوم بيجبلي لعب حلوة كثير وهدايا . هذا « فرد » فلـ بن مش هيك ؟ عندي واحد مثله . هز حمدان رأسه موافقاً . اعاد الطفل الى مكانه على الارض وسأله الصغير — بس هذا الفرد كبير . هـذا لمين ؟ الك يا عمو .. او لابنك ؟ وتمتم حمدان — لأ ياخالد . هذا الفرد لابوك . انا ما عندي اولاد . هذا منشان « ابوك » . وضحك الصغير ببراءته واندفع نحو حمدان مهرولاً يحضن ركبتيه . ومرة اخرى حمله حمدان بين يديه وهم بطرق البـاب وهو يتحسس المسدس واذ برجل طويل القامة حزين القسمات نحيف البنية يخرج من غرفة مجاورة وهو ينادي بأعلى صوته — خالد اين انت ياخالد .. تعال هنا يا خالد . والتقى الاثنان . ساد الصمت لحظة . عباس وحمدان وجهاً لوجه وانفلت الصغير كض باتجاه ابيه — بابا بابا .. هذا عمو . وتحسس حمـدان المسدس ثانية في جيبه وارتعشت يده. تساءل عباس وقد وخط الشيب شعر رأسه — من انت يابني ؟ تفضل .. تفضل ادخل . هل استطيع ان اخدمك ؟ هل تبحث عن أحـد هنا ؟ هل .. قاطعه حمدان وهو يشيح بوجهه ويرتعش — انا حمدان ابن الذي قتلته من خمس سنين .. اتذكر ؟ وبسرعة إخرج حمدان المسدس وصوبه باتجاه عباس . مضت فترة ثقيلة . الرجل فاغر فمه دهشة وذهولاً . والطفل نفسهقد ماتت البسمة في وجهه واكفهرت قسماته .. وفجأة اختلجت عينا حمدان وراح يبكي بكاء حاداً مراً وهو يقول بكلمات متقطعة واهنة — ابنك يمنعني من قتلك .. اتسمع ايهـا الرجل ..؟ لقد جربت انا اليتم .. ابنك يمنعني من قتلك . عيناه البريئتان تتوسلان الي كي ابقيك له . هيا .. هيا اغرب عن وجهي . ابتعد عن طريقي ، ابتعـد ، ارجوك . سقط المسدس من يد حمـدان على الارض يغمره التراب ، وهرول حمدان راكضاً في الزقاق الضيق لايلوي على شيء ...

زهرة البنفسج

ياسين رفاعية

تحب الربيع ، لم تجد ما تحب سواه . لأنه ذات يوم قال لها :

انت حبيبتي

ودائماً كان زهر الربيع يحدثها انها جميلة

وعندما كانت تطل من نافذة بيتها على الحقول الممتدة كالبحر ، وتلمح ان الزهر قد كسا كل الاشجار ، تهبط الى الحقل القريب ، وتعانق جذع شجرة الدراق التي كان زهرها يظللها كخيمة محبوكة الجوانب

كل العصافير احبتها

ذات يوم وقف عصفور على غصن صغير ، فهزّ فوقها بضعة اوراق من زهر الدراق ، رفعت رأسها نحو العصفور بعينين دامعتين

زقزق العصفور وقال لها :

— انت جميلة يا منى ، جميلة كصفاء نجمة يغسلها الدمع باستمرار. ابتسمت بمرارة ، وهمست بصوت لم يسمعه مخلوق :

— لو يقول لي هذا الكلام رجل ما .

قفز العصفور ، فتساقط عليها ورق الزهر كندف الثلج ، كانت الحقول ناصعة البياض . وكان الربيع يزرع قلبه في كل شجرة طرية ، لكن صمتا حزينا — آنذاك — لف العالم من كل جوانبه .

— انت جميلة يا منى

اصوات مختلفـــة ، وكثيرة ، ترددت كالصدى تحت الشجر ، وفي الحشائش الخضراء .

— انت جميلة يا منى

سمعتها مرة من امها . امها الوحيدة التي قالت لها ذات يوم انك جميلة لكن ثمة مارداً اختطف نسغ الحياة فيها . فلم تعد تحرك اجفانها قط .

مرات عديدة ، تجولت على أرصفة شوارع المدينة ، لم تترنم اذنها بكلمة غزل يلقيها شاب عابر .

مرات عديدة كانت تذهب الى السينما ، حالمة بأن يراها البطل ذات يوم فيخطفها من أحضان أبيها على حصانه الاشهب . ويأخذها الى جزيرة بعيدة ألا يتساقط ثمر اطفالها .

وأحست ذات يوم ، ان المدينة وحش لا يرحم . وان ارصفتها جلادقاس لا يلين الا تحت اقدام الحسناوات . فقبعت في بيتها الذي يقع في اطراف المدينة حيث يطل على حقول لها مدى لا يحد .

كان عالمها يضمحل رويداً رويداً ، الى ان صار كقبضة اليد ، لايطل الا من النافذة .

وفجأة

مرة وحيدة ، في الصباح الباكر ، ايقظتها شمس دافئة ، فأطلت لتجد فارساً بعيداً ، يقفز فوق زهر الشجر ويلوح لها بمنديله .

اسرعت « منى » الى المرآة ، وخضبت وجهها بالاحمرار ، ورسمت بالكحل عينيها . وارتدت أجمل ملابسها ، وهبطت الى الحقول . كانت قد رأته للمرة الأخيرة يختبىء في زهر شجرة الدراق .

أمسكت بجذع الشجرة ونادت الفارس .

— تعال يافارسي

فضحك الزهر ، وشعرت منى بأن العالم كله أصبح سعيداً .

وامتدت يد الفارس من بين الزهر ، وداعب بأصابعه شعر منى المتجعد .

رفعت منى يدها لتمسك يده فمست شعرها الذي اصبح ناعم الملمس ، آنذاك ، أحست بفرح يفجر قلبها .

وشعرت بحركات كثيرة حولها

ووجدت نفسها بغتة ، في حلقة من الورد المتراقص .

اقترب الفارس منها ، فبحثت عن وجهه ، كان مقنعاً بأزهار لم تر مثلها في حياتها ...

وسمعت صوته كأحلى ماسمعت طوال عمرها

— تعالي يازوجتي

لم تصدق انها اصبحت عروساً ، وانتبهت اخيراً الى انها ترتدي ثوب عرس ابيض ، وعلى صدرها باقة من البنفسج .

فرحت « منى » ، ووضعت يدها في يـد الفارس ، ومضيا معاً بين الشجر المزهر .

كانت يد الفارس دافئة ، فانتشت منى ، وسرى الخدر في جسدها . .

وبالقرب من النهر الكبير ، قال لها الفارس همساً :

ــ منى ، ياحبيبتي أصبح بيتنا قريباً .

آنذاك ، أدركت منى ان العالم الذي عرفته من قبل ، لم يكن عالمها . .

والناس الذين عاشت معهم سني حياتها الثلاثين لم تكن لها علاقة بهم .

همس الفارس

ــ يا جميلتي . . كم ستسعدينني .

اخذت منى باقة البنفسج التي في صدرها وقدمتها للفارس وقالت :

ــ سأكون لك بكل حبي ، بكل الغربة التي عشتها . خذني الى البيت .

ضمها الفارس الى جنبه . نزع زهرة من ازهار البنفسج وشكلها في شعرها .

ثم انطلقا معاً ، فوق خضار الارض الندية .

في لحظة مـا ، وجدت نفسها في عالم جديد ، لذيذ ومفرح ، فراحت تغني .

* * *

في اليوم التالي ، اكتشف الناس جثة منى طافية على سطح النهر ، ولكنهم استغربوا انهـا كانت مرتدية ثوب عرس ، وفي طرف من شعرها زهرة بنفسج لم يروا مثلها في حياتهم ، وكانت رقرقة الماء تداعب اوراقها بحنان . .

كتاب المعرفة



عرض وتحليل : ميشيل كيلو

أصدرت وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي في القطر العربي السوري عام ١٩٦٧ كتابين حول «مناهضة الثورة في افريقيا» و «سوسيولوجيا افريقيا الحديثة» لعالم الاجتماع وأستاذ القانون السويسري «جان زجلر»، والكتابان هامان وضروريان لفهم التطور الاجتماعي والسياسي في قارة تكوّن بدون جدال مركز ثقل هام في العالم الثالث الذي نحن جزء منه. ان معرفة الأساليب والطرق التي تحارب بها الثورة الافريقية والتعرف على اخطاء القادة الثوريين في هذه القارة ضرورية لسببين :

١ – لأنها تُعرّفنا بصورة واقعية على تجارب غيرنا من الشعوب فنتعلم منها ماهو ايجابي ونتجنب أخطاءها.

٢ – لأنها تساعدنا على تطوير نظرية للثورة تقطع الطريق على كل نشاط مناهض للحركة الثورية وتؤمن لمجتمعات العالم الثالث خطاً تصاعدياً في تطورها، خاصة وان الانتكاسات التي أصيبت بها الحركات الثورية في السنوات الاخيرة أظهرت بصورة كافية الفقر النظري المذهل لهذه الثورات.

لقد اهتم «جان زجلر» بالظاهرتين الأساسيتين اللتين تميزان هذا العصر، أقصد الثورة ومناهضتها. ووصل عن طريق الدراسة الموضوعية للثورة الافريقية الى استنتاجات تغني معارفنا وتقدم لنا «كشف حساب» بأخطاء رفاق كفاحنا في القارة الافريقية. ان ماقام به «زجلر» لم يكن مجرد «وصف تقريري» لما حدث ويحدث يومياً، ولكنه أيضاً محاولة لتقييم النشاط الثوري والنشاط المناهض له تقييماً يساعدنا على تلافي الأخطاء ويعيننا على القاء الأضواء على الواقع من حولنا تجنباً لحفره ومنزلقاته.

* * *

ان مناهضة الثورة ليست أمراً طارئاً يصيب السياسة الاستعمارية بين الفينة والاخرى، بل هي من صلب هذه السياسة. ان الاستعمار في جوهره ليس سوى النشاط

السياسي والاجتماعي والعسكري والثقافي الذي يستهدف قطع الطريق على الثورة من جهة ومناهضتها ان وجدت من جهة أخرى . هذه الملاحظة تصلح بالنسبة للاستعمار القديم كما تصلح للاستعمار الجديد .

أن « زجلر » لم يُركز كل اهتمامه على الاستعمار كوضعية معينة للنظام الرأسمالي، فهذا معروف منذ زمن طويل، بل بذل جهداً كبيراً لدراسة وسائله وأدواته التي يستخدمها لتحقيق أهدافه . انه لم ينطلق من جوهر النظام الاستعماري ليتحدث عن أدواته ، بل انطلق من هذه الأخيرة ، ووصل الى الجوهر فكشف بذلك كل الآلية الكامنة في العلاقة بين شكل النظام الاستعماري ومحتواه . ان منهج بحثه يعتمد على الانطلاق من الجزء الى الكل ومن الشكل الى المحتوى . ولقد وفق في ذلك على الرغم من صعوبة الموضوع وتشابكه .

• • •

في معرض بحثه حول « مناهضة الثورة في افريقيا » يحدد المؤلف الاشكال التي أخذها النظام الاستعماري خلال فترة وجوده في الكونغو [1] ويعدد الأدوات التي استخدمها بعد الاستقلال لمناهضة الثورة . لقد أخذت صور الوجود الاستعماري الاشكال التالية :

١ – الشركات الرأسمالية .

٢ – الإدارة والجيش .

أما الأدوات التي استخدمت لقمع حركة الثورة الكونغولية فقد كانت بالاضافة الى الشركات الرأسمالية والجيش والادارة .

١ – النظام القبلي .

٢ – المرتزقة .

لقد عملت كل هذه القوى والادوات مجتمعة لاجهاض الثورة في بدايتها وافراغها من محتواها ، اما وسيلتها الى ذلك فكانت تشطير الدولة المركزية التي قامت بزعامة

(١) سنتحدث من الآن فصاعداً عن الكونغو كنموذج للسياسة الاستعمارية المناهضة للثورة .

لوممبا . لقد تمكنت هـذه القوى من الوصول الى اهدافها باستخدامها التناقضات والثنائيات التي خلقتهـــا ،وطورتها ضمن الكونغو زمن السيطرة الاستعمارية ، فكان هناك التناقض بين الجيش والحكم المـدني ، والتناقضات القبلية والحزبية الاقليمية ، والثنائية القائمة بين الاستقلال السياسي والسيطرة الاقتصادية لمجمـــل الشركات الرأسمالية .

من المنطقي ان وضعاً كهذا هو افضل وضع ممكن للثورة المناهضة . لقد كانت الدولة الكونغولية حقيقة دستورية اكثر منها حقيقة واقعية ، ومع ذلك فان الاستعمار لم يرد لها الحياة حتى كحقيقة دستورية ، بل عمل على نسفها بسحب البساط من تحت اقدام الحركة الثورية التي تطـالب بدولة مركزية قوية . إن الحركة الثورية الكونغولية بزعامة لوممبا لم تكن قد اصبحت خطراً مباشراً يتهدد الوجود الاقتصادي للشركات الرأسمالية في الكونغو ، ولكنها كانت تمثل «بذور» هذا الخطر ، ولهذا فقد خططت القوى المناهضة للثورة لنسفها .

لقد عددنا فيما سبق أربعة عناصر قلنا أنها هي التي نفذت الثورة المناهضة ، فهل كانت كلها على درجة واحدة من الأهمية ؟ كلا . ان الشركات الرأسمالية هي التي لعبت الدور الرئيسي ، اما التنفيذ فقد أوكل بطريقة أو بأخرى الى العناصر الثـلاثة الأخرى . ان الأرضية التي قامت عليها الثورة المناهضة كانت السيطرة المطلقة للشركات الرأسمالية على مقدرات هذا البلد التي كانت الشركات التالية تعمل فيه :

١ – اتحاد مناجم كاتنغا العليا . وتساهم فيه :

أ – شركة بلجيكا العامة .

ب – كانتنا كونسيشن ليمتد .

٢ – شركة جنوب افريقيا البريطانية .

٣ – شركة جنوب افريقيا الانغلو امريكية .

٤ – شركة روبير كونسيشن للمعادن .

٥ – الشركة الروديسية الانغلو امريكية (١)

ان مجرد تعداد هذه الشركات الاحتكارية الضخمة يعطينا فكرة عن ارتباطاتها المالية والاقتصادية الدولية وعن المصالح التي تقف وراءها . على سبيل المثال لا الحصر كانت مجموعة من البيوت المالية والشركات تساهم في اتحاد مناجم كاتنغا العليا مثل :

(١) مناهضة الثورة في افريقيا : ص ٣٢

١ – شركة امتيازات تنجانيقا المحدودة (٤,٥ ١ ٪) .
٢ – لجنة كاتنغا الخاصة (٢٥,١ ٪)
٣ – شركة كاتنغا (١,٥ ٪)
٤ – الشركة العامة البلجيكية (٤,٥ ٪) (١)

أما نسبة الـ ٤٥,٦ ٪ المتبقية فكانت تملكها أربع مجموعات مالية هامة يأتي على رأسها بنك اوبنهيمر وروتشيلد وغيرهما من البنوك التي تلعب دوراً هاماً وحاسماً في افريقيا الواقعة تحت سيطرة البيض .

لفهم مناهضة الثورة لابد من ذكر حقيقتين أخريين تلقيان مزيداً من الضوء على وضع الكونغو . الحقيقة الاولى هي ان هذه الشركات كانت تعتبر افريقيا الواقعة جنوب خط الاستواء « كتلة تتميز بدرجة عالية من التكامل الاقتصادي تكوّن كاتنغا جزءاً هاماً منها »[٢] .

والحقيقة الثانية هي سيطرة الأقليات البيضاء على مقدرات افريقيا الواقعة « جنوب خط الاستواء » . ان الروديسيتين وجنوب افريقيا وانغولا وموزامبيق البرتغاليتين تقع كلها تحت سيطرة أقلياتها البيضاء (وان يكن الوضع الدستوري مختلفاً فيما بينها) . هذه البلدان تكوّن برهانا ساطعاً على صحة الرأي القائل ان النظام الرأسمالي في المستعمرات لايمكن الا ان يكون نظاماً فاشياً ، ذلك لأن البيض الذين يحكمون هذه البلدان يؤمنون ايماناً عميقاً بتفوق « الرجل الابيض » على كل من عداه . وقد طوروا من أجل توطيد هذا التفوق مجموعة من القوانين بنوا عليها سيطرتهم السياسية والاجتماعية هي قوانين « الفصل القومي » المعروفة باسم قوانين « التمييز العنصري » التي تقوم بدورها على مركب هجين من الداروينية الاجتماعية والفلسفة النرائعية (البرجماتية) والتفسيرات الخاطئة للمسيحية (لايوجد شيء في الانجيل يحرم سياسة التمييز العنصري !) . ان ايديولوجيا البيض في البلدان المذكورة ليست سوى مواصلة للايديولوجية الفاشية كما عرفتها أوروبا زمن الحكم النازي ، ولكنها مع ذلك

(١) مناهضة الثورة في افريقيا : ص ٧٣
(٢) « « « « : ص ٣١

تحظى بكل دعم من الاوساط الرأسمالية العـالمية باعتبارها « الشكل الافريقي للديمقراطية » . لقد كان البيض ولا يزالون يعتبرون كونغو مز فأضعف ضمانة لاستمرار سيطرتهم . ولهذا تضافرت جهودهم مع جهود الشركات الرأسمالية في مناهضة الثورة الكونغولية .

* * *

الانفصال... وسيلة مناهضة الثورة :

لم تكن عملية انفصال كاتنغا بنت يومها ولم تقم بها قوة سياسية واحدة ، بل عملت مجموعة من القوى الداخلية والخارجية على التحضير لها منذ عام ١٩٥٨ .

أما القوى الداخلية فكانت تتمثل في منظمات البيض وقبائل جنوب ووسط كاتنغا والادارة والجيش والشركات الرأسمالية ، وعلى رأسها اتحاد مناجم كاتنغا العليا ، باعتباره المؤسسة التي تمثل مجموعة من الشركات التي يسيطر باسمها على كاتنغا ويقرر مصيرها .

١ – منظمات البيض :

يوازي عدد البيض في كاتنغا عددهم في روديسيا الجنوبية اذ يبلغ حوالي (٣٤٠٠٠) يعيش معظمهم بطريقة او بأخرى من عملهم في اتحاد مناجم كاتنغا . انهم ليسوا كغالبية زملائهم في روديسيا الجنوبية او جنوب افريقيا معمرين يرتبطون بالارض ، بل مهندسين ومشرفين وعمالاً مختصين في الصناعة . ولذا فهم يخضعون كلية لرغبات رجال الصناعة ، لقد كان هؤلاء البيض يشكلون عشية انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٦٠ في بروكسل ، وهو المؤتمر الذي بت في مشكلة استقلال الكونغو ، منظمة اسمها « الاتحاد الكاتنغي » ، اما برنامجها فكان مشابها للسياسات التي ينهجها البيض في المناطق الافريقية التي يسيطرون عليها ، فطالبت « بالتمييز العنصري في المؤسسات العامة ، وعارضت قبول الافريقيين في التعليم العالي ، وأيدت توطين الاوروبيين على نطاق واسع » (١) ، كما كانت المنظمة تعمل على إغراء دهاقنة الجيش البلجيكي للمجيء الى كاتنغا والعسكرة في مراكز البلاد الهامة .

لقد عملت هذه المنظمة الكثير لتحضير الانفصال بين عـامي ١٩٥٨ – ١٩٦٠ وحاولت سنة ١٩٥٩ اقامة « دولة مسيحية بيضاء » (٢) في كاتنغا تقيم اتحاداً فيدرالياً

---

(١) ص : ٤٥ .
(٢) ص : ٤٨ .

مع حكومة البيض في روديسيا الشمالية التي كان يتزعمها آنئذاك روي ولنسكي ، ولكن « المتنفذين » (هكذا وصف ولنسكي مديري اتحاد مناجم كاتنغا) رفضوا ذلك ، فاضطر زعيم « الاتحاد الكاتنغي » الى تبديل خطته القائمة على انفراد البيض بفصل كاتنغا عن الكونغو ، وقرر العمل ضمن المنظمات الافريقية القائمة لتحقيق هدفه .

٢ ـ قبائل كاتنغا :

حتى عام ١٩٥٧ لم تكن في كاتنغا حياة سياسية بالمعنى المألوف للكلمة . لقد اجرت الحكومة البلجيكية في هذا العام (١٩٥٧) انتخاب مجالس بلدية كانت اول انتخابات شعبية في تاريخ المستعمرة ، وعلى الرغم من ان هذه الانتخابات لم تكن هامة لأنها لم تمنح العمد الافريقيين ممارسة سلطة فعلية ، الا ان نتائجها النفسية كانت هامة ، ذلك لأنها اظهرت التماسك والوحدة التي ميزت قبائل البالوبا القاطنة في الجزء الشمالي من الاقليم والتي تمتاز بذكائها ومهارتها . لقد اظهرت هذه الانتخابات التي فازت فيها قبائل البالوبا (على الرغم من انها لاتكون سوى ٤٠٪ من السكان) مدى التخلف الذي تعيش فيه القبائل الاخرى (بشكل خاص اللوندا والباكيس) وكانت الدافع الى تجمعها في « اتحاد منظمات القبائل في كاتنغا » ، هذا الاتحاد الذي سمي « كوناكات » وتزعمه موريس تشومبي . لقد أدى هذا التجمع القبلي الى تجمع مماثل قامت به قبائل البالوبا تحت اسم « بالوباكات » .

* * *

من المعروف ان الاستعمار لم يفعل شيئاً لتغيير البنية الاجتماعية في القارة الافريقية ، لقد حاول باستمرار تركيز النظام القبلي كبديل لمجتمع قائم على الانتشار الطبقي ، فعملت القوى الاستعمارية على اعاقة التوزيع الاجتماعي الافقي ورسخت التوزيع الشاقولي الطبقي وقطعت بذلك الطريق على نشوء حركة قومية ذات محتوى اجتماعي واضح . ان تكوين « الكوناكات » و « البالوباكات » وغيرها من اتحادات القبائل الاقليمية كان حجر الاساس الذي اعتمدت عليه القوى الاستعمارية في نشاطها المناهض للثورة ، كما كان الخطوة الاولى على طريق الانفصال الذي وطدته الانتخابات المحلية التي جرت عام ١٩٥٩ وانتصر فيها اتحاد « الكوناكات » وتشومبي . لقد فعلت بلجيكا كل مابوسعها لتمكين تشومبي من الفوز فأصدرت قبل الانتخابات قانوناً جديداً « للهيئات القبلية » يحق بموجبه للقبائل والعشائر ان تجعل نفسها احزاباً سياسية وان تتقدم بقائمة مرشحيها .

في هذه الظروف قرر « الاتحاد الكاتنغي» (وهو كما ذكرنا منظمة البيض الذين يسيطرون على الادارة والجيش البالغ تعدادهما ١٠٠٠٠ شخص) الانضمام الى تجمع قبائل تشومبي ابن المليونير الافريقي الوحيد في الكونغو .

عام ١٩٦٠ جرت انتخابات اخرى هدفها انتخاب الجمعيات التشريعية في الولايات والبرلمان القومي قبل موعد الاستقلال ففاز فيها « الكوناكات » ثانية بأغلبية المقاعد ، على الرغم من أنه نال ١٠٤٨٧١ صوتاً مقابل ١١٠٠٩١ صوتاً حصل عليها حزب « البالوباكات » . ان اغلبية الكاتنغيين لم تكن مع تشومبي ولكنه كسب الانتخابات ! لقد قسمت الادارة الاستعمارية الوحدات الانتخابية بطريقة تضمن نجاح « الكوناكات » فقاطع اتحاد « البالوباكات » جمعية الولاية ريثما يبت في أمر الطعن الذي قدمه ضد الكيفية التي جرت بها الانتخابات . لقد كانت لهذه المقاطعة نتائج عملية على الوضع السياسي في الولاية فالقانون الاساسي الذي اصدره البلجيكيون وحددوا به العمل البرلماني والحكومي ينص على وجوب حضور ثلثي الاعضاء جلسات المجلس التشريعي والا فان الجلسات تعتبر غير قانونية ، وبما ان « البالوباكات » كان يسيطر على ٢٢ مقعداً من اصل ٦٠ فقد اصبح تكوين حكومة الأقليم امراً مستحيلاً . هنا حدث التدخل البلجيكي الثاني فعدّل القانون الاساسي وتكونت حكومة تشومبي . لقد كان هذا التعديل الشارة الخضراء التي فتحت طريق الانفصال امام الحكومة الاقليمية وفي هذه النقطة تكمن اهميته .

لماذا لم يحدث الانفصال فوراً ؟ لأن لاتحاد مناجم كاتنغا استثمارات تقدر بـ ٨٠٠ مليون دولار في دولة الكونغو المركزية التي كان يترأس لومومبا حكومتها لقد خشيت الشركة اجراءات الحكومة المركزية الانتقامية التي كانت ستصيب اعمالها بالشلل التام ، خاصة وان كل

حادراتها تمر عبر الدولة المركزية . لقد استطاع اتحاد المناجم في هذه الفترة المناورة بذكاء، فكان من جهة يملك الورقة التي يضغط بها على الحكومة المركزية ، أي ورقة الانفصال ، ومن جهة ثانية يمنع تشومبي من اعلان الانفصال رسمياً . لقد كان الاتحاد ينتظر الفرصة التي تكون فيها الدولة المركزية عاجزة تماماً عن اتخاذ أي اجراء بحقه ، وقد سنحت له هذه الفرصة عندما تمرد جيش الحكومة على ضباطه البلجيكيين أولا ، ثم عليها نفسها فيما بعد ، مما أدى الى تدخل البلجيكيين العسكري واحتلال البلاد ثانية . لقد انهت الحكومة المركزية قبل أن تبدأ عملها ، فأصبح بامكان كل واجـد ان يتصرف وفق مصالحه وهواه فأعلن تشومبي انفصال الاقليم عن الكونغو في ٢١ تموز ١٩٦٠ وعلل ذلك بحرصه على انقاذ البلاد « من الخطة القائمة على حد تعبيره على الفوضى وتصديع السلطة ، وهي ما يستخدمه دائماً المهيمنون على الحزب الشيوعي » (١) . لقد كان انعدام سلطة الحكومة المركزية والفوضى الشاملة فرصة اتحاد كاتنغا التي لا تقدر بثمن .

* * *

تحدث « زجلر » مطولاً عن الفوضى الخارجية والداخلية المناهضة للثورة في الكونغو ، هذا البلد الذي يتمتع بأهمية خاصة للاسباب التالية :

١ – عالمية المصالح الرأسمالية المسيطرة عليه ، هذه العالمية التي تميز النظام الامبريالي عن النظام الاستعماري القديم .

٢ – موقعه الجغرافي والعسكري والاقتصادي الذي يؤهله لأن يكون ميداناً نموذجياً للصراع بين قوى الثورة والثورة المناهضة . لقد كان نزاع الكونغو نزاعاً عالمياً اشتركت فيه كل قوى العالم التقدمية (الحركات القومية والاشتراكية والمعادية للاستعمار) كما اشتركت فيه كل قوى الثورة المناهضة (الشركات الاحتكارية ، الاقليات العنصرية ، الدول الاستعمارية ، الرجعية الداخلية الانفصالية . . . الخ) وكان فضلا عن ذلك مقياساً لتوزيع نسبة كل هذه القوى .

٣ – لأن تركيبه الاجتماعي القبلي لا يزال نموذجياً بالنسبة لأفريقيا كلها .

٤ – لأن حركته الثورية انطلقت ، كما في

(١) مناهضة الثورة في افريقيا ص ٥٧

غالب البلدان الافريقية، من الصفر وتعرضت بصورة مبكرة للثورة المناهضة .

* * *

في كتابه الآخر « سوسيولوجيا افريقيا الحديثة » يُركز « زجلر » اهتمامه على آلية الثورة نفسها ، على القوى التي قادتها وايديولوجيتها ووضعها الطبقي ودورها التاريخي . ان علينا انطلاقاً من الفكرة القائلة ان الثورة ومناهضتها ليستا سوى وجهين متلازمين للعملية الاجتماعية التاريخية ، ان نتساءل عن ماهية الثورة الافريقية ، عن الطبقات التي قادتها والمجتمعات التي قامت فيها ، كما علينا ان نسأل ما اذا كانت هذه الثورة متشابهة مع الثورات التي عرفتها المجتمعات الأوروبية الطبقية .

ان العامل الذي يميز المجتمعات الافريقية هو ضعف توزيعها الطبقي وترسخ وثبات نظامها القبلي . لقد ترتبت على هذا الوضع حقائق سياسية واجتماعية هامة ، اولها صعوبة قيام حركة قومية ذات محتوى اجتماعي تقدمي ، وصعوبة اقامة دولة مركزية . في الكونغو وغانا (١) وصلت مع لومومبا ونكروما الى الحكم قوى ثورية آمنت ايماناً عميقاً بالسلطة المركزية ودورها التقدمي القومي والاشتراكي ، ولكن الواقع الاجتماعي كان اقوى من الافكار ، لأن التقسيم القبلي للمجتمع أعاق نمو أية حركة شاملة « فوق » قبلية . واذا كان هنالك في اتحادات القبائل من دعم الدولة المركزية باعتبارها عنصراً هاماً في التحرر من الاستعمار (وهذا كان شذوذ القاعدة) ، فان القسم الآخر من افكار القوى الثورية ، أي نهجها الاشتراكي ، قد افزع هذه القوى القبلية المؤيدة لأنه كان يعني ، حال تطبيقه ، القضاء على نفوذها من أي شكل كان . لقد ابتدأت القوى الثورية مسيرتها في طريق مسدود . فبل كان يجب على القوى الثورية انتظار « نضج » الظروف الاجتماعية ، أي

(١) وهما النموذجان اللذان يستخدمها المؤلف لدراسة « سوسيولوجيا افريقيا الحديثة » .

انتظار قيام مجتمع موزع طبقيا قبل القيام بالثورة ، ام كان يجب عليها تطوير نظرية خاصة في الثورة تكون اقوى من الظروف التي وجب عليها العمل في اطارها مع مايعنيه ذلك من خلق تنظيم جماهيري قادر على العمل السياسي ؟

لايمكننا الاجابة عن هذا السؤال بالنسبة للكونغو ، لأن الثورة فيه قد أجهضت قبل بدايتها . أما في غانا فقد قامت الثورة في وقت كان الاستعمار القديم لايزال يسيطر على مقدرات افريقيا . لقد كان الاستقلال السياسي يعني آنئذ الكثير بالنسبة لقضية التحرر الوطني والاجتماعي ، ولهذا استطاعت القوى الثورية التي وصلت الى السلطة مع نكروما أن تكسب من الوقت مايكفيها للاشراف على عملية التمايز الطبقي في المجتمع الغاني ، واستطاعت أن تخلق كذلك حركة قومية « فوق » قبلية . ولكن لاهذا ولا ذاك استطاعا أن ينقذا الثورة من التفسخ وفي النهاية الانهيار . لقد ابتدأت الثورة الغانية بالسيطرة المطلقة على الحياة العامة وماتت بمرض زوال سلطتها .

اذا فترضنا أن التركيب الاجتماعي كان عاملاً ثانوياً وان النظرية الثورية هي العامل الأساسي ، توجب علينا أن نتعرف على ماهية النظرية التي طورتها القوى الثورية لدفع المجتمع الى الأمام .

يقول لوكاش « ان استعداد أية طبقة للسيطرة يعني أنه من الممكن بدءاً من مصالحها كطبقة ، ومن وعيها كطبقة ، أن تنظم المجتمع بكامله وفق مصالحها » (١) فهل كانت القوى الثورية الكونغولية والغانية تنتمي الى طبقة معينة او الى تحالف مجموعة من الطبقات **الواعية** التي تملك إيديولوجية واضحة حول تنظيم المجتمع بكامله وفق مصالحها ؟ إن جان زجلر يجيب على ذلك بدراسة مطولة حول مفهوم الطبقة في العلم الماركسي ، ويخلص الى أن هذا العلم يقدم مفتاح دراسة الاوضاع في افريقيا (بما فيها اوضاع الفئات القائدة) ، ولكنه يؤكد كذلك أننا نقف هنا أمام ظاهرة جديدة نوعياً . فالذين قاموا بالثورة لم يكونوا

---

(١) سوسيولوجيا افريقيا الحديثة : ص ٢١٧ .

طبقة (بالمفهوم الماركسي) ولم يكونوا كذلك شيئاً عرضياً ، بل وضعاً اصيلاً انتجته كل المجتمعات الافريقية اللاحقة تقريباً . انهم لم يكونوا طبقة لأنهم لم يملكوا مصالح طبقية اجتماعية ، بل فردية ، ولم يكن لهم وعي طبقي خاص يميزهم عن وعي غيرهم من الطبقات ، لأن هذه ليست موجودة بعد ؛ كما لم تكن لديهم ايديولوجية تنصب على « تنظيم المجتمع وفق مصالحهم كطبقة » . ان القوى الثورية لم تكن اكثر من « مشاريع طبقات » ، أما ثورتها على النظام الاجتماعي والسياسي فقد كانت نتيجة للاضطهاد الاستعماري الذي عانته هي بشكل خاص بحكم احتكاكها المنظم مع مجتمعات البيض والسيطرة الاستعمارية ، ولكن الاضطهاد الذي لا يرتبط بطبقة تملك نظرية محددة يتبناها تنظيم واضح الطبقية يؤدي الى الانتفاضات ولا يستطيع أن يقوم بالثورة (أي أن يغير علاقات الانتاج القائمة). ان شرط النظرية الثورية هو الحزب الثوري ، الطبقة الثورية ، وهذا بالضبط ما افتقدته القوى الثورية ، لقد كانت « مشاريع طبقات » ؛ ولهذا كانت نظرياتها الاجتماعية « مشاريع نظريات ثورية » . لقد وهمت القوى الثورية نفسها والعالم من حولها من خلال افكار طوباوية حاولت فرضها على مجتمع ليس قادراً على تقبلها . هكذا فرض نكروما على المجتمع الغاني سياسة ستالين في الثلاثينيات ، رغم انه كان يكتب بروح لينين في العشرينيات . لقد كان اول من اصيب بأضرار الطوباوية النظرية هي القوى الثورية نفسها ، هذه القوى التي سرعان ما تفسخت وانعزلت عن الجماهير وفقدت مالها من زخم اجتماعي لتتحول السلطة في النهاية الى ديكتاتورية فردية قادت الى المزيد من افلاس الافكار الطوباوية التي لم يجرؤ انسان على الشك بصحتها مطلقاً . لقد انتهت الفئة القائدة الى النقطة التي ابتدأت منها « كتلة غير محددة متماسكة واعية لذاتها مدافعة بفعلها المشترك عن المصالح الخاصة لكل واحد من اعضائها تستغل وضعها الافضل التي هي فيه لكي تستغل الجماهير او تقمعها » (١) . لقد اعطت الجماهير الفئات القائدة تأييدها وولاءها في البدء ، ولكنها سرعان ما انفضت عنها . هكذا سقط نكروما بدون ضجة وذهب لومومبا دون مقاومة جدية من انصاره .

وفي رأي زجلر أن الثورة الإفريقية لم تقم بعد ، لأنه لازالت تنقصها النظرية الثورية الإفريقية ، والتنظيم الطبقي الواضح والإرادة والاساليب الثورية الملائمة . لقد كانت تجربة الكونغو وغانا نكسة للثورة الإفريقية ، إفرازاً ثورياً مؤقتاً كان من

(١) سوسيولوجيا افريقيا الحديثة : ص ٢١٧ .

الصعب ، بل المستحيل ، أن يكتب له النجاح لأنه أفرغ الثورة الإفريقية من محتواها في المرحلة الفاصلة بين خروج الاستعمار القديم وعودة الاستعمار الجديد . لقد سهلت هذه القوى نكسة المجتمع وان كانت قد كافحت ضدها بكل مالديها من قوة .

* * *

أهم مايلفت الانتباه في كتابي زجار ، هو دراسته للثورة الافريقية بروح العطف عليها وتأييدها ، والرغبة في أن تكون ثورة حقيقية وأصيلة . ولكن زجار عالم اجتماعي ايضاً ، عليه ان يكشف بموضوعية ونزاهة عن نقاط الضعف في ثورة افريقيا وعن اخطائها ، ليكن ابناء افريقيا انفسهم على علم بها . وقد فعل زجار ذلك بروح الباحث الشريف من جهة ، وبروح المؤمن بنجاح الثورة الافريقية في المستقبل ، من جهة اخرى ، ثم ان المفاهيم الجديدة التي استخلصها الكاتب من طبيعة هذه الثورة ودورها والعوامل التي تأثرت بها جديرة بأن يتأمل بها ويفكر فيها كل مسؤول ومثقف في بلاد العالم الثالث .

رواية

«الأمير الصغير»

قصيدة في الطفولة

تحليل: بيير هنري سيمون
ترجمة: عصام صبري

الأمير الصغير Le Petit Prince قصة ذات شهرة عالمية . وهي اكثر ماقرىء وترجم وبيع من مؤلفات سانت اكزوبري A. de Saint - Exupéry. وهي بالظاهر اسهل هذه المؤلفات وابسطها اذ قد عرضت في شكل قصة شعرية وفي هيئة كتاب للاطفال، الا انها في الواقع [اشدها غموضاً إن لم تكن اعمقها واحفلها وازخرها فحوى. وما اظنها تفهم تماما الا اذا وضعت موضعها في اطار مؤلفاته أو في مراحل تكامل هذه المؤلفات التي لوحظ بحق أن أجزاءها متماسكة . ولكن لم يشر النقاد دائما الى ان تلك المؤلفات ذات وحدة

جدلية حقا ، أي ذات وحدة تنمو وتتكامل فتتولد فيها الاضداد التي تتجاوز ذاتها الى نسق أسمى .

ذلك اننا لو اقتصرنا على اعتبار المؤلف كاتبا نذر نفسه لحرفـــة محفوفة بالمخاطر هي حرفة الطيران كما نذر نفسه لأعمال البطولة فيها (عـــلى الشكل الذي ينظر اليه فيه مواطنوه الفرنسيون فيرون فيه الكاتب والطيار البطل في حياته وفي مؤلفاته بل في مماته ايضا) ، لبدت لنا رواية الأمير الصغير انشودة في الكآبة والحنان وفي الدفاع عن القلب المحب ، وهي عندئذ تكون عثرة قدم وضلالا ولحظة شك واعياء في إبان تسنم النفس ذرى الحكمة القوية الناضجة ، ولكنها على عكس ذلك لم تكن الا جني خمس عشرة سنة انقضت في التأمل وفي سعي الفكر الى حبوره وفي اقتراب الفن من كمال اداتـــه .
ولن يتهيأ هـــذا الاعتبار الاخير الا بالقاء نظرة شاملة على ما كتبه عبقري في مراحل متتابعة ابرزما يمتاز به خاصية الحيوية واعني بذلك وحدة القصد من خلال تنوع الحركات.

لقد بدأ كاتبنا اول الامر بروايته البطولية (الطيران الليلي) . وبدايته هذه تشبه الى حد بداية الكاتب الفرنسي المعاصر (مالرو) .
نلمس عند كل منهما في اصل انطلاقة الفكر والميل للكتابـــة شعورا هيراقليطيا ، ينوه بسرعة زوال الحياة ، وباخلاقيـــة الانسان ، وبالارادة التي تتخطى الموت كبرياء منتصرة وفخاراً بنّاء . وقد سحر « جيد » بنداء العزيمة هذا لا « جيد » الشاعر الابيقوري كما يلوح في كتابه « الأغذية الأرضية » ، ولكن « جيد » الورع كما يظهر في « بروميثه » ، وهو الذي كان يقلق الانسان اكثر تعلقا وولوعا منه بالانسان نفسه .

فلقد كتب « جيد » يقول : « أحسب ان ما أعجبني في هذه القصة المؤثرة انما هـــو نبلها ، أما الوان ضعف الانسان واشكال استخذائه وسقوطـــه فاننا نعرفها حق المعرفة ، والادب في ايامنا هذه قد برع كل البراعة في تصويرها . بيد ان تجاوز النفس هذا الذي تدركه الارادة المشدودة المصممة ، هو ما نحن بحاجة الى من يظهره لنا » .

ثم عالج المؤلف في كتابه « أرض البشر » المشكلات الانسانية ذاتها ، ولكن في جرس آخر . وهو يرى فيه ان حلول تلك المشكلات ينبغي ان تلتمس في جوانب الانسانيـــة المتدينة لا في البطولة التي كان قد تغنى بها في كتابـــه الآنف « الطيران الليلي » على غرار نيتشه . فالطيار الذي يجابه الموت وهو يجتاز جبال الآند والصحارى الافريقية ، ليس البطل الذي يبني بشجاعته صرح مجده وحسب ، بل هو أخ الناس : يخدمهم بعمله ويشاركهم في الآيات والمخاطر معا . لقد القيه بدوي في مهامه الصحراء وقـــد تعطلت طائرته وتلامح له شبح الموت ، فأنقذه البدوي من غائلة الردى اذ سقاه من ماء كان معـــه ، وعندئذ يحيد

الكاتب الطيار ، في ذلك البدوي ، القريب والصديق والانسان . قال له : «انت الانسان، انت الأخ الحبيب. ولسوف اتوسم ملامحك بين الناس جميعاً.. لقد لحت لي محوفاً بالنبل والفضل، اصدقائي واعدائي كلهم يسعون من خلالك الي . فليس لي بعد الآن من عدو على وجه الارض» .

تلك سطور شاعت بين الناس ورددوها ألوف المرات ولكن اقل مما شاعت ورددت السطور التي سآتي على ذكرها والتي تلخص في رأيي الجو الروحي الذي في رواية «ارض البشر» ، وهي تبرز مرحلة في الطريق الصاعدة التي ستؤدي فيا بعد الى رواية «الامير الصغير» ، فلقد كتب يقول :

«تمثل أمام عيني دائماً صورة أول ليلة طرت فيها فوق الارجنتين . كانت ليلة مدلهمة لا تتلألأ فيها الا اضواء نادرة منتثرة في السهول كأنها النجوم . وكل ضوء كان يدل في خضم الظلمات ذاك على عجائب الضمير الانساني . في ذلك المسكن ساهر يقرأ او يفكر او سامر يبث نجواه . وفي ذلك البيت الآخر عالم يتأمل الفضاء ويمعن في حساباته على سديم برج «المرأة المسلسلة» . وفي ذلك البيت الثالث أحباب وعشاق . وكانت تتلامح بين الفينة والفينة اضواء في الارياف تتفاوت سطوعاً وخفوتاً بينها ضوء الشاعر وضوء المعلم وضوء النجار . ولكن كم الى جانب تلك النجوم المؤتلقة الحية من نوافذ موصدة ومن نجوم خابية ومن أناس رقود ! ما اجمل أن تنضم ألت اليم ! ما اجمل أن تسعى للاتصال بطائفة من تلك الاضواء التي تلمع في الحين بعد الحين من خلال الريف» .

ان هذه صورة من اجمل صور عالم الانسان عند المؤلف . انها صورة ليلية لأن صاحبها عاش حزيناً . ولكن الليل تتخلله الانوار ذلك أن المتشائم قد فسح مجالاً للامل . وتلك الاضواء هي ضمائر حية مستيقظة . فما هي اذن رسالة الكاتب؟ ما رسالة رجل الفكر ؟ ان رسالته اولاً ان يوقظ الضمائر الاخرى الهاجعة ، لكي تتوقد اضواء جديدة من خلال الظلمات، ثم أن ينشيء بين تلك الشرارات خطوطاً مضيئة بحيث لا يبقى ثمة في النهاية الا نور ساطع يهزم البؤس والبغضاء . المؤلف هنا يتخطى مستوى التصوف المحض الذي يتحصل للمرء بالجهد المنفرد في سبيل الوصول الى اتحاد روحي .

ثم يصير اتجاه الكاتب الى الحكمة النظرية التأملية أشد منه الى الحكمة العملية وذلك في مؤلفيه «قبطان الحرب» و «رسالة الى أسير» وقد كتبهما ابان الحرب الاخيرة . وينساب اذ ذاك الى مفردات معجمه تعبيرات يكثر من استعمالها ، وهي تعبيرات سوف تصبح مفاتيح الاجزاء الاخيرة من مؤلفاته تجلو غامضها، لا سيما مؤلفه «الامير الصغير» . وأنوه من بينها بلفظين هما : «المدى» و «الحضور» .

فكرتا «المدى» و«الحضور» :

المدى عند المؤلف بالنسبة للمكان كالمدة (او الديمومة) بالنسبة للزمان . ان الزمان الرياضي هو زمان الساعات الذي تساوي فيه الدقيقة دقيقة واحدة وتساوي ستون دقيقة ساعة تامة . ولكن وراء هذا الزمان توجد المدة او الديمومة ، وهي ارتسام الزمان على الشعور . وفي هذه المدة لاتكون اللحظات متساوية في شدة الحياة ولا في الاشراق النفسي ، كما اشاد بذلك الكاتب المشهور « بروست » والامر على هذا النحو في المكان . فهنالك المكان الذي هو العالم الموضوعي من حولنا وهو القابل للقياس . ثم هنالك المدى الذي هو ارتسام المكان على الشعور . ان مداي هو مجموع نقاط المكان وجملتها التي تمسني وتعنيني. فهي ما أهتم به ، وهي ما أعرفه ، وهي ما أحبه . فاذا فقدت الاهتمام وكنت بلا رغاب وبدون حب ، فان ازخر الامكنة بالنفائس وأجمل المدن وأعذب الجزائر لتغدو جميعها في عيني صحراء مملة مخيفة . على حين لو كنت في اشد المهامه وحشة وكانت تتملكني ذكرى بيت ينتظرني في وطني وطيف حب عامر فؤادي ، وعرفت كيف أصغي لصمت الكون وما يحويه من أسرار وما ينبض به من وعود « لأقبلت حينئذ قوى إلهية خفية تلتقي وتبني لي شبكة من المسالك ، ولزال التماثل بين الاشياء ، ولطفق كل شيء يتجه نحو نقطة معينة تكون له قطباً ، وبهذا يعمر المكان وتصبح كل النجوم نجوماً هادية وتستوي النفس على عرش مداها . تلك فكرة بسيطة جداً ، وربما كانت عميقة ايضاً . ان مدانا هو جزء العالم الذي ينعكس في شعورنا . وهو يغتني بقدر ماننشأ روابط وعلاقات بيننا وبين العالم . وكلما تقدمنا خطوة في طريق الحب او انشأنا آصرة جديدة بيننا وبين موضوع أو كائن حي ازداد مدانا غنى. ولكن المعرفة هي شرط الحب وبهذا المعنى ليست الثقافة الا قصداً ووسيلة لتوسعة مدانا ولانشاء اواصر من المعرفة بيننا وبين العالم تهيء روابط الحب . وان ذروة الحكمة لهي ايضاً ارادة وفن معاً تعملان في توسعة المدى وتنظيمه . نرى هنا كيف تلتقي فكرة المدى التقاء طبيعياً بفكرة « الحضور » . وهي فكرة اخرى عزيزة على المؤلف . ان احتشاد الجماهير مثلا ليس بالنسبة لنا إلا حضوراً كثيفاً ثقيلاً ، اذ ليس بينها محبّاً لاحد من الناس تتعرفه ابصارنا وقلوبنا . والامر على هذه الشاكلة في الاشياء التي تحيط بنا . فهي مادامت مجرد اشياء لاتعنينا فانها موجودة في المكان وخارجة عنا دون ان تدخل في حيز مدانا . ولذلك فهي ليست حاضرة بالنسبة لنا وكأنها ليست موجودة . وعلى خلاف ذلك الكائنات والاشياء التي نحبها فهي تفرض وجودها علينا وتوقظ وجودنا وتستلزمه . بيد أننا في اغلب الاحيان لسنا بالنسبة

لذواتنا اشد حضوراً منا للكائنات وللاشياء، اذ كان يستغرقنا عيش آلي على وتيرة واحدة وتسري في عروقنا برودة اللامبالاة او تطوينا الاثرة على نفوسنا ، وان اللحظات الرائعة في حياتنا الداخلية اي اللحظات الشعرية حقاً والروحية هي تلك التي نصل فيها الى عاطفة الحضور . لقد فهم المؤلف ذلك بالعمق الذي فهمه (بروست) واشاد به في كل مؤلفاته لاسيا تلك التي كتبها بعد عام ١٩٤٠ . وهذا الحضور اذا كان موضوعه نفساً بشرية، لا شيئاً من الأشياء ، أعربت عنه على الاغلب إشراقة ابتسامة . ذلك ان الابتسامة اشارة نقدمها إلى من نكترث به ولو كنا لا نعرفه، في اللحظة التي نبسم له فيها نلمح فيه الشخص الانساني، فاذا اجاب هو بابتسامة فذلك يعني انه وجد الشخص الانساني فينا .

وهكذا انساق المؤلف في كتابه « قبطان الحرب » الى طرح مسألة تختلف تماماً عن تلك التي كانت تساور ابطاله ذوي النشاط والحركة والاضطراب في كتابيه « طيران الليل » و « أرض البشر »، ألا وهي ماذا نساوي لو كنا رهن السكون . وليس المراد هنا ان نعرف قيمه عمل الانسان الشجاع بل هو ان نعرف ماقيمة ذلك الانسان منفكاً عن العمل. واليك الجواب : «في العابد الذي يصلي يمثل حضور ممتلىء، فهذا الانسان اقرب مايكون انساناً حين يكون ساجداً ساكناً . ويتمثل حضور ممتلىء في العالم الذي يحكي (باستور) حين يحبس انفاسه وراء مجهره فهو اقرب مايكون انساناً حين يقوم بملاحظته العلمية . انه اذ ذاك يرتقي ويغذ السير ويتقدم بخطى عملاق مع انه ساكن . انه يكتشف (المدى) وكذلك المصور (سيزان) يقف ساكناً اخرس امام الصورة التي يرسمها وهو اذ ذاك في حضور يبلغ منتهى العظمة . هو اقرب مايكون انساناً حين يصمت ويشعر ويحكم فتغدو لوحته امام عينيه عندئذ اوسع من البحر» . هذه هي الوجوه الثلاثة السامية لحياة الشعور : العابد الذي يصلي رمز الحياة الصوفية . وباستور الذي يلاحظ رمز النشاط العلمي ، وسيزان امام لوحته رمز الابداع الفني . وفي هذه الحالات جميعها يعظم الانسان لأنه يتوصل الى عالم كله حضور ، ولأنه يوسع وينشط مداه . لقد تجاوزنا هنا ميدان فلسفة العمل الى ميدان فلسفة التأمل . وليس معنى ذلك ان قيم الميدان الاول قد تعطلت، او يمكن ان تتعطل في حين من الاحيان ، وانما تصبح تابعة لقيم اخرى . اصبح العابد والعالم والفنان متفوقين هنا على رجل العمل الصرف ، على رجل المغامرات اي البطل . وفي هذه النقطة بالذات يبرز التوازي بين مؤلفنا هذا وبين الكتب الفرنسي الآخر الحديث (مالرو) الذي مر تقريباً بتلك المراحل نفسها. تتجاوز الاشادة بالتأمل الاشادة بالبطولة في سلسلة كتبه .

هذه النظرة المجملة هي التي تشق الطريق

بدقة الى كتاب المؤلف « الامير الصغير » وهي التي تضيء أغمض دلالاته .

رواية الامير الصغير :

لقد ساقت صروف الحرب الاخيرة مؤلفنا الى نيويورك عام ١٩٤٢ حين احتل النازيون موطنه فرنسة ، إذ كان هو في جيش المقاومة المسلح . وغدت الاواصر التي تشده الى وطنه النائي الذليل طيوفاً من الذكرى والتفكير والحنين والكآبة جميعاً . وكان يعتلج بين جوانحه نزوع الى الانطلاق من واقعه الاليم فعمد الى الخيال ، وكتب هذه القصيدة واختار أن يروي فيها قصة ليس لها مساس ظاهر بالحوادث التي كان يتألم منها ، ولكنه نفث فيها إيمانه وشجونه وآماله رموزاً تتوقد في أعماق نفسه . ومما يسترعي الانتباه ان هذا الشعر صيغ في قالب رواية للاطفال وحجب ... معناها الظاهري . بيد ان هذا الصوغ امر ذو شأن لايقدر عليه الا رجل كانت له طفولة يجد فيها ملاذاً عفوياً كما لو كانت وطناً سرّياً له . ونحن نعلم من وثائق حياته ومما نشر من كتاباته الشخصية الخاصة ومن مذكراته ورسائله ان المؤلف كان من اولئك الاشخاص الفنانين الذين حافظوا على الاتصال الدائم بطفولتهم كأنها المعين الغضير الثر الذي يسقي ويغذي شخصياتهم . كتب يقول : « الطفولة تلك الارض الواسعة التي درج منها كل انسان . من اين انا ؟ أنا من طفولتي كما لو كانت وطني »

وهو الذي كتب من قبل في « أرض البشر » « سور حديقتنا يضم من الاسرار اكثر مما يضم سور الصين » . وهكذا يلوح عنده في وقت مبكر ميل لاثارة الذكريات الحلوة كما في رواية « مولن الكبير » للقصصي (ألان فورنيه) وتلمع نقاوة الاحلام في صباح العمر كما تلمع عند هذا الكاتب الآخر . وقد يمس الحديث فيما كتب نساء هن في أغلب الاحيان صبايا يشابهن « ايفون دي غالي » بطلة تلك الرواية لكونهن محاطات مثلها بهالات من النور الشاعري العذب الذي تخفق له قلوب الشباب والفتيان . واذن فان الحكاية التي يشرع بكتابتها لتكون ملاذاً لأساه تصبح اكثر من قصة للاطفال ، تصبح قصيدة في الطفولة .

وربما يعرف بعض الناس امر هذه الرسالة الصغيرة التي لاتكاد تبلغ مئة صفحة . إنها كتبت على دفتر مدرسي وفي هوامشها رسوم ساذجة خطها المؤلف بيده . وقد حمل هذا الدفتر الى ناشر في نيويورك فكانت منه رواية « الامير الصغير » التي نشرت عام ١٩٤٣ بالولايات المتحدة حيث كان نجاحها سريعاً خاطفاً . ولما ان تحررت فرنسة عام ١٩٤٥ لقيت الرواية نصراً مؤزراً متتابعاً . ولم تكد تمضي خمس عشرة سنة حتى ترجمت الرواية الى اكثر اللغات تقريباً وقرأها الناس في ملايين النسخ(١) . وكان هذا النجاح مذهلا لان

(١) نقلها الى العربية يوسف غصوب في سلسلة « أعلام الأدب المعاصر » .

موضوع الكتاب ملتبس يصعب تصنيفه فهو ذو مقاصد غامضة لا يمكن ادراكها بسهولة على الرغم من شفوفه .

فقد بدت هذه القصة باطارها وخواطرها وتتابع مغامراتها العجيبة والمبسطة معاً تثير خيال الطفولة . وكأنها قصة ينبغي ان توضع الى جانب قصص (بيرو) و (ديكنز) و (اندرسن) ، لقد ظهر الامير الصغير في قلب الصحراء فجأة . هبط من كوكبه الضئيل بعد ان طاف في عدة كواكب ثم تجاوزها ، يسكن في احد تلك الكواكب التي زارها ملك لا رعية له ، ويسكن في الثاني سكير مدمن ، ويسكن في الثالث رجل يشعل المصابيح ، وهلم جراً الى ان يلتقي الطفل الهابط في الصحراء بالطيار التي تعطلت طائرته . انه طفل يتصرف تصرف الامراء ، فهو يأمر الافاعي فتطيعه ، وهو يتخذ ثعلباً صديقاً له ، وهو لا تناله مسغبة ولا ظمأ ولا خوف . اجل انه بطل وأي بطل لقصة اطفال . فثمة جانب ظاهري صبياني في تلك القصة . والقارىء الصغير لها يحفظ منها قشرتها الفضية الساطعة الالوان كما يدرك ضياءها الشاعري وسحرها الخيالي المستحيل . ولكنها في الباطن اشد اشتباكا مما تبدو في الظاهر .

وحقا يلزم ان نلاحظ ان المؤلف قد عكس مسلمات هذا اللون الادبي . فقد درجت قصة الاطفال على ان تكون رواية لتاريخ الكبار تكتب خصيصاً للصغار ، ذلك ان الطفل مشوق بطبيعته لمعرفة عالم الرجال . ولكنه يتصور هذا العالم بمنطقه هو وهو منطق بالخيال الصق منه بالعقل ، يقبل المحسوس المدهش ويطلبه . فعلى الروائي اذن ان يبني للطفل الصغير عالماً يعمره بالرجال ويجعل بينهم الملوك والوزراء والامراء ، ثم يضيف اليهم العمالقة والاغوال . وكم من كائن فيه ينتسب الى نوع استحال فجأة الى كائن من نوع آخر . وتكون العواطف التي توحي بها الافعال بصورة عامة من طيب وخبث وحب على حال مبسطة يظن انها تناسب شعور الطفل عندما يتصور مشاعر الكبار . فقصة الاطفال عند الكتاب المدرسيين هي اذن قصة كبار معدلة على نحو يلائم خيال الاطفال . بيد ان قصة الامير الصغير على خلاف ذلك هي قصة اطفال كتبت للاشخاص الكبار . اعلن المؤلف ذلك بكلمات لا لبس فيها ولا غموض عندما اهدى الكتاب الى صديقه (ليون ويرث) فقال :

« استميح الاطفال عفواً حين اهدي كتابي هذا الى شخص كبير . ولي عذر صادق وهو ان ذلك الشخص هو اعز صديق لي في العالم . ولي عذر آخر وهو ان ذلك الشخص يستطيع ان يفهم كل شيء حتى كتب الاطفال . ولي عذر ثالث وهو ان ذلك الشخص يسكن الآن فرنسة ويقاسي الجوع والبرد فهو بحاجة لما

بواسيه . فاذا لم تكن اعذاري هذه كافية فاني اهدي الكتاب الى الطفل الذي كان هذا الشخص الكبير اياه في الماضي ، لأن كل الاشخاص الكبار كانوا ذات يوم اطفالا (ولكن قليلا منهم يذكر ذلك) .

مكانة الطفولة في الادب الحديث :

ان الهدف الاساسي الذي قصد اليه المؤلف حين كتب روايته هو ان يضع كتابا للكبار الذين نسوا انهم كانوا اطفالاً لكي يوقظ ماهو غاف في اعماق قلوبهم . وهو بكتابه هذا لا يستجيب لنزوة في طبيعته الخاصة وحسب ، وانما يمشي في ركاب تيار عام بليغ معاصر في الفكر والاحساس ، وهو تيار تعرب عنه جوانب متعددة في الادب الحديث ، وهو في الواقع ظفر للطفولة لا للطفل وحسب ، اذ ينبغي التمييز بدقة بين المعنيين . فنحن نعلم ان المفكرين المدرسيين القدماء الذين بوؤوا قيم الفكر والعقل المرتبة الاولى قلما احبوا الاطفال ، او انهم لم يحسنوا فهمهم ، وعلى كل حال لم يتحدثوا عنهم الا قليلا ، وكان شعار الكثيرين من اولئك الكتاب ما قاله القديس اغسطين « منذا الذي لا يتراجع ذعراً ولا يستحب الموت اذا خير ان يموت او ان يعود طفلا» . اذ من الطبيعي ان يخيف نمط التفكير والسلوك لدى الطفولة المفكرين الذين يجعلون كمال المرء في العقل والثقافة . هؤلاء المفكرون الى تذوق نضارة النفوس لدى الاطفال أقل ميلاً منهم الى استنكار ضعف احكامهم

أليس بعجيب امر (لافونتين) وهو الذي خص الاطفال بقصصه حين يبدو قليل الحب لهم ، اذ يقول : « ذلك عمر لايرحم » . انه برأيه جفاة وقساة لا رحماء ولا لطافاً . وثمة ظاهرة اخرى معبرة . وهي ان المصورين المدرسيين اذا صوروا الاطفال صوروهم غالباً لابسين لباس الرجال الكبار ، ماعدا يسوع الطفل والملائكة الصغار اذ يصورون عراة ، حتى جاء المذهب الابداعي الذي طمح الى اعلاء شأن الخيال والاحساس ، فطفق ينظر الى الطفل نظرة محبة . ولقد اورد روسو في اعترافاته بعض ذكرياته الصافية والكدرة في سنوات صباه الغض . وسار شاتوبريان على غراره . بيد ان القرن العشرين على وجه الخصوص عرف طائفة من الكتاب اتجهوا نحو ماضي طفولتهم بحنين يخفي وراءه فلسفة ما . منهم (لوتي) ومنهم الكاتبة (كوليت) ولكن اهمهم في ذلك (بروست) . مع بروست نشهد نضج فلسفة لا تجعل الطفولة مرحلة عمر في الحياة وانما تجنح الى اعتبارها حالا نفسية ونمطاً معيناً للوجود واسلوبا محدداً لادراك الواقع ولانشاء الاواصر والعلاقات بين الطفل والعالم وبين الطفل والآخرين . ونمط الوجود والادراك هذا يبدو الآن ذا مزايا بالنسبة لنمط الوجود والادراك عند الكبار ، والشاعر والفنان هما وحدهما القادران على ان يجدا في سن النضج هذا النوع من الرقة وهذه الموهبة من الاشراق وغير ذلك من الصفات التي تلازم فجر الحياة

ولا يكون الفنان فناناً ولا الشاعر شاعراً الا اذا استطاع كل منها ان يجد نبرة الصوت أو حيلة الشكل لكي يعرب بها عن مشاعر الطفولة العفوية .

والنصوص التي تؤيد هذا الاعتبار لاتكاد تحصى . هذا نص منها اول الامر يكاد يكون قديمـا بعض الشيء اذ كتبه ((جيراردي نرفال)) وهو من اصحاب العبقريات التنبؤية . لقد كتب هذا الشاعر حوالي عام ١٨٤٥ في قصة رحلته الى الشرق يقول « ان العالم الذي ينتظم في اذهان الاطفال لهو عالم غني جدا وبهي حقا حتى لتعجب هل هو حصيلة نشاط لأفكار مكتسبة أم هو تذكر لوجود سابق وتشوف لعالم سحرية في كوكب مجهول ؟ » ما كان أجدر كاتب قصة (الامير الصغير) بأن يطلع على هذه الفقرة : إذن لكان جعلهـا في صدر روايته تلك . وها هو ذا (موریاك) يقول في الموضوع نفسه : « هذا الكتاب الذي يبدأ على الدوام والى الابد وتؤوب اليه كل كتبي ، وهذا الموج الذي هو ذاته دائما لاينفي يولد مرة جديدة ويصعد من خضم نفسي الباطن ليأتي فيتكسر على الصخرة ذاتها ، إن هما الا حب وتقديس للطفولة واليفع ، وكلف بشيء ينسل هاربا على الدوام ويتـأبى على كل مثال » .

وهـا هو (جوليان غرين) يقول: « الاطفال في الشوارع ! بأي طرف وضيء العالم ! وأي شيء يتلامح في هذه الكائنات الضعيفة ! لكأنهم يخطرون بين جدران من البلور تحفظهم من كل تماس مع انسانيتنا ! ليتهم لم تشهد المتصوفة الملائكة في ملامح الولدان » .

اما (برنانوس) فقد ذهب الى ابعد حد في تمجيد الطفولة سواء في قصصه وفي بحوثه . وكم من مرة اعترف فيها انه انما كتب كتبه لكي يبرر نفسه ازاء الولد الذي كان اياه . ولقد كتب هذه الفقرة التي تنم عن الجانب الوضيء في عالمه الخيالي : « انبثت التجربة لي في وقت جد متأخر أن الناس لايمكن أن تقتسم عمالها بل على العكس لا تقتسم الا عما بقي فيها من جوانب بكر صافية ، بما علق بها من آثار الطفولة ولو لزم التنقيب عن ذلك في الاعماق » . وكتب لفتاة برازيلية صغيرة طلبت اليه ان يكتب لها مايعن له : « كوني وفية للطفولة وإياك ان تصبحي فتاة كبيرة ، فالكبار يتآمرون على الطفولة . وحسبك ان تقرئي الانجيل لكي تدركي ذلك . لقد قال الرب الطيب لرجال الدين والمشرعين والكتاب والمؤرخين والقصصيين جميعا : تشبهوا بالاطفال . واخذ رجال الدين والمشرعون والمؤرخون والقصصيون والكتاب يرددون قرونا بعد قرون للطفولة المخذولة : تشبهي بنا » .

ليس ايراد هـذه النصوص من باب الاستطراد . إذ إنهـا تؤلف السياق الذي ينبغي ان يوضع كتاب « الامير الصغير »

فيه : فهذا الكتاب ليس محاولة لجعل عالم الكبار قريب المنال من خيال الاطفال بل هو من وجهة اعمق محاولة رجل بلغ ذروة حياته جابه الصعاب وخاض الظلمات وبرح به الشك والاسى . ولقد حاولها لكي يجد في نفسه الطفل الذي كان اياه فيستجير به عسى أن يسوّغ كيانه ويواسي آلامه .

وعي الطفولة واسرارها :

لنتذكر كيف كان المدخل الى القصة . توقف المؤلف بسبب خلل طرأ على طائرته في الصحراء وراء آلاف الاميال من العالم المأهول . ولم يكن معه من الماء الا مايكفيه ثمانية ايام . واذا بالامير الصغير يفد عليه ويطلب إليه أن يرسم له خروفا . ونحن نعلم من كتابه « ارض البشر » ان الطيار قد عرف خطر التعطل والخلل في الصحراء وندرك وقد احاطت به صور الموت القريب في ذلك المنأى كيف تلامح له من غور ذاكرته العميق خيال صباه متجسما في ذلك الصبي الصغير كالشعاع المتألق باجمل ذكريات ماضيه السحيق . اما في عام ١٩٤٣ فقد كان عطشه يبرح به في صحراء اخرى مزدحمة بالناس ولكنها ترزح تحت عبء اللامبالاة . بدا له وجوده في أمريكة كأنه منفى حيث كان ينوء بهموم فرنسة وطنه البعيد المغلوب على أمره . يضاف الى ذلك ايضاً سبق الشعور اليه بموته القريب . فمن الطبيعي إذن أن يفد الامير الصغير الى شاطىء الدموع بابتسامته وبطيفه الوضيء المواسي .

ذلك هو القاع النفسي لتلك القصة التي التي هي كالقصيدة الشعرية في فكاهة خيالها الروائي ومسحتها المحببة الكئيبة معا وجَرْسها المدروس في نثر ساذج بمفرداته بسيط بايقاعه ، حيث يبدو من خلاله جوهر اسرار الفن في ايحاء الشعور بصفاء القلب وطيب الطوية .

اننا لانسأم من ايراد هذه الجمل التي تتردد فيها موسيقى لطيفة وكأنها من انغام موزارت الرشيقة ، « واها لك ياأميري الصغير لقد فهمتُ على هذا الطراز حياتك الصغيرة الكئيبة . لم يكن لك فيها من لهو الا حلاوة غروب الشمس . علمت ذلك الامر الجديد في صباح رابع يوم حين قلت لي : كم احب الشمس ! هيا بنا نشهد غروب الشمس . قلت لك : تلبث علينا ان ننتظر . وسألتني : ننتظر ماذا ؟ قلت : ننتظر الى ان تجنح الشمس للغروب . فبدت عليك امارات الدهشة اذ ذاك . ثم ضحكت من نفسك وقلت لي : حسبتُني لاازال في موطني ... هنالك ذات يوم شهدت الشمس تغرب ثلاثا واربعين مرة . ثم اردفت قائلا : هل تدري كم نحب الغروب حين تبلغ الكآبة منا مبلغها ؟ قلت : كنتَ اذن كئيبا الى ذلك الحد يوم رأيت الشمس تغرب ثلاثا واربعين مرة . ولكن الامير لم يحر جوابا . »

ينبغي ان يكون الانسان قد قطع شوطا بعيدا في دروب الفن لكي يتسنى له كمال

الاداء البسيط . وهذا النص يضعنا دفعة واحدة أمام مشكلة ، أو اذا شئت امام سر نفسي خفي . يحكي لنا المؤلف في روايته قصة صبي صغير رزين ، موفي اغلب أوقاته حزين . بيد أن ماهو معروف ومتناقل عن تاريخ المؤلف وصباه لايتفق مع تلك الظلال الواجمة الكئيبة . لقد كان ولدا بدينا لايميل الى العزلة ، بل كثيرا ما كان يلعب مع اخوته واخواته وابناء عومته وبناتهم . ومن جهة اخرى لم يكن طفلا نابها ولا تلميذا لامعا ، وكانت درجاته في حدود الوسط بصورة عامة في اللغــة الفرنسية ، وكان اسلوبه في الكتابة لايعجب اساتذته ، وعلى كل حال ماكان في صباه يشبه ذلك الأمير الصبي الشاعر صاحب الروح الرقيقــة الشفافة المرتعشة التي يعصف بها الحنين . فما سر ذلك التفاوت ؟ لقد جرى للمؤلف ماجرى لغيره من الكتاب الذين يكتبون عن طفولتهم وصبـاهم فيضفون صفات غامضة على الموضوع الذي يعالج العودة الى نبع الحياة.

ان الكتب الذي يرجع الى الطفل الغر الذي كان اياه فيا مضى يرجع اليه وهو في سن النضج . ومعنى ذلك انه يرى صورة نفسه تلك من خلال انعكاس مشاعره الراهنة الحاضرة. فن الصعب بل من العسير ان يجد هذه الصورة على بساطتها الاصلية. وعندئذ يجوز أن نسأل عن حزن الامير الصغير، أليس هو حزن ذلك الرجل وهو في سن الاربعين يعيش في واقع قاس مؤلم مضفياً ظلال زوال النهـار على الصباح الذي تخللته بهجة الاشراق ؟ نظن ذلك سر التفاوت . وربما كان ثمة أمر آخر . ذلك ان الناس الذين شهدوا طفولة ولد من الاولاد يحكمون عليه في الغالب حكماً سطحياً، ينظرون الى ظاهره فيرونه يلعب ويضطرب ولكنهم لا ينفذون الى سريرته التي قد تنطوي على مشاعر خفية باطنة لا يصل اليها النظر اذا لم يضئه الحدس الذي يشحذه الحنان والمحبة.

أليس في سريرة كل منا طيوف ذكريات دفينة لاتفارقنا عن تلك الجروح الاولى التي كتمناها قديماً ولم نبح بها لاحد ؟ الطفولة هي سن فورة الفرح العارم الحي . ولكن الفرح فيها مقرون بأمر آخر وهو انها تطالع اذ ذاك قسوة العالم الخارجي وتشعر بضعفها وعضاضتها . نعم ! لاشيء أصفى من صورة الطفل ، ولاشيء انقى من حب الطفل! ولكن ربما لن يكون ايضاً شيء اشجى من شجى الطفل !.

لقد كان الامير الصغير يائساً حقاً بشجر البوباب الذي كان يتهدده بنسف جزيرته كل ليلة . وكان حزيناً من وردته الشائكة التي كانت مغناجا تؤذي بطيشها . لقد اوحشته عزلته حين كان في كوكبه . فلما جاء الى الأرض ازداد شعوره بالوحشة والعزلة . كان وحيداً في كوكبه فلما جاء الى ارض البشر عمقت وحدته . يالعزلته تلك حيث لا انسان معه ! ويالعزلته التي هي أشد وهو بين البشر على الارض ! يجوز اذن أن نفكر أن المؤلف قد

ألقى على الأمير الصغير طيوف ذكرياته المريرة التي تتردد في شغاف قلبه. وموضوع الوحدة هذا، وربما كان ضنى الطفل قبل أن يكون عذاب الرجل.

إن الجانب النفسي والشعري من القصة هو أول ما يتلامح لنا. بيد أنه لا يبوح بكل شيء من القصة ولا يستنفد كل فحواها. فهذا النثر الشعري في فرح الطفولة وأساها يتلألأ كانداء الدموع، وإذا نظر اليه من ناحية اخرى بدا قصة فلسفية مترعة بالدعابة والحكمة. قصة الامير الصغير لاتروي رجعة الانسان الى نفسه حين كان في سن الطفولة وحسب، بل هي نظرة قاسية يلقيها الطفل الى عالم الكبار.

نقد عالم الكبار:

في هذا الكتاب إتهام يوجهه الطفل الى الاشخاص الكبار والى ذوي الجد والوقار. يلوح الطفل في نظر الكبار غير عاقل حين يرسم قبعة جلواز ثم يزعم انها افعى كبيرة التهمت فيلاً، ويلوح اكثر جهلا اذ اعتقد انه وضع الحروف في العلبة حين يرسم علبة حول صورة الحروف. ولكن الامر على خلاف ذلك في نظر الاطفال. عالم الكبار هو العالم المخالف للصواب. وذلك ان ابصار الاطفال أشد سطوعاً وحدة يدركون بها الامور الجوهرية التي تمتنع على الاذهان المنهكة المنهكة وعلى الافكار المصطنعة. وهذا هو ما يبرزه المؤلف في زيارة الكواكب الستة.

أول هذه الكواكب يقطنه ملك لا رعية له ولا سلطان، ولكنه مع ذلك يزدهي بكونه ملكاً. والكوكب الثاني يسكن فيه مختال فخور صلف يشعر بانه سعيد جداً حين يحسب أنه أجمل رجل في هذا الكوكب الذي لا يعيش فيه غيره، وفي الكوكب الثالث سكير مدمن يشرب لكي ينسى خزيه من انه سكير، والكوكب الرابع يسكنه رجل اعمال يعد النجوم ويضعها في المصرف ويكتب على جزازات من الورق عدد النجوم التي يملكها. والخامس كان فيه رجل يضيء المصابيح يشعلها ويطفئها ثم يشعلها ويطفئها دون ان يدرك لذلك سبباً اذ هي اوامر يتلقاها. وفي الكوكب السادس جغرافي جامعي بكل معنى الكلمة، لم يتح له ان يزور ارجاء كوكبه لشدة انشغاله بدراسة جغرافية كوكبه. وتتردد في ثنايا السرد هذه الجملة الساخرة الموجزة: «عجباً ما اغرب الاشخاص الكبار!». فمن الواضح هنا اننا لسنا ازاء شعر في الطفولة يمس القلوب كما نجد ذلك عند الروائيين بروست وألان فورنيه. ولكننا ازاء اتجاه مغاير تماماً، ازاء قصة فلسفية تثير من بعيد ذكرى سخرية فولتير. هذا النهج الذي اشتهر وبلغ الاوج في القرن الثامن عشر هو ان يتخيل كاتب من الكتاب شخصاً ما، كأن يكون ساذجاً أو اجنبياً أو غير متمدن ينظر في المدنية التي نعيش بين ظهرانيها فيدرك من خلال نظرته البكر ما فيها من منافاة ومن شذوذ. اوليس هذا ايضاً نهج كاتبنا الروائي في اجزاء كتابه (الامير الصغير) حين ينتقد

عالم أصحاب الجد والوقار وعالم العجولين عاشقي السرعة وعالم المتفلسفين المدعين، أي عالمنا الحديث الذي يفسد تقدم الآلتو-منجهية المدنية فيه طبيعة الانسان بدلا من ان يرفعاه ويحققا مواهبه ؟ هذا التنديد يتفق مع تنديد كتاب آخرين أمثال ديوهاميل وبرنانوس. أولسنا نرى الشبه العميق بين الشخص المكلف باشعال المصابيح وبين شارلي شابلن الذي تحول في احد افلامه إلى آلة متسارعة ؟أولسنا نذكر الحوار الذي دار بين الامير الصغير وعامل السكة الحديدية الذي يفتح الطرق للقطارات ويوجهها . «قال الامير الصغير «عم صباحاً» . فأجاب العامل: عم صباحاً. قال الامير: ماذا تصنع هنا ؟ قال العامل: اوزع المسافرين على علب . كل علبة تحوي الف مسافر، ثم أرسل القاطرات التي تقلهم تارة نحو اليمين وتارة نحو الشمال . وطفق قطار سريع يبعث النور من جوانبه يقصف كالرعد وهز حجرة الرجل . فيسأل الامير : انهم بغاية السرعة . عم يبحثون ؟ فأجاب العامل : السائق نفسه يجهل ذلك . وقصف قطار سريع مضيء آخر باتجاه عكسي فسأل الأمير الصغير . ما أسرع ان عادوا . أجاب الرجل : لم يعودوا هم انفسهم . لقد تم تبادل . سأل الأمير : ألم يكونوا اذن راضين حيث كانوا، أجاب الرجل : لاأحد يكون راضياً حيث يقيم . وقصف صوت قطار سريع مضيء آخر . قال الأمير : أم يلحقون بالمسافرين الاولين؟ فأجاب الرجل : كلا هؤلاء لايعتزم اللحاق، بعضهم يغط في النوم في مركباتهم وآخرون يتثاءبون . الاولاد وحدهم هم الذين يلصقون انوفهم بزجاج النوافذ . قال الامير : بالاولاد ! انهم يعرفون عم يبحثون، فهم يصرفون اوقاتهم في صنع دمىً من القماش تغدو ذوات مكانة لديهم ، فاذا انتزعت منهم انهمرت دموعهم . قال العامل : ما أسعد حظوظهم !» ذلك حوار يستحق النظر . يلبجس فيه دون جهد او تبجح، وبرنة تهكم خفيفة مصطبغة بالكآبة، هجاء لنمط من المدنية هو نمط مدنيتنا تماما . يكفي ان تنعكس جلة هذه الحركات الرعناء في شفوف نظرة طفل لكي يظهر فيها الفوضى والعدم . مامعنى السرعة في قطع المسافة ليس الحب غايتها ؟!

هذا الكتاب اذن هو ، من جهة ، عودة الى الحديقة الشعرية التي يبدو فيها كل رجل بوجهه الطفولي . وهو من جهة اخرى قصة فلسفية تجعل العالم الحديث اضحوكة في عيني طفل صغير . هذان هما وجها قصة الامير الصغير .

التربية العاطفية :

ولكن هنالك وجها ثالثا . فذلك الشعر الذي يحكي مزايا الطفولة هو ايضا تربية عاطفية . ولا تكاد القصة تأخذ المسحة التربوية حتى نلاحظ ان رمز الامير الصغير

قد تغير مضمونه ، فهو يكف عن ان يكون الملاك الأمين على حقيقة باطنة تدخل علينا الصفاء وتحملنا على الاستقامة ، وهو يكف عن أن يكون الروح البسيطة التي تدعو الاشخاص الكبار الى محاسبة ضمائرهم، وذلك لكي يصبح اليافع الانساني الذي ينبغي له ان يتعلم مهنة الحياة . وهو قبل إن يعرف كيف يسبر قيها، لابد له من ان يتعثر في دروب الحب . لانها ليست بالدروب اليسيرة .

لقد مر الامير الصغير بتجربة اولى . فلقد كانت الريح نقلت الى كوكبه بذوراً لبعض الازهار والرياحين ، وتفتحت هناك وردة عجيبة . فشغف الامير الصغير بتلك الوردة، ولكنه لم يلبث ان شعر أنها لاتبادله حباً بحب . بل كانت وراء غضارتها وبهائها طائشة قاسية . ولما عصف به الألم من جرائها ذات يوم جميل لحق بسرب من الطير المهاجرة مغادراً وراءه ذلك الكوكب ، واوحى ذلك اليه بأول كشف في عالم القلب ، وهو ان السعادة القصوى مرتبطة بالحب . ولكن الحب يؤدي الى الخيبة ويجلب اشنع الآلام ويحفر في القلب اعنف وحشة . ولما وصل الامير الصغير إلى الارض عانى تجربة جديدة . كان بعيداً عن وردته ، ولكنه ما فتىء يحبها، اذ كان يراها جديرة بذلك الحب ويحسب ان ليس في الدنيا وردة سواها . ثم ها هو ذا يتنزه ذات يوم فيجد حديقة غناء فيها خمسة آلاف وردة ، منها ما هو بجمال وردته ومنها ما هو اجمل منها . فيا ويح القلب الذي يتعلم فن الحب العويص تلقاء تلك المفاجأة . هنا نستشف بلا ريب من وراء الكتمان الرصين تباريح لواعج نفسية قديمة دفينة في حياة المؤلف . وربما كان من الافضل الا نقتحم النظر عميقاً في حياة الشعراء الخاصة لاسيا اذا آثروا الكتمان كما يفعل المهذبون من الرجال وخصوصاً اذا كان بعض اولئك الذين تعلقت بهم اسباب المحبة لا يزالون في قيد الحياة . وبعد فانه قد تبين للنقاد الباحثين ان قلب مؤلف الرواية التي نحن بصددها كثيراً ما تنزى وتألم من الجفاء مع تشوقه الى النقاوة والى الحنان والى النبل في جميع ما كتب . لا ريب ان هرب الامير الصغير من كوكبه على اثر العذاب الذي لقيه من وردته باحثا بين النجوم عن صداقة تفرج عن قلبه، انما هو بديل عن رحيل آخر هو رحيل المؤلف ملقيا بنفسه في مخاطر حرفة الطيران لعله يجد فيها سبباً يعيش له او هوى يملأ قلبه ، ولكن ماهو الحب حقاً ؟هنا لاتعلّم الافعى الامير الصغير معنى الحب ، اذ كانت الافعى ثاقبة النظر تدرك ان المرء كثيراً ما يشعر بالوحدة الموحشة وهو بين الناس ، واذ كانت هي ايضاً بنفسها عاملا من عوامل الموت . انما يبوح بالسر الكبير الثعلب . فقد لقي الامير الصغير ذات مرة ثعلباً لطيفاً جميلا فرغب في ملاعبته ولكن الثعلب رفض في البداية قائلا : « لااستطيع ان ألعب معك . أنا لست

داجناً أليفاً. فأجابه الأمير الصغير : عفوك ! ثم أردف بعد تفكر : ما معنى الأليف. قال الثعلب: ألست من هذه الارض ؟ عم تبحث ؟ فأجاب الأمير : ابحث عن الناس ، لكن ما معنى الاليف.. قال الثعلب . ذلك أمر طواه النسيان منذ أمد بعيد . اما معناه فهو انشاء الاواصر . قال الامير : أهو انشاء الاواصر؟ قال الثعلب : هو ذاك حقا . ولست في عيني سوى صبي صغير تشبه مئات الالوف من الصبيان الصغار . ولست انا بحاجة اليك كما انك لست بحاجة الي ، فأنا في عينك لست سوى واحد من مئات ألوف الثعالب . أما اذا آنستني وآلفتني، غدا كل منا بحاجة للآخر. سوف تغدو عندي واحداً فريداً في الدنيا وأغدو عندك واحداً فريداً في الدنيا ايضاً . قال الأمير الصغير : بدأت افهم، عرفت وردة احسب انها استألفتني » .

وهكذا نصل على جناح لغة الرواية الناعمة الى الحكمة الخلقية العالية عند المؤلف . وهي ان غنى الحياة الانسانية كامن في الصلات المبثوثة بين الناس. او ان ذلك الغنى قائم في هذه الظاهرة الوجدانية التي يغدو فيها كائن ما حاضراً في نفوسنا على الفور . اذا ألفت أنت كائناً تجاوزت به العلاقة العرضية المصطنعة الى آصرة جوهرية عميقة تجعلك تدرك وجوده الوحيد الذي لايعوض كما يجعله يدرك تجاهك مثل ذلك . والذي يجعل كائناً عندي وحيداً لايعوض ليس عدم وجود شبه له — فقد تكون له إشباه كثيرة بل ربما كان أقل من سواه شأناً من بعض الجهات — ولكن نشأت بيني وبينه وكذلك بينه وبيني وشائج حنان وعطاء وبذل . لقد تصدع جسمان فتخليا عن الاثرة واللامبالاة وبرز من خلالها كائنان يعيش احدهما تلقاء الآخر ، بل يعيش احدهما لاجل الآخر . لنستمع الى الثعلب ايضاً حين يقول: « تجري حياتي على وتيرة واحدة، أصيد الدجاج ويصيدني الناس. يتشابه الدجاج ويتشابه الناس . واذن قد يتتابني الملل . اما اذا استألفتني غدت حياتي وكأنما اشرقت فيها شمس جديدة . سأدرك وقع لخطى لاتشبه وقع غيرها ! خطى الآخرين تجعلني اهرب فأختبئ تحت الارض، وخطاك كأنها الموسيقى تناديني لاخرج من اعماق مكوي (المكو جحر الثعلب) . الا فانظر أما ترى هنالك حقول القمح ؟! . انا لاينفعني القمح اذ لا اقتات به وليست حقول القمح تذكرني شيئاً ما . فيا للشجن والكآبة !.. بيد انك شعرك ذهبي ، فاذا كنت لي إلفاً انقلب الامر عجبا . صار القمح الذهبي يذكرني اياك واصبحت احب حفيف الريح بين السنابل. »

تتجلى هنا في ضوء الرمز فلسفة المدى . فحقل القمح الذي لاشأن للثعلب فيه ولا حاجة له به موجود في المكان دون ان يكون موجودا في المدى . ولكن مذ يشرع الثعلب في حب الامير الصغير تبرز علاقة بديعة بين سنابل القمح وشعر الطفل الأشقر ، وعندئذ تبدأ بقعة اللون تلك توجد بالنسبة له

ويصير هذا الجزء من الدنيا ملكا له . وهكذا تتضح هذه الفكرة العميقة على بساطتها وهي ان الحب الذي يوحي به في نفوسنا كائن ما لايغنينا بمحض وجوده وحسب بل يهب لنا ايضا الدنيا ويهب لنا نورها، وهكذا تتسع نظرتنا الى الارض والسماء ، والى الكائنات والاشياء، من خلال تلألؤ ذلك الحب، ويتسع المدى الذي نعيش فيه اتساعا لاحد له . قال لامارتين « غاب شخص واحد فاضحى الوجود بلقعا مقفرا » . ولكن هذا البيت الشعري ليس الا صورة سلبية لحقيقة اسمى وارفع ندركها . وهي ان وجود كائن واحد نحبه يضيء الكون ويجعله اكثر غنى وثراء بحضور لاتحصى عناصره . ولهذا جاز ان يكون كل حب طريقا الى الله . ولما أن تلقى الامير الصغير ذلك الدرس من صديقه الثعلب صار يسعه ان يذهب ليرى ثانية الورود المزهوة التي يبلغ عددها خمسة آلاف ، ويتحدث اليهن عن وردته بعد أن أدرك السر الجوهري في الحب . فيقول لهن «انكن لاتشابهن وردتي. أنتن لاشيء بعد. لم يستألفكن أحد ولم تستألفن احدا . انتن كما كان ثعلبي من قبل . كان ثعلبا يشبه مئة الف من الثعالب الاخرى. ولكنه اصبح الآن صديقي فغدا فريدا عندي في العالم . واغتمت الورود كثيرا ، ثم قال لها ايضا : حقا انتن ورود جميلة ولكنكن فارغات لا يسع أحداً أن يموت الآن من أجلكن . لقد يخطر لعابر سبيل أن وردتي التي تخصني مشابهة للورود الاخرى .

اما بالنسبة لها فهي وحدها ذات الشأن من بينكن جميعاً . لأنها هي التي سقيتها وهي التي صنتها وهي التي درأت عنها بالحواجز عوادي البرد .. وهي التي انصت لشكواها وصلفها وصمتها . لأنهــا هي وردتي . » نحن لانحب كائناً لأنه فريد في العالم ولكنه يصبح فريداً لأننا نحبه : ذلك هو الكشف الذي يريد المؤلف ان يطلعنا عليه وراء بطله الصغير . قد يقال ان هذا من قبيل الكلام الشائع وان هذا الغور ليس فيه ما لايدرك . ولكنها في كل حال حقيقة مشخصة حية تمس في النهاية اعماق الأمور الاخلاقية : وهي ان ما يجعل كائناً من الكائنات لايعوض عندنا هو ذلك الألم الذي ألمّ بنا من جرائه ، حتى لو كان هو مسببه لنا وهو ايضاً بَذْلنا له ما يفوق العوارف التي تلقاها منه .

وعندئذ عاد الامير الصغير نحو الثعلب « يقول : وداعاً . قال له الثعلب وداعاً : اما السر الذي وعدتك بالكشف عنه فهو بسيط جداً . لايرى الواحد منا حق الرؤية الا بالبصيرة لأن الجوهر لا يدركه البصر . وردد الامير الصغير : (الجوهر لا يدركه البصر)، لكي يحفظ هذا القول. ويتابع الثعلب قوله ان الزمان الذي أضعته في سبيل وردتك هو الذي يعطيها اهميتها . وردد الامير الصغير (الزمان الذي اضعته من اجل وردتي) ، لكي يحفظ القول . وقال الثعلب: لقد نسي الناس هذه الحقيقة ولكن ينبغي الا تنساها . انك تصبح مسؤولا الى الابد عما تستألف

أنت مسؤول عن وردتك . ورده الامير الصغير : (أنامسؤول عن وردتي)، لكي يحفظ هذا القول . »

نحن هنا في صميم الرواية الخيالية وفي الوقت نفسه نبلغ ذروة الوضاءة في فكرة المؤلف ، ونبتعد جدا عن تأثر المؤلف بالفيلسوف نتيشه كما وقع له في كتابه «الطيران الليلي» بل نحن في مستوى يعلو على الأخلاق البسيطة اخلاق العمل والشجاعة . ومن المؤكد ان المؤلف لم ينبذ هذه الاخلاق ولكنه غلفها باخلاق اخرى متجاوزا الحال التي يكون فيها الحب هو تطلع المتحابين الى هدف واحد لأنه قد كشف حالا اعظم شأناً وهو تبادل المتحابين النظر بحيث يلتمس كلاهما في عيني الآخر وجوده الشخصي التام خالصا من قيود أي عمل متلبساً بالتأمل الموقر والحنان المتبادل .

الحكمة القصوى :

ذلك ما تعلمه الامير الصغير من الثعلب . ولما ان ادرك الامير هذا الامر غدا اعظم حكمة لدرجة كان بوسعه فيما ان يتقبل الموت فيختار ان تلدغه الافعى حتى يتوارى من على الارض ويؤوب صاعداً الى كوكبه حيث تنتظره وردته لكي يحميها من اضراس ماشية عابرة ومن اذى النسيم ولكي تعبق سماء كوكبه كلها بشذاها ..

يموت الطفل فيولد الرجل الذي يدرك الان السر الجوهري ، وهو ان مدى وجودها يقابل تماماً مدى حبنا . نحن لانحب الآخرين لما يتحلون به من صفات، بل لانهم انفسهم . ولأننا كشفنا "خفية" وراء مثالبهم وحدودهم حضورهم وماهيتهم الفريدة . فنحن نعيش في نفوسهم كما نعيشون في نفوسنا .

بل السر الحاسم في هذا المجال هو اننا نحب لنبذل لا لننال .. « ان الزمان الذي اضعته على وردتك هو الذي يعطيها أهميتها » .

مات الطفل فأعاد الامير الصغير الصحراء الى الشمس والى الافاعي . بيد ان خطاه تركت آثارها على الرمال . لقد عبر من هنا الطفل الذي كان ثاوياً في الرجل . وهيهات للرجل أن ينسى الطفل الذي يكمن فيه ، انه يرتقب ظهوره في كل آن .

المقاومة العربية في فلسطين
١٩١٧ – ١٩٤٨

عرض وتقديم

هشام الدجاني

« المقاومة العربية في فلسطين » كتاب جديد ظهر في المكتبة العربية ضمن « سلسلة كتب فلسطينية » التي يصدرها مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت . وقيمة هذا الكتاب الذي صدر في أيار ١٩٦٧ لمؤلفه الاستاذ ناجي علوش ؛ أنه تأريخ للفترة الواقعة بين عامي ١٩١٧ – ١٩٤٨ ولضروب المقاومة العربية واشكالها في تلك الفترة . وتبرز أهميته فيما يلقيه من أضواء كاشفة على الحركة الوطنية تحت ظل الانتداب وإبان النكبة . والاستاذ علوش الذي كتب كثيراً من الدراسات العربية الهامة ، والذي كان على صلة مباشرة بالقضية الفلسطينية وبأحداث هذه القضية ورجالها هو خير من يكتب

(١) – المقاومة العربية في فلسطين – ناجي علوش – مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية – بيروت – لبنان – ١٩٦٧

في هذا الموضوع . والمؤلف لم يحاول في كتابه أن يدافع عن الحركة الوطنية ورجالاتها ، كما لم يحاول أن يسبغ عليها اثوابا من البطولات . بل على العكس راح يكشف هذه الحركة وتطوراتها ، والظروف التي جابهتها ، والعيوب والأخطاء التي وقعت فيها ، وما أدت اليه هذه العيوب والأخطاء بالتالي من نتائج سيئة . كل ذلك في اطار من الموضوعية والتزام الصدق .

لقد وضع الكتاب قبل شهر واحد من النكسة ، وان من يطلع على الظروف والأحداث التي عاشتها حركة المقاومة قبل النكبة ، ويطلع بل ويشاهد بأم عينه الظروف والأحداث التي عاشتها الأمة العربية قبل النكبة الجديدة ، يرى أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن العرب لم يتعلموا من درسهم الأول ما يكفل لهم ألا يقعوا في كارثة جديدة هي أعنف وأشد .

مع هذا لعل في استعراض فترة اليمة حافلة بالتجارب المريرة مع ألد عدوين لأمتنا العربية ، وهما الاستعمار والصهيونية ، ما يفيد عبرة .

في الفصل الأول يستعرض الكاتب وضع فلسطين الاقتصادي والاجتماعي في الفترة التي سبقت النكبة ، والمزاحمة الصهيونية لأهالي البلاد في مجال الزراعة التي تعتبر - رغم تخلفها - العمود الفقري لاقتصاديات البلاد . ويستعرض كذلك الغزو الصهيوني المركز لفلسطين الذي كان من نتائجه حرمان الفلاحين العرب من جزء من أخصب أراضيهم ، وتدني مستوى معيشتهم ، ونشوء تنافس غير متكافئ بين العرب واليهود . كما يستعرض أوضاع العمال التي لم تكن تحت ظل الانتداب ، وظل المنافسة اليهودية بأحسن من أوضاع الفلاحين .

ونستطيع أن نلخص الوضع في فلسطين في تلك الفترة بأنه وضع كان يحمل في طياته صوراً بشعة من التناقض : أولها الاضطهاد القومي - الاحتلال البريطاني - وثانيها الاستعمار السكاني - الغزو الصهيوني تقوم به حركة عنصرية

تمولها الرأسمالية اليهودية - وثالثها التناقض الطبقي تمثله العائلات الاقطاعية الغنية والطبقات الفلاحية والعمالية الفقيرة . ويكرس المؤلف الفصل الثاني من كتابه لبحث مرحلة الانتفاضات والمؤتمرات (١٩١٩ - ١٩٢٩) .

يوضح الكاتب في بداية هذا الفصل دور بريطانيا في ايقاف تنفيذ (الفرمانات) العثمانية بوقف هجرة اليهود الى فلسطين ، ثم دور حزب الاتحاد والترقي - عند استلامه السلطة في الدولة العثمانية - لزيادة النفوذ الصهيوني في البلاد ، وزيادة موجة شراء الاراضي العربية . وكان لابد أن ينتفض الشعب الفلسطيني الذي اتخذت انتفاضته اشكالاً شتى من مظاهرات ، وحملات صحفية ، وجمعيات لمحاربة الصهيونية . وتفلح المقاومة في وقف موجة الشراء وتقليص خطرها ، ولكن الموقف يتغير تماماً بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين . وتتميز الفترة التي تلت الانتداب مباشرة بكثرة المؤتمرات التي تدعو الى الوحدة مع سورية ، والاحتجاج على الانتداب ورفضه ، ثم المقاومة المسلحة - كما يكشف هذا الفصل عن المؤامرات الدبلوماسية لبريطانيا وتواطؤها مع السياسة الصهيونية ومحاباتها لليهود على حساب العرب . وما الكتاب الابيض الذي يصدره الانكليز عام ١٩٢٢ الا دليلاً على هذا الخداع الدبلوماسي التقليدي . وتحبط المقاومة العربية « المشاريع الشكلية » للشرعية التي ابتدعها الانكليز ، كما يرفض العرب مشروع الوكالة العربية - أسوة بالوكالة اليهودية - بعد فشل مشروع المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري ، فقد كان الهدف هو الاستقلال . بيد انه مما اضعف هذه المقاومة وفت في عضدها التنافس بين العائلات الفلسطينية الكبيرة (الحسيني والنشاشيبي واستغلال الانكليز الدائم لهذا التنافس لتمزيق الحركة الوطنية . وفي جو من الصراع الشخصي على الزعامة ، وفي جو من التحزب ونشوء التكتلات ضمن الحركة الوطنية ، يتداعى الوطنيون الى اكثر من مؤتمر لتحديد مطاليبهم وخط سيرهم .

ولكن هذه المؤتمرات لاتسفر عن شيء بالطبع . وتفشل الحركة في تحديد اهدافها القومية اثناء مباحثاتها مع ملز (تموز ١٩٢٦) . وكان هـــدف الانكليز من الاتصال بالحركة الوطنية هو سبر غور هذه الحركة ومعرفة مدى قوتها ، وجرها الى مساومة تقربها من السلطة وتخيب امل الجماهير بها . وتأتي حوادث عام ١٩٢٩ لتبين من جديد حاجة الجماهير الغاضبة التي استنكرت الاحتلال والصهيونية ، ورفضت طريق المؤتمرات المسدود ، الى قيادة تستطيع توجيه الانفجار الشعبي الى ثورة عارمة تشمل كل أطراف البلاد .

وننتقل في الفصل الثالث الى مرحلة الثورة (١٩٣٠ — ١٩٣٩) التي تعتبر أبرز وأعنف مراحل القضية .

جاءت زيادة مكاسب الصهاينة ، وتدفق تيار الهجرة ليزيدا من استفزاز الجماهير الحانقة . وقام حزب الاستقلال ١٩٣٢ رافعاً شعار مقاومة الانكليز والاحتلال ، محاولاً بذلك استقطاب العناصر الوطنية المخلصة . بيد أن هذا الحزب فشل في الوصول الى اي هدف من اهدافه ؛ فقد حاربته جماعة الحسيني إذ وجدت فيه خروجاً على طاعتها ، كما حاربه دعاة مهادنة الانكليز وعملاؤهم لأنهم وجدوا فيه خطراً على مصالحهم .

ولم يكن كل ما فعله العرب في السنوات التي تلت الاحتلال كافياً لتغيير السياسة البريطانية أو تبديلها . كانت الهجرة اليهودية تزداد ، والانكليز يزدادون استهتاراً بالمصالح والمشاعر الوطنية .

ولم تكن الحركة الوطنية بتنظيماتها الهزيلة — بقادرة على ان تفعل شيئاً ، رغم ان البلاد كانت تغلي بالنقمة على الاحتلال والصهيونية . وفي جو من اليأس من الحركة الوطنية التي كانت تزداد خلافاتها يوماً بعد يوم ، ومن الغضب والحقد على الاحتلال والهجرة اليهودية والنفوذ اليهودي المتفاقم ، انبثقت ثورة عز الدين القسام .

وجد عز الدين القسام ، وهو شيخ عالم وخطيب مفوه ، ان القيادة في فلسطين غير أهل للمهمة الخطيرة الموكولة اليها . لذا فقد عكف على انشاء حركة ثورية

عقدية تقوم على العقيدة الاسلامية، وأساس عملها التنظيم السري. وأهم مايميز حركة القسام الناصعة أنها اعتبرت بريطانيا أساس البلاء، وان الحركة الصهيونية مرتبطة بالاستعمار البريطـــاني. كما انها تميزت بالاسلوب الصحيح للعمل. فقد اعتبر القسام ان المقاومة تقتضي وجود «كوادر» مهيأة فكرياً وسياسياً وعملياً. لذلك اتجه الى تثقيف انصاره تثقيفاً اسلامياً. وكذلك وجد القسام ان الثورة المسلحة هي وحدها القادرة على انهاء الانتداب، والحيلولة دون قيام دولة صهاينة في فلسطين، باستلزام هذه الثورة من تنظيم سري، واعـــداد عسكري، وتعبئة نفسية للجماهير. وبينما كانت الحركة الوطنية تدور في حلقة مفرغة مستسلمة متخاذلة، كان القسام يعمل جاهداً من أجل هذه الثورة منذ عام ١٩٢٢. وأصالة حركة القسام في انها استهدفت جماهير الكادحين، وهم العمال والفلاحون، التي تضررت مصالحها كلياً وسيمت العسف وألوان الفقر الشديـــد من جراء بيع الاراضي للصهاينة وطرد المزارعين العرب منها، ومن جراء البطـــالة المتفشية في المدن.

بيد ان استشهاد قائد هذه الحركة الأصيلة إثر اصطدام مسلح مباشر مع سلطات الاحتلال، قبل ان تكتمل لها أسباب النجاح — كاحتلال مدينة حيفا كما كان مقرراً — أدى الى فشلها. غير ان مصرع القسام كان محركاً لضمير الشعب ومثيراً لكوامن حقده. وكانت حركته أبلغ رد على سياسة «زعماء» فلسطين التقليديين، واسلوب المهادنة والحلول السلمية.

عادت الحركة الوطنية بعد مصرع القسام عام (١٩٣٥) الى اسلوبها المتخاذل في العمل السياسي، والى خلافاتها. وراحت سلطات الاحتلال تستغل هذه الخلافات لتمييع حركة المقاومة الوطنية، ومنعها من اتخاذ أية مواقف جدية تؤدي الى انتصارات ومهما كانت هزيلة.

وكان رد الجماهير الغاضبة على سياسة المناورات والمداورات هو اعلانها للاضراب الشامل عام ١٩٣٦. وأجبرت الجماهير

اتحاد الاحزاب على الوقوف الى جانبها . وأصيبت سلطات الاحتلال واليهود بالذعر ، وقد وجدوا انفسهم لأول مرة امـــام موقف جدي، شامل شل الحركة الاقتصادية في البلاد . وتحت ضغط المد الوطني الشعبي تكونت « اللجنة العربية العليا » برئاسة امين الحسيني وعضوية رؤساء الاحزاب وزعماء الطوائف . وكان ميثاق الهيئة : استمرار الاضراب الى ان تغير الحكومة البريطانية سياستها بوقف الهجرة اليهودية ، ووقف بيع الاراضي لليهود ، وتشكيل حكومة وطنية نيابية . واجتمع مؤتمر اللجان القومية للجنة العربية العليا في القدس ليقرر مبدأ عدم دفع الضرائب ، ويكرس فكرة الاستقلال التام .

وجاءت الثورة المسلحة أخيراً في اعقاب الاضراب العام . وراحت اللجان القومية تعمل على دعم الثورة مادياً ومعنوياً . واذا كان الاضراب قد استهدف شل الحياة السياسية والاقتصادية ، فقد استهدفت الأعمال المسلحة اثارة الذعر في المعسكرات البريطانية والمستعمرات اليهودية ، وتهديد مصالح سلطات الاحتلال والصهاينة .

غير إن هذه الثورة راحت من جديد ضحية المساومات السياسية نتيجة تخلف القيادة عن ركب الجماهير المندفع ، وهي تحمل في طياتها بذور المشاحنات والمنافسة التي لاتنتهي .

وقبلت « اللجنة العربية » باجهاض الثورة مقابل أن تتوسط الحكومة العراقية (نوري السعيد) لدى الحكومة البريطانية لانجاز جميع مطـــالب عرب فلسطين المشروعة . واستمر الشعب في اضرابه رغم قبول اللجنة للوساطة ، فجاء نداء الملوك العرب (غازي ــ ملك العراق ــ ، عبد العزيز آل سعود ــ ملك السعودية ــ ، الامـام يحيى ــ ملك اليمن ــ ، الامير عبد الله ــ أمير شرقي الاردن ــ) في « الاخلاد الى السكينة » عن طريق اللجنة ليطفىء نار الثورة .

والغريب ان « اللجنة » التي أيدت الشعب في اضرابه ودعته الى الاستمرار فيه ، عادت بعد ستة أشهر لتطلب منه

ان يخلد الى السكينة دون قيد ولاشرط استجابة لنداء وجهه ملوك تسيّر بريطانيا بلدانهم كما تشاء .

وقطفت بريطانيا ثمار المؤامرة. وجاء رد الفعل البريطاني مخيباً لآمال المسؤولين في « اللجنة » كالعادة. فسلطات الاحتلال لم تجد مبرراً – في رأيها – لايقاف الهجرة اليهودية المنتظمة الى داخل البـــلاد . ورفضت اللجنة إزاء هذا الموقف الاتصال باللجنة الملكية للوساطة ، ولكنها عادت فقبلت الاتصال بها تحت ضغط الملوك العرب . وينتهز حزب الدفاع الفرصة ، وقد أحس بالتحرر من رهبة الجماهير بعد أن تميعت الثورة ، ليطعن اللجنة في ظهرها معلناً الانسحاب منها . ولم يكن غريباً أن يسلك حزب الدفاع ، الذي جاء انسحابه شهادة أخرى في ضعف الحركة الوطنية وقلة تمسكها، هذا الموقف؛ فقد كان حزب الأمير عبد الله وممثلا لسياسة التهادن مع الانكليز .

وجاء تقرير اللجنة الملكية (تموز – ١٩٣٧) مؤكداً لمخاوف الجماهير . فقد أوصى التقرير بتقسيم فلسطين الى ثلاث مناطق : عربيـــة ويهودية وانكليزية . وأيد بيان الحكومة البريطانية توصيات التقرير مؤكداً الاستمرار في الســـماح بالهجرة اليهودية (السماح بهجرة ٨ آلاف شخص حتى آذار ١٩٣٨) .

كان من الطبيعي أن يثير تقرير اللجنة وبيان سلطات الاحتلال البلاد بأسرها ؛ ولا سيما شمال فلسطين الذي قررت اللجنة ضمه الى المنطقة اليهودية . واضطر حزب الدفاع امام غضبة الجماهير ان يستنكر المشروع رغم انه كان يعلم به ويوافق عليه . وراح الأمير عبد الله يعمل ما في وسعه لتهيئة الأجواء لقبول المشروع . وراحت جريدة فلسطين – بوقــه وبوق حزب الدفاع – تتحدث عن مزايا المشروع وتكيل الثناء للجنة الملكية . اما اللجنة العربية العليـــا فقد اكتفت باستنكار المشروع دون ان تدعو الى استئناف الكفاح . ولكن في تلك الفترة العصيبة من تاريخ المقاومة العربيـــة في فلسطين كانت تتجمع عدة عوامل تدفع بالجماهير الى استئناف كفاحهم ، بعد ان توقفوا فترة من الوقت آملين ادراك بعض التقدم

عن طريق الوساطة والمفاوضات . من هذه العوامل :

١ ـ التأييد العربي الشامل في جميع الأقطار العربية .

٢ ـ التحدي الصهيوني الوقح للعرب الذي تجلّى في رفض مشروع التقسيم لأنه لا يحقق كل المطامع الصهيونية في فلسطين بالاضافة الى استفزازات اليهود المستمرة للعرب .

٣ ـ استخدام سلطات الاحتلال العنف في اعتقال وتشريد زعماء اللجنة العربية . بيد ان مادعا الى استئناف الكفاح أولاً وآخراً هو اكتشاف الجماهير بأن كل وسيلة غير السلاح لا تجدي في تحقيق الأماني الوطنية . لاسيا وأن وساطة الملوك العرب لم تتمخض الا عن طرح مشروع للتقسيم .

عادت المظاهرات ـ إثر حركة الاعتقال والعنف والاستفزاز ـ وأضربت المدن ، وقامت بعض الفصائل المسلحة بعدد من العمليات كتخريب السكك الحديدية ونسف الجسور ، ووضع المتفجرات في اماكن تجمع الانكليز واليهود . كما تطورت العمليات الى صدام مباشر مع رجال الشرطة والجيش التابعين لسلطات الاحتلال .

ازاء المعارضة الجماهيرية الواسعة تراجعت بريطانيا عن مشروع التقسيم (١٩٣٨) ودعت الى اجتماع يعقد في لندن ، ويحضره ممثلون عن القاهرة وعمان والرياض وبغداد ، وممثلون عن عرب فلسطين ، وعن اليهود . ووافقت اللجنة العربية على ارسال من يمثلها في هذا الاجتماع . وبنتيجة هذا الاجتماع ظل موضوع الاستقلال معلقاً ومرهوناً بامكانية التعاون بين العرب واليهود . ووافقت الحكومة البريطانية على ايقاف الهجرة بعد ادخال ٧٥ ألفاً من المهاجرين اليهود . ولم تكن التساهلات التي أبدتها بريطانيا إلا وسيلة لاخماد المد الشعبي وتمييع الحركة الجماهيرية . ولم تدرك قيادة الحركة الوطنية مع الأسف ـ رغم تجارب اكثر من عشرين عاماً مع الاستعمار البريطاني ـ ان طريق المفاوضات لا يؤدي في النهاية الى أية نتيجة ايجابية .

من جديد فشلت الثورة (١٩٣٦ — ١٩٣٩) في تحقيق نتائج ايجابية حاسمة لفقدان القيادة السياسية الواعية، وفقدان القيادة العسكرية الموحدة . وتجيء ظروف الحرب العالمية الثانية لتزيد من وطأة الاحتلال البريطاني على البلاد باعلان الاحكام العرفية . وتستنفد سنوات الثورة الثلاث قوى المجاهدين ، وتنقطع عنهم امدادات سورية بعد تسوية الخلافات البريطانية — الفرنسية قبل الحرب. ويجب الا ننسى ونحن نقوم هذه الثورة التي تعتبر واحدة من الثورات الكبرى في الوطن العربي، ان نشير الى الأثر البعيد لخلاف السياسيين التقليدي في اجهاض هذه الثورة المناضلة . **تبقى لهذه الثورة ميزتان واضحتان : اولهما العمق والتأييد الجماهيري الواسع ، والثانية ان قواعدها واكثر قياداتها العسكرية كانت من جماهير الفلاحين والعمال خلافاً لقيادتها السياسية .**

أدت ظروف الحرب وترقب نتائج الصراع العالمي ، وفرار القادة السياسيين الى الاقطار العربية المجاورة اثر فشل الثورة الى مرحلة من الركود ابتدأت مع بداية الحرب وانتهت بالنكبة ١٩٤٨ . ويفرد الكاتب للحديث عن هذه المرحلة فصلاً كاملاً — الفصل الرابع — ونستعرض هنا أهم ماجاء في هذه المرحلة من أحداث .

بعد ان وضعت الحرب أوزارها وانتصر الحلفاء دخلت امريكا — وقد أصبحت زعيمة للعالم الغربي ، شريكة لبريطانيا في قضايا الشرق الاوسط . وتفد الى فلسطين في مطلع عام ١٩٤٦ لجنة امريكية بريطانية مشتركة لتقصي الحقائق. وكان من نتائج زيارة هذه اللجنة الغاء الكتاب الأبيض الصادر عام ١٩٣٩ القاضي بوقف الهجرة اليهودية ، وفتح باب الهجرة لمئة الف مهاجر جديد ، ورفع الحظر عن انتقال الأراضي الى اليهود . هذا مع بقاء الانتداب طبعاً .

وفي أيار ١٩٤٦ يتداعى بعض الملوك والرؤساء العرب الى مؤتمر لهم يعقد في انشاص . ويؤكد المؤتمر عروبة فلسطين ، ويشجب تراجع بريطانيا عن الكتاب الأبيض . بيد أن الدول المؤتمرة لم تجرؤ

مع الاسف ، على اتخاذ موقف حازم من بريطانيا وأمريكا اللتين اعتبروهما دولتين ديموقراطيتين صديقتين .

وتنتقل قضية فلسطين الى الجامعة . وتقرر الجامعة عام ١٩٤٧ مساعدة عرب فلسطين ماديا وعسكريا ، وبدعم بالسلاح والتدريب . وانشئت لجنة عسكرية لتحقيق هذه الأهداف ، واتخذت دمشق مقراً لها . واختير العميد طه الهاشمي مسؤولاً عن شؤون التدريب والتعبئة ، وعبد القادر الحسيني قائداً عاماً لأفواج فلسطين . وفي العام نفسه (عام ١٩٤٧) تدخل القضية لأول مرة أروقة الأمم المتحدة لتخرج من جديد بقرار للتقسيم . وتفشل القيادة السياسية الجديدة «الهيئة العربية العليا» في الاستفادة من الثورة الشعبية . فقامت الثورة من جديد دون اعداد او تنظيم . كذلك لم تفلح اللجنة العسكرية في دعم الثورة في شيء ؛ فقد كانت اللجنة تكدس السلاح في دمشق وتمنعه عن المجاهدين . ويأتي التدخل الرسمي للجيوش العربية يوم ١٥ أيار ١٩٤٨ ليكتب الفصل النهائي من مأساة فلسطين .

وحدثت النكبة بتفاصيلها التي يعرفها كل عربي . جاءت النكبة نتيجة متوقعة ومنطقية لحركة مقاومة غير منظمة بسبب قياداتها الفاشلة غير الواعية التي شغلت بالخلافات فيما بينها وبالحزازات والمنافسة العشائرية . لم تكن القيادة ابداً على مستوى المسؤولية الكبيرة التي وقعت على عاتقها . كما لم تكن ابداً مخلصة لأهدافها وأهداف الجماهير الراغبة في التخلص من نير الاحتلال والصهيونية . كذلك لم يكن المسؤولون العرب ابداً على مستوى وعي القضية وإدراك أبعادها . لقد كانوا في كثير من الاحيان عوناً للسلطات المحتلة على الشعب كما شاهدنا من خلال استعراضنا السريع للأحداث .

ومن المؤسف حقا ان النكبة حلت بأرض فلسطين وما يزال زعماؤها يتنافسون على التركة وعلى الزعامات . فبينما كان يعقد في غزة مؤتمر وطني (ت١ ١٩٤٨) تنعقد بنتيجته رئاسة المجلس

الوطني وادارة البلاد للحاج أمين الحسيني – رئيس الهيئة العربية العليا – ، يعقد في عمان مؤتمر مماثل بحضره انصار الملك عبد الله ، ويبايع فيه الملك عبد الله ملكا على ما تبقى من فلسطين .

على أن ضعف الحركة الوطنية وتفككها ، وتنابذ زعاماتها ، وتهافت هذه الزعامة على المصالح المباشرة ، لم يكن وحده السبب في النكبة ، فقد ساعدت على هذه النكبة ظروف العالم العربي في تلك الفترة . إذ كانت كل الدول العربية المحيطة بفلسطين تابعة للاستعمار البريطاني او الفرنسي ، والحكومات « الوطنية » الموجودة فيها حكومات رجعية سائرة في ركاب المستعمر . كما لم تكن الظروف الدولية آنذاك في صالح القضية ابداً . ولكن آفة الآفات كانت في القيادة السياسية للحركة الوطنية . فقد تميزت هذه القيادة بالتخلف الفكري ، وبالعقم والجمود وضيق الأفق . كما أن اساليب المساومة وانصاف الحلول الذي لجأت اليه ، والموقف المتراخي الذي كانت تقفه من سلطات الاحتلال لم يكن يعطيها أية مكاسب . بل على العكس كان يزيد من قوة الخصم ويعطيه فرصاً أكبر للمناورة ولضرب الحركة وشلها .

* * *

العرب في إسرائيل (١)

والكتاب الثاني «العرب في اسرائيل» هو كتاب جديد آخر صدر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في شهر حزيران الماضي ، ضمن سلسلة « دراسات فلسطينية » . **ولهذا الكتاب أهمية خاصة ، فقد أثار ضجة كبيرة في الاراضي المحتلة ، وصادرت السلطات الاسرائيلية معظم نسخ الكتاب ولاحقت المؤلف ووضعت عليه قيوداً شديدة .** ذلك أن الكتاب الذي صدر لأول مرة عام ١٩٦٥ باللغة العبرية وداخل الارض المحتلة ، يفضح المعاملة الوحشية التي يتعرض لها العرب في فلسطين المحتلة ، والاجراءات الرسمية التي تتخذها السلطات الاسرائيلية لنهب ثروات العرب وقتل معنوياتهم . وكان لمركز الأبحاث التابع لمنظمة

(٢) – العرب في اسرائيل – صبري جريس – مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية بيروت – لبنان – ١٩٦٧ .

التحرير الفضل في ترجمة هذا الكتاب ونشره.

مؤلف هذا الكتاب هو الاستاذ صبري جريس المحامي العربي في فلسطين المحتلة وعضو اللجنة المركزية لحركة الارض العربية . وكتابه هجوم شجاع على السلطات الاسرائيلية وفضح لاعمالها، مدعوم بالحجج الدامغة . ويمكننا ان نعتبر هذا الكتاب دراسة مكملة للكتاب الاول فاذا كان الكتاب الأول دراسة لاوضاع الفلسطينيين العرب وحركة المقاومة إبان النكبة ، فان كتاب « العرب في اسرائيل » دراسة لاوضاع العرب في فلسطين بعد النكبة .

يعالج الكتاب موضوعين هامين هما : الاحكام العسكرية ، والاراضي في فلسطين المحتلة . يوضح لنا المؤلف في القسم الاول ان الحكم العسكري قائم في اسرائيل منذ قيامها وحتى وقتنا هذا . ويسيطر جهاز الحكم العسكري على مساحات شاسعة كالجليل والمثلث والنقب، مستخدماً صلاحيات ادارية واسعة جداً وشبكة خاصة من المحاكم العسكرية . وجملة القوانين التي يقوم عليها الحكم العسكري تتألف من ١٧٠ قانوناً تبحث في شؤون الرقابة ، وتحديد حرية التنقل وحرية الكلام وحرية الصحافة . كما تتضمن صلاحية الاعلان عن مناطق معينة كمناطق مغلقة ، وتحديد الخروج منها او الدخول اليها الا بموجب تصاريح صادرة عن الحاكم العسكري . كما تعطي هذه القوانين الحاكم العسكري صلاحية وضع اي شخص تحت رقابة اجهزة الامن ، وان يسلب العربي حقه في املاكه وحوائجه ، وان يحدد حريته بالاقامة الجبرية في مسكنه أو بالاقامة شبه الجبرية ، بأن يبقى وراء ابواب بيته ابتداء من ساعة بعد الغروب وحتى شروق الشمس. وللشرطة الحق في زيارته في مكان سكناه في كل وقت . وتمنح هذه القوانين ايضاً الحاكم العسكري سلطة اصدار الأوامر بطرد اي انسان الى إلى خارج البلاد ، أو نفيه ، وكذلك منع أي انسان موجود خارج البلاد من العودة اليها . وصلاحية مصادرة أو هدم ملك أي إنسان اذا شك بأن أطلقت من هذا الملك رصاصة أو ألقيت قنبلة. ويقول الكتاب : إن وزير

الدفاع عيّن حكاماً عسكريين لثلاث مناطق رئيسية تمتد على مساحات واسعة من البلاد هي الجليل (الحكم العسكري في الشمال)، والمثلث (الحكم العسكري في المنطقة الوسطى)، والنقب (الحكم العسكري في الجنوب). وفي هذه المناطق يعيش ٧٥٪ من السكان العرب في البلاد، بينما يعيش بقية العرب (٢٥٪) في مدن حيفا ويافا واللد والرملة. ويعيش الآن تحت الحكم العسكري اكثر من ٢٠٠ ألف عربي. وقد قسم جزء من هذه المناطق الثلاث الى وحدات صغيرة أطلق عليها اسم «المناطق المغلقة»، التي يحظر الدخول اليها أو الخروج منها إلا بموجب تصاريح من السلطات العسكرية.

والعجيب في الأمر، أن قوانين الحكم العسكري لا تطبق عملياً على اليهود الذين يسكنون المناطق الخاضعة للحكم العسكري. ويمضي الكتاب في توضيحه للحقائق فيذكر أن معارضة شديدة قامت بين المواطنين والصحف والأحزاب المختلفة ضد الحكم العسكري مطالبة بالغائه أو تقليص صلاحياته ومناطق نفوذه ولكن بدون جدوى.

ويحدثنا الكتاب في القسم الثاني منه عن كيفية استملاك اراضي البلاد في سبيل إنشاء مستعمرات يهودية. فقد شنت الصهيونية كفاحاً شديداً وعنيداً في سبيل ذلك مستعملة كل الوسائل التي تملكها ومستغلة كل نقاط الضعف في أوساط خصومها، وكيف استمر هذا الكفاح لامتلاك الأرض حتى عام ١٩٤٨ حين أقيمت الدولة اليهودية، فعندئذ ألقيت مهمة امتلاك ما تبقى من الأراضي في أيدي العرب على عاتق الدولة حيث نفذت عمليات الاستملاك بصورة تعسفية وبالقوة بواسطة الجيش، وبطرد السكان العرب إلى ما وراء خطوط الهدنة أو نقلهم من قراهم إلى اماكن أخرى داخل الدولة. وكذلك استولت الكيبوتسات والمستوطنات الزراعية المجاورة للقرى العربية، وبتشجيع من الحكومة وموافقتها، على ارض عربية بواسطة احاطتها باسلاك شائكة وضمها اليها بصورة مطلقة ودائمة. ومالبثت السلطات

الاسرائيلية ان نشرت سلسلة خبيثة من القوانين والمواد المعدلة والأوامر، هدفها الرئيسي تبرير اعمال المصادرة، ومنح السلطات صلاحيات اضافية لنهب ماتبقى من ارض في ايدي العرب . وقد مهدت هذه القوانين السبيل امام الحكم الاسرائيلي الصهيوني لسلب حوالي مليون دونم من اراضي العرب الذين ظلوا في البلاد بعد قيام الدولة . ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن استمرت عمليات المصادرة بطريقتين متناسقتين : المصادرة بالقوة من جهة ، والاعتماد على تلك القوانين لتبرير ذلك من جهة اخرى . ويحدثنا الكتاب باسلوب حزين كيف ان سكان عشرات القرى العربية قد طردوا بوحشية من قراهم الى قرى اخرى نائية او الى خارج الحدود وذلك منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٥٩ .

ويذكر المؤلف ان اهم القوانين التي وضعت للاستمرار في سلب الاراضي التي بقيت في ايدي العرب هي :

١ - قانون أملاك الغائبين - عام ١٩٥٠ - ووظيفته تحديد الوضع القانوني لأملاك الغائبين الذين تركوا البلاد قبل حرب ١٩٤٨ الى البلاد العربية المجاورة لفلسطين من أجل قضاء مصالحهم ، أو الذين تركوا مدنهم وقراهم الى مناطق أخرى داخل فلسطين بسبب الاعمال الحربية » . ونقل هذه الأملاك الى « القيم على املاك الغائبين » . وقد علق نائب الكنيست توفيق طوبي على هذا القانون بقوله :

« إن هذا القانون تعبير عن التمييز ضد السكان العرب في البلاد . فحسب بنود هذا القانون ، يوجد في البلاد الآف من السكان العرب يعتبرون - رغم أنهم مواطنون في الدولة - غائبين ، وتسلب منهم حقوقهم في استعمال أملاكهم .

وقال « ان الوظيفة الحقيقية لهذا القيم على أملاك الغائبين هي أن ينهب اكثر واكثر .. »

٢ - قانون حالة الطوارىء .

٣ - قانون مناطق الأمن .

٤ - مواد ساعة الطوارىء لاستغلال الاراضي غير المفلوحة .

٥ - قانون الاستيلاء على ارض في ساعة الطوارىء (١٩٤٩) .

٦ ـ قانون استملاك الاراضي ، (١٩٥٣) . ويعتبر هذا القانون ملخصاً للقوانين الخمسة التي سبقته ، فخلاصة نصوصه هي منح وزير المالية صلاحية نقل ارض صودرت حسب القوانين السابقة الى ملكية دولة اسرائيل .

ويقدر مؤلف الكتاب مساحة الاراضي التي صودرت من العرب الموجودين داخل فلسطين المحتلة بموجب هذه القوانين بحوالي مليون دونم .

ان مصادرة الاراضي - وليست هنالك قرية عربية واحدة نجت من ذلك - قد سببت ضرراً كبيراً للزراعة العربية ، وخلقت بين عرب اسرائيل جيلا من العاطلين ، وكانوا قبل ذلك يعملون في الزراعة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من تعلم أية مهنة بعد ان سلبت أراضيهم .

ولقد قابل عرب اسرائيل مصادرة الاراضي بمعارضة عنيفة ومتواصلة . فأكثرية أصحاب الارض يرفضون قبول التعويضات التي تقترح عليهم ، لأن مبالغ التعويضات هذه منخفضة جداً .

كما أن بينهم أشخاص يرفضون قبول تعويضات بصورة أراض توجد داخل القرى التي يسكنونها حالياً لأن هذه الأراضي تابعة « لغائبين » موجودين حتى اليوم داخل البلاد ، أو للاجئين خارجها .

والحقيقة ان قضية الأراضي ليست مجرد قضية تعويضات . بل انها اكثر عمقاً . انها قضية أساسية يعتبرها غالبية السكان العرب جزءاً من قضية فلسطين . فالرأي السائد بين السكان العرب هو عدم المساهمة في حل هذه القضية حتى ولو بصورة جزئية ، ما دامت القضية العامة (الفلسطينية) لم تحل بصورة جذرية بعد .

وللبحث صلة ، فهناك موضوعان آخران عالجها المؤلف هما : سياسة اليد القوية ، والتطورات التي طرأت على حياة العرب في اسرائيل . ويبدو أن مركز الأبحاث سيصدر قريباً هذين الموضوعين في كتاب مستقل يكون بمثابة جزء ثان لهذا الكتاب .

العنف والسلام

دراسة في الاستراتيجية الصهيونية

- تأليف : ابراهيم العابد
- نشر : منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الابحاث – بيروت ١٩٦٧
- عرض : ظافر عبدالواحد

هذا الكتاب هو الحلقة العاشرة من سلسلة (دراسات فلسطينية) التي تصدرها منظمة التحرير الفلسطينية . ويفضح المؤلف في هذا الكتاب جذور الحقد والارهاب في الفكرة الصهيونية، ويبرهن على ان الجرائم الاسرائيلية نتيجة لتلك الفكرة اللاانسانية . يقول ابو الحركة الصهيونية ثيودور هرتزل : « اننا نريد ان نطهر بلداً من الوحوش الضارية . طبعاً لن نحمل القوس والرمح ونذهب فرادى في إثر الدببة كما كان الاسلوب في القرن الخامس في اوربا ، بل سننظم حملة صيد جماعية ضخمة ومجهزة ونطرد الحيوانات ونرمي وسطها قنابل شديدة الانفجار » .

ويربط المؤلف وجود اسرائيل العدواني بهذه الفكرة المجرمة . ويختم هذا الكتاب الموثق ببيان إجمالي بالاعتداءات الاسرائيلية على الدول العربية ١٩٤٩ – ١٩٦٤ ، وبجدول بقرارات إدانة اسرائيل في الامم المتحدة، وبجدول إدانة اسرائيل من قبل لجان الهدنة ، وبجدول أرقام البيانات التي أدلى بها أعضاء في مجلس الامن وبعض موظفي الامم المتحدة (من غير العرب) في مناسبات مختلفة إثر مناقشة الاعتداءات الاسرائيلية العديدة على حدود الدول العربية والتي يثبتون فيها بأن هذه الاعتداءات مدبرة ومعدة قبل وقت طويل من تنفيذها ، وبأنها ليست فورات انتقامية كما تدعي اسرائيل . كما يقدم الكتاب جدولاً يثبت أن الاعتداءات هي سبب التوتر على الحدود وليست نتيجة له كما تدعي إسرائيل، وان حوادث ما تسميه إسرائيل بـ « التسلل » تزيد بعد كل اعتداء اسرائيلي .

وهناك جدول يقارن بين عدد أهم الاعتداءات وعدد تصريحات السلام الرسمية .

كما يقدم الكتاب مقارنة بين عروض السلام والاعتداءات والتهديد بالحرب .

تأملات ثائرة في الواقع العربي المعاصر

– تأليف : جورج الراسي
– نشر : المكتبة العصرية
صيدا – بيروت ١٩٦٧

هذا الكتاب سلسلة من المواقف تجاه جوانب حياتنا المختلفة . فهو يعالج في قسمه الأول بعض المشاكل الاجتماعية ما اتصل منها بالفرد والأسرة والدولة والجنس والتعصب العنصري والطائفية ... وهو يمر في قسمه الثاني باللغة والفن والأدب والصحافة وما كان وثيق الارتباط بها ، وينتهي في قسمه الثالث والأخير بتأملات وجدانية من وحي واقعنا الحاضر ووجودنا الإنساني المعاصر ... ولا تكفي هذه النظرة الإجمالية لمضمون الكتاب ،

ولعل عينة منه تعطينا فكرة ملموسة عنه ، وسأختارها من المواضيع الثانوية . فتحت عنوان (الغناء صدق إحساس وحسن تعبير) يقول المؤلف : « إن الموسيقى فن قائم بذاته ، يعبر عن هذه الذات بألحانه ، ودونما حاجة الى أية الفاظ او اصوات . » . أليست الألحان أصواتاً ، أم أن المؤلف يقصد بالأصوات الأصوات الغنائية ؟ أم أنه يعتبر الموسيقى مجرد نسب رياضية ؟

- نظرات حول النكسة
- دروس في المقاومة

عرض وتقديم « المعرفة »

حديث النكسة يكتبه هذه المرة للاستاذ حسن فخر في مجلة « دراسات عربية [1]» تحت عنوان: **حقائق وتوقعات على حطام النكسة**. والكاتب يكشف في هذا المقال جوانب هامة وعميقة من موضوع النكسة. ودراسته جديرة بالتقديم والمناقشة.

يقول الاستاذ فخر في مطلع مقالته: « ان غرضي الأول من هذه المعالجة هو محاولة استخلاص الدروس من بين اشلاء النكسة والمساعدة على استكشاف الطريق أمام مسيرة العرب الجديدة [2]». وهو يرى أن النكسة على الرغم من هولها وعمقها، تنطوي في ذات الوقت على ابعاد ايجابية، يمكن اذا ما نظر اليها العرب بعقلية جديدة ان تكون منطلقاً لتحول جذري يرسم مستقبلاً رائعاً ». والآن ماهي الأبعاد الايجابية،

---

(١) دراسات عربية – عدد (١١) ايلول – ١٩٦٧ – بيروت

(٢) ص ٤٨ من المصدر المشار اليه.

وكيف يمكن ان تكون منطلقاً لتحول جذري ؟

أول الطريق دوماً هو المكاشفة الصريحة والصادقة حول الاسباب الحقيقية للنكسة ، والأخطاء المرتكبة . لقد استعرضنا من قبل ، من خلال تقديمنا لعدد من الدراسات حول النكسة ، بعض هذه الاخطاء والاسباب . وفداحة النكسة تستوجب ، في الواقع ، العديد من الابحاث والتقويمات ، ودراسة للاسباب والنتائج . و « المعرفة » اخذت على عاتقها منذ النكبة ، تقديم افضل الدراسات التي تنشر في المجلات العربية حول هذا الموضوع . ومقالة الاستاذ حسن فخر واحدة من سلسلة الدراسات الجيدة .

تبدأ الدراسة بطوح هذا السؤال الهام:

هل كان العرب ، وبصورة خاصة الجمهورية العربية المتحدة وسورية ، وهما المعول عليها في حمل العبء الرئيسي في معركة التحرير ، في المستوى الذي يؤهلها لتحقيق هذه المهمة بنجاح ؟

الجواب بالطبع هو : لا !

وينبري بعضهم ليقول : ان إسرائيل ومعها الغرب الاستعماري ، هي التي استدرجت العرب الى المعركة ، وهي التي حددت ساعة الصفر صبيحة الخامس من حزيران . هذا صحيح . ولكنه ليس الا جانباً من الصورة . فخلال ١٩ عاماً انقضت على غرس هذه الخلية السرطانية في الجسم العربي استطاعت اسرائيل ان تعد نفسها ليس للدفاع عن وجودها اللاشرعي فحسب ، بل لفرض العدوان والتوسع تحقيقاً لمخطط الصهيوني . اما العرب فقد فشلوا ، ليس فقط في الاعداد لمعركة التحرير ، بل كذلك في ان يكونوا بمستوى يمكنهم من صد العدوان الاسرائيلي التوسعي الذي تدعمه الامبريالية .

ثمة عدة اسباب تفسر نجاح العدو وفشلنا نحن . هناك اسباب سياسية وعسكرية وستراتيجية . وهناك التخلف العلمي والتقني . وقبل كل ذلك هناك فقدان الوحدة الفكرية ، وعدم تلمس الطريق الصحيح للنهضة .

لنأت الآن الى تحليل الاسباب . .

على الصعيد السياسي العربي كان كل بلد عربي يواجه الموقف المتفجر الناتج عن توقع العدوان الصهيوني بشكل انفرادي، وبحسب مواقف الحكم فيه وطابعه السياسي . وهذا ما أدى بالطبع الى نتائج سلبية الىمة .

وعلى الصعيد العسكري كانت وسائل الاعلام في البلدان العربية ، وخاصة مصر وسورية ، توحي للمواطن العربي العادي بأن القدرة العسكرية لدى البلدين تفوق ما لدى العدو من امكانات وسلاح . ومن يلاحق وسائل الاعلام المصرية كان يخيل اليه أن هذا البلد العربي الكبير قادر وحده، وخلال ايام معدودة، على انجاز معركة التحرير، أو على الأقل توجيه ضربة عسكرية صاعقة الى اسرائيل . وكذلك الحال بالنسبة لسورية . أضف الى ذلك كله ما رافق التدابير التي اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة قبل العدوان من تصريحات وتهاويل مما ساعد على شحن الجماهير العربية بايمان راسخ بالنصر دون أن تدخر شيئاً — وقد صور لها الموقف على غير حقيقته — لمواجهة احتمالات الهزيمة في هذه الجولة . وهذا ما جعل وقع النكسة مضاعفاً وصاعقاً[1] . وعلى الصعيد العسكري والاستراتيجي كذلك كان الخطأ في تقدير قوة العدو من اهم نقاط الضعف في الصف العسكري العربي . فقد اساءت المصادر المختصة في الجمهورية العربية المتحدة تقدير قوة العدو ، كما انها لم تستطع ان تؤمن تحقيق مستوى في التدريب والاستيعاب التكنولوجي يوازي المستوى الذي وصلت اليه اسرائيل . لقد تذرعت اسرائيل بالعمل الفدائي الفلسطيني لتبرير اعدادها للعدوان . ولكنها كانت في الواقع ترسم خططها منذ سنوات بانتظار الوقت

(١) وركزت معظم الدراسات التي نشرت حول النكسة على هذه الناحية بالذات . ذلك أن بعض أجهزة الاعلام العربية ، كانت السبب الاول في خداع الجماهير العربية ، واصابتها بخيبة أمل مريرة .

الملائم لتنفيذها ، وهذا ما حدث بالفعل.

وسط كل هذه الظروف والاوضاع قامت اسرائيل بعدوانها الغادر الصاعق بالتواطؤ العملي المموه مع بريطانيا والولايات المتحدة ، وبدفع من بريطانيا، العدوة التقليدية للعالم العربي . وانزلت اسرائيل بالدول العربية ضربة عسكرية وسياسية موجعة .. وكانت النكسة .

ويرى الكاتب ان العرب ربما كانوا في حاجة الى مثل هذه الصدمة الصاعقة لتهزهم هزاً شديداً وتستثيرهم للدفاع عن وجودهم ، والثأر لكرامتهم المطعونة . ان ما كشفت عنه احداث الايام الستة السوداء للعدوان من قصور وأخطاء وانهيار معنوي لجدير بأن يكون سياطاً تلهب ظهور العرب وتجعلهم يقبلون على الفداء ويقطعون مراحل الاستعداد للمعركة الحاسمة قفزاً ، متخطين كل الحواجز بارادة قوية . والمهم هو الافادة من الدروس المريرة . فثمة حقيقة تبقى متقدمة على سواها وهي ان العرب — والدول التقدمية بخاصة — لم يقذفوا الى المعركة التي كان يفترض ان تكون مصيرية وحاسمة الا بجزء صغير من امكاناتهم ، بينما استخدم العدو اقصى ما يملك من قدرة على التعبئة الشاملة . وعلى ذلك فان النصر السريع الذي حققه العدو على الصعيد العسكري بعيد عن ان يكون حاسماً لأنه يمثل الحد الاقصى لطاقته في مثل هذه الظروف ، ولأن امكانات العرب الهائلة قادرة في المستقبل على استعادة الحق المغتصب . صحيح ان التفوق العلمي والتكنولوجي الذي وصلت اليه اسرائيل قد لعب دوراً هاماً في تمكينها من احراز هذه النتيجة . ولكن من الضروري تجنب المبالغة في ابراز هذه الناحية ، لانها مهما بلغت لا يمكن ان تكون وحدها العامل الحاسم في تحقيق النصر .

ولنقل بصراحة وشجاعة ان الاعداد النفسي والمعنوي الذي واجه به العرب المعركة لم يكن ، بكل اسف ، بالمستوى المطلوب . فلو حارب كل عربي في خط النار بنكران ذات وتصميم راسخ على القضاء

على اسرائيل ، مثلما حارب الصهيوني ، لكانت نتيجة المعركة قد تغيرت ، أو على الاقل لأمكن كبح جماح الاندفاع الصهيوني .

ثمة حقيقة أخيرة ينوه بها الكاتب في آخر مقاله، وهي ان الانتصارات السريعة التي حققها العدو وما أحرزه من توسع جغرافي ، تعتبر في ذات الوقت عامل ضعف عسكري لما تفرضه عليه من اعباء لايستطيع تحملها طويلا . وقد ظهر خلال الحرب الأخيرة أن أقصى ماتستطيع اسرائيل تعبئته من قوى بشرية هو نصف مليون جندي . في حين أن إمكانات العرب غير محدودة في هذا المجال وان تطلبت هذه التعبئة تضحيات وموارد كبيرة . واسرائيل مها تدفقت عليها الأسلحة تبقى طاقتها على استخدام السلاح محدودة . وعنصر التفوق البشري عنصر حاسم هنا ، وسيكون بوسع العرب دوماً استيعاب انة كميات من المعدات والأسلحة . أما التفوق التكنولوجي للعدو فيمكن التغلب عليه بالامكانات البشرية وبالعزيمة الصادقة وبالتصميم على الانتصار .

* * *

دروس في المقاومة

ما أحوجنا ، ونحن في هذه الفترة العصيبة من حياة أمتنا ، أن نتطلع الى نضال غيرنا من الشعوب التي تعرضت لمثل ماتتعرض له من تكالب قوى الشر علينا . انها تجارب في النضال ودروس في المقاومة . التجربة النضالية الأولى أو الدرس الاول في المقاومة هو كفاح الاتحاد السوفيتي البطولي ضد القوى الفاشية في الحرب العالمية الثانية . ويقدمه لنا الاستاذ حلمي ياسين تحت عنوان : « كل شيء من أجل الجبهة .. كل شيء من أجل النصر » . والدرس الثاني في المقاومة هو تجربة كوبا النضالية الذي كتبه الاستاذ وديع أمين تحت عنوان : « كوبا في مواجهة الحرب

الاقتصادية الامريكية » . وقد نشر البحثان في مجلة الطليعة المصرية (١) .

والآن لنتابع معا هاتين التجربتين الرائدتين .

التجربة الأولى — الاتحاد السوفيتي :

في ٢٢ حزيران عام ١٩٤١ انقضت على الاتحاد السوفيتي ١٩٠ فرقة عسكرية معززة بحوالي خمسة آلاف طائرة واسطول بحري كبير . واستطاعت الجيوش الألمانية في الضربة الأولى — التي جاءت مفاجأة للقيادة السوفيتية — أن تحطم مايزيد عن ألف طائرة وهي جاثمة على الأرض ، وأن تدمر مئات الدبابات دون أن تطلق طلقة واحدة . وخلال الشهور الأولى من الحرب احتل الغزاة مساحات واسعة من الأراضي السوفيتية ذات أهمية حيوية ؛ وهي مساحات عامرة بأكبر المصانع والمعامل والمزارع. احتل الألمان اوكرانيا وبيلوروسيا وجمهوريات حوض البلطيق وقطاعات روسيا الاتحادية الواقعة في الغرب والشمال . وفي هذه المناطق كان يعيش ٨٨ مليون نسمة ينتجون ٣٣٪ من مجموع الانتاج الصناعي، وهذه المناطق تشمل ٤٧٪ من المساحة المزروعة . وبدا للمراقبين خارج الاتحاد السوفيتي أن النصر الألماني محقق . وأن خطة هتلر القائمة على اساس توجيه ضربة خاطفة ومركزة ضد القوات السوفيتية على وشك النجاح . ووضع النجاح السريع الذي حققه المحاربون في أول هجومهم الشعب السوفيتي كله والنظام الاشتراكي أمام امتحان رهيب وقاس . وتعين على القيادة السوفيتية أن تخوض بالشعب نضالاً لاهوادة فيه على مستويين :

أولهما : اعداد وتنظيم الجيش السوفيتي لخوض حرب كبيرة حديثة أمام عدو متفوق في التكتيك ومستند لامكانات وموارد أوروبا الاقتصادية معبأة على أعلى مستوى من التنظيم العسكري الألماني .

(١) مجلة الطليعة — العدد (٩) — ايلول ١٩٦٧ — القاهرة .

وخاض الشعب السوفيتي معارك ضارية، وقاتل قتالاً باسلاً وعنيداً دفاعاً عن أرض الوطن. واشتعلت حرب الأنصار خلف خطوط الالمان. وصمد المدافعون في المدن الكبرى ذات الأهمية الخاصة (لينينغراد ٩٠٠ يوم، وأوديسا ٦٩ يوماً وسيباستوبال ٢٥٠ يوماً) رغم التدمير الشامل؛ مما سمح للقيادة السوفيتية اكتساب الوقت لاعادة تنظيم القوات الاستراتيجية الاحتياطية، وأن تدفع بها في هجوم مضاد.

وثانيها: اعادة بناء مؤخرة البلاد من أجل التغيير الجذري في مسار الحرب. لذا رسمت القيادة خطة شاملة بحيث تجعل الصناعة والزراعة ووسائل النقل، والعلم والأدب والفن وقفاً على خدمة الجبهة. وتضمنت الخطة كذلك ربط جماهير الشعب — من كافة الفئات والأعمار — لكي يقدم كل فرد سوفيتي مايستطيع للمعركة.

ورغم الخسائر الفادحة والمفاجئة في المراكز الصناعية الهامة، فقد بادرت الحكومة السوفيتية بنقل ١٣٦٠ مصنعاً كبيراً الى شرق الاتحاد السوفيتي. وتم تركيبها واعادة تشغيلها في شهور قليلة. كما شرعت الحكومة في بناء مصانع جديدة، وحولت غالبية المصانع من الانتاج المدني الى الانتاج الحربي. وتحول الاقتصاد كله من اقتصاد سلم الى اقتصاد حرب. وفي النصف الثاني من عام ١٩٤١ بدأ تزويد القوات الجوية السوفيتية بـ ١,٧٥٠ طائرة شهرياً، ارتفعت عام ١٩٤٢ الى ٢٢٦٠ طائرة شهرياً. وبلغ انتاج الطائرات في العام المذكور ٢٦ الف طائرة من مختلف الانواع أي اكثر من انتاج عام ١٩٤١ بنسبة ٦٠٪.

ولما كان الحديد والصلب من أهم اسس الانتاج الحربي فقد بنيت في شهور قليلة افران جديدة كان بناؤها قبل الحرب يستغرق سنتين ونصف. وفي عام ١٩٤٣ تم بناء ٤٦ فرناً للحديد، وثمانية مصانع للدرفلة، وثلاثة لفحم الكوك. كما امكن

التغلب على أزمة الوقود ـ بعد ان وقع اكبر احواض الفحم الحجري في اوكرانيا بيد الالمان ـ بافتتاح مناجم جديدة في الأورال وعند الشواطيء القطبية. وبذل الشعب السوفيتي جهوداً كبيرة لاعادة بناء المناجم التي ضربت بحيث امكن استخراج ٢٣ الف طن من الفحم يومياً في شهر ايار في عام ١٩٤٢ وصلت الى ٣٥ الف طن يومياً في شهر تشرين الاول من العام نفسه، متجاوزة بذلك مستوى الانتاج قبل الحرب. وعندما قطع العدو وسائل المواصلات التي تربط بعض المناطق الصناعية مع القوقاز، وانقطع وصول النفط، ابتكر عمال البترول وسيلة فذة لحفظه. فقد نقلوه الى الوديان، وصنعوا بحيرات من النفط وسط الجبال. وبعد اعادة بناء وسائط النقل وانسحاب العدو تم استخدام هذا النفط.

اما بالنسبة للانتاج الزراعي فقد كان الوضع أشد قسوة بسبب احتلال مساحات واسعة من أجود الاراضي، وذهاب غالبية الفلاحين الى الحرب. وعمل الفلاحون في المزارع ببطولة نادرة ليمونوا الجبهة والمؤخرة بالمنتوجات الضرورية. وتقدم الشيوخ والنساء والأطفال للعمل في الحقول مكان الرجال الذين ذهبوا الى الحرب.

وازاء الصعوبات الناتجة عن نقص الايدي العاملة في المصانع اصدرت السلطة قراراً بتعبئة سكان المدن القادمين على العمل لفترة الحرب. وسمح هذا بوصول مئات الألوف من المواطنين الى المصانع وساحات البناء وشبكات المواصلات. وكان يجري تدريبهم امام الآلات مباشرة. وبرع ملايين النساء في مهن اعتبرت منذ قرون طويلة وقفاً على الرجل. وخلال عام ١٩٤٣ كان ٤٠٪ من عمال الحديد والصلب من النساء. ونظم الشباب السوفيتي فرق الشباب للعمل في المصانع. وبلغ عدد هذه الفرق عام ١٩٤٣ نحو ٤٥ الف فرقة. وقد وصلت نسبة النساء والرجال الذين تقدموا للعمل مكان

المحاربين الى مايعادل ٥٠٪ من عمال الصناعة و١٠٠٪ في ميدان الزراعة.

ان النصر الذي حققه الشعب السوفييتي على الغزاة ما كان ليتحقق فقط بفضل العشرين مليوناً الذين قتلوا او اعدموا او دفنوا احياء تحت الانقاض. وانما تحقق ايضاً بفضل الالتفاف الواعي للشعب السوفييتي حول قيادته، وبفضل ماقدمه هذا الشعب من تضحيات هائلة وشجاعة في كل نواحي حياته تحت شعار: كل شيء من أجل الجبهة — كل شيء من أجل النصر.

• • •

وتجربة كوبا النضالية هي صورة أخرى من صور الكفاح الشعبي والاصرار على الفوز، ودرس قيم من دروس المقاومة.

لم يكن الاقتصاد الكوبي، قبل قيام الثورة وبدء حركة المقاومة، سوى مزرعة للاستعمار الاقتصادي الامريكي. فقد كانت مزارع القصب — محصول البلاد الرئيسي — ومصانع تكرير السكر في الجزيرة كلها ملكاً « لشركة الفواكه المتحدة »[1]. كما كانت الشركات الامريكية تسيطر على موراد الكهرباء والمواصلات والنفط والمصارف. وقدبلغت جملة الاستثمارات الامريكية في كوبا عام ١٩٥٧ ما يزيد عن ٨٠٠ مليون دولار.

كان اول مافعله كاسترو بعد استلامه السلطة هو اصدار قانون الاصلاح الزراعي — ايار ١٩٥٩ — رغم معارضة الفئات السياسية الاخرى المشاركة في الحكم. وجاء القانون[2] ضربة موجهة في الاساس الى الاحتكارات الامريكية، وخطوة نحو التحرر الاقتصادي من قبضة الامبريالية الامريكية. واجتحت

(١) شركة امريكية كان ج. فوستر دالاس — وزير الخارجية الامريكية السابق — من اكبر المساهمين فيها.

(٢) نص هذا القانون على تحديد الملكية الزراعية بـ ٤٠٠ هكتار للفرد الواحد (الهكتار ٢,٥ فدان) ووزعت الاراضي المنتزعة على الفلاحين بمقدار ٢٧ هكتاراً للفرد.

الولايات المتحدة احتجاجاً رسمياً على هذا الاجراء . ولكن كاسترو لم يبال ، وصمم على الاستمرار في طريقه . وكان ذلك بداية الصدام بين كاسترو والولايات المتحدة .

وبدأت الولايات المتحدة تهدد بتخفيض حصتها من استيراد السكر الكوبي . ورفضت البنوك الامريكية فتح الاعتمادات الخاصة بالمعاملات التجارية مع كوبا . كما أوقفت الحكومة الامريكية تصدير البضائع الى كوبا ، واستخدمت نفوذها لدى دول امريكا اللاتينة لمنعها من المتاجرة مع كوبا . وكان من اخطر هذه الاجراءات وقف تصدير النفط الامريكي الى كوبا بهدف تدمير الاقتصاد الكوبي . وتوالت على كوبا الغارات الجوية تقوم بها (طائرات مجهولة !) لالقاء القنابل الحارقة على مصانع ومزارع القصب . وراحت القوى المضادة لثورة كاسترو تعمل من الداخل بعد الضائقة الاقتصادية التي راحت تمر بها البلاد .

ولكن اعمال التخريب لم تنجح الا في زيادة التفاف الجماهير حول ثورتها .

وراحت حكومة كاسترو تبحث عن اسواق جديدة لتصريف محصول السكر . وفي عام ١٩٦٠ وقعت كوبا اول معاهده تجارية مع الاتحاد السوفيتي ، وضمنت كوبا بموجب هذه المعاهدة تصدير مليون طن من السكر الخام سنوياً الى الاتحاد السوفيتي . كما شملت المعاهدة بنوداً اخرى تساعد على دعم الاقتصاد الكوبي واقالته من عثرته .

في تلك الاثناء راحت القوى المعادية للثورة الكوبية تتجمع داخل الولايات المتحدة لتدعم او تنضم الى الجيش المعادي في ولاية فلوريدا الامريكية .

ومنذ ٢٧ حزيران ١٩٦٠ اخذت المعركة تتخذ طابعاً جديداً وحاسماً . ففي هذا التاريخ اعلنت الشركات الامريكية امتناعها عن تكرير البترول السوفيتي . وجاء الرد سريعاً من جانب الثورة . ففي ١ تموز (يوليو) اعلن كاسترو تأميم مصانع تكرير النفط الامريكية

ومصادرة كافة منشآتها ووضعها تحت اشراف الدولة . وردت الولايات المتحدة يوم ٦ تموز باعلانها الامتناع عن شراء السكر الكوبي . وجاء الرد الكوبي عنيفاً وحاسماً كذلك في هذه المرة . ففي السابع من آب (اغسطس) اعلن كاسترو تأميم الاستثمارات الأمريكية في كوبا لصالح الشعب . وشمل التأميم المناجم والاراضي والشركات الصناعية . وبلغ عدد هذه المنشآت المؤممة ٦٠٠ منشأة اقتصادية .

بهذه الاجراءات الحاسمة كانت الثورة الكوبية قد وصلت الى نقطة اللاعودة في عدائها للاستعمار الامريكي ، واصبح حتماً عليها ان تواصل طريق النضال نحو انجاز مهام الثورة الوطنية .

بعد فشل محاولات الحصار الاقتصادي الأمريكي ومحاولات التخريب الداخلية بات مفهوماً ان الولايات المتحدة لن تتجرع الهزيمة وانها تحضر لعمل عدواني جديد .

في يوم ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٦١ فوجىء العالم بتدخل امريكا السافر ، ونزول قوات الغزو المعادية على الساحل الكوبي المؤلفة من عصابات المرتزقة والهاربين والمؤجورين الذين تم تدريبهم على ايدي المخابرات الامريكية في ميامي ، تساندهم وحدات امريكية من الاسطول والطائرات . وكانت المطارات الكوبية قد تعرضت للقصف والتدمير من قبل طائرات امريكية قامت من القواعد العسكرية الامريكية في دول امريكا اللاتينية المجاورة .

وهب الشعب الكوبي كله وراء الجيش الشعبي للدفاع عن الثورة . واستمرت المعركة ثلاثة ايام وانتهت بسحق قواعد الغزو الفاشل . ، ووقوع عدة مئات منهم اسرى في قبضة الشعب الكوبي . وتم الحاق اول هزيمة عسكرية بالولايات المتحدة في امريكا اللاتينية .. عقر دارها .

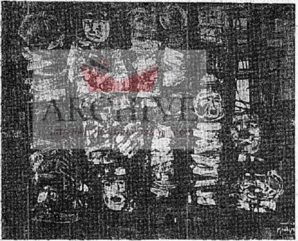
والآن وبعد مرور ثماني سنوات على

انتصار الثورة الكوبيـــة تبرز امامنا حقيقتان وهما :

● ان الولايات المتحدة لم تنجح في تحقيق هدفها الاساسي من وراء سياسة الحرب الاقتصادية . لخنق كوبا اقتصادياً ، ودفع الجماهير لاسقاط الحكم الثوري . بل على العكس لقد استثارت سخط الجماهير وحقدها ، وزادت من وعيها بمصالحها ضد الأخطار التي تهدد مكاسبها .

● بالرغم من معاناة كوبا الكثير من جراء الحصار الاقتصادي الذي شنته عليها الامبريالية الامريكية ، غير ان كل هذه الصعاب لم تمنعها من المضي الى الأمام في سبيل تنظيم وتطوير اقتصادها الوطني ، والتحرر من ربقة الاستغلال الأجنبي لخيراتها .

●



تابلو - لفاتح المدرس

نداء المثقفين العرب :

نشرت « المعرفة » في عدد الشهر الماضي نص النداء الذي وقعته طائفة من الكتاب والمثقفين العرب ، يدعون فيه الى اقامة صيغة من صيغ الوحدة بين الأقطار العربية ، وفيما يلي اسماء مجموعة جديدة من المثقفين والكتاب الذين وقعوا على النداء المذكور :

أساتذة جامعة حلب :

توفيق المنجد « رئيس جامعة حلب »
الدكتور انطوان ايوب (عميد كلية الحقوق)
الدكتور عادل العاقل (عميد كلية التجارة)
الدكتور سليم ياسين (وكيل كلية التجارة)

كلية الهندسة :

الدكتور احمد يوسف الحسن (العميد)
المهندس احمد الشهابي
المهندس اسماعيل حسني
الدكتور محمد بشير مكي
الدكتور محمد نزار قازان
هدى الصابوني
الدكتور تاج الدين ضياء
علاء الدين بعاج
جوني تقلا
رصينة الدهن
انيس دكر
زهير الجلواني
عربي قندلي
انطوان نحاس
ابراهيم حمد
محمد علي خلدجي
المهندس عبد الكريم حمامي
المهندس بدر الدين مولوي
الدكتور خالد ماغوط (الوكيل)
الدكتور محمد نوري خياطة
نصر عبد الرحمن
فاضل طباخ
المهندس سميح صافية
المهندس ميشيل اسود
المهندس نبيل مكية

كلية الزراعة :

الدكتور ابراهيم نحال
الدكتور عادل الحكيم

الدكتور سعيد مغربل (الوكيل)
حياة دواليبي (العميدة)

أساتذة جامعة دمشق :

الدكتور عدنان اسود (كلية العلوم)
الدكتور فؤاد شعبان (كلية الآداب)
الدكتور حسن كنيش
رندى الخالدي (كلية الآداب)

الكتاب والأدباء :

زكي الأرسوزي
ناجي علوش (فلسطين)
عبد اللطيف الكمالي (العراق)
علي التاجر (البحرين)
حسن جواد الجشي (البحرين)

* * *

عبد العزيز شملان (البحرين)
خلف المشدي (العراق)
محمد توفيق البجيرمي (فلسطين)
جبار يوسف (العراق)

* * *

المهندس سميح فاخوري (مدير اعادة
تسيير الخط الحديدي الحجازي)
المهندس مروان الجندي (مديرية اعادة
تسيير الخط الحديدي الحجازي)

وزارة المالية :

الدكتور صلاح دعبول
الدكتور سهام الشريف
توفيق صافي
عبد الغني الصابوني
عبد المعطي عزاوي
عدنان ملحم
عبد الله مكسور
عائد زيات
هرمز نابلسي
محمد المغربي
رتيب فرح
حماد عثمان
ناشد مشوح
الدكتور عفيف النص
حسن العادلي
جدعان عز الدين
امين الزيبق

معروف شويط
نعوم ابراهيم آغا
لطف الله مزهر
فايز الهامس
طانيوس فرزلي
نعيم المصري
عوني زكية
عبد الإله خوصي
الياس بخيل
ماجد شما
مأمون ابو الذهب

وزارة الثقافة :

عبد المعين ملوحي
موفق الخاني
صلاح دهني

وزارة الاقتصاد :

عدنان جمعة
محمد خير ايوب
تحسين هلال
معذى ابو عساف
عبد الكريم عيدو

حمدي عبد الرحيم
ابراهيم طاهر
شبلي ابو فخر
احمد الرحال العراقي
فائق المحمد
محمد طاهر الخطيب
عدنان شعبان
فاروق الشويكي
حبيب ملكي
عبد الرزاق الخالدي
مأمون كلثوم
ابراهيم مراد
نادر الأعوج
أمل السيد
وديعة التون
سلمى طنوس
محمد قلعجي
اسماعيل علي اديب
ابتسام تفتاف
امينة حمصي
فلك نظام
هيفاء الحسيني
منيا طنطا
سميرة دامون

عيد المصري
رجاء كنعان
حنان شيب
عدنان شموط
خالد السابق
سلمى الجزائري
علي خير بك ابو علي
جوزيف مدور
مرسل ابو عمر
ابو الهدى اللحام
محمد انور الطيبي
ميسر الجماس
عبد الكريم سفو

وزارة العمل :

احمد مروان حملاوي
طه حسين حسن
ثريا العشي
زكريا فراش
ابراهيم عزوز
عبد اللطيف الجاسم
غسان دباني
الدكتور احمد شوقي ربيع
الدكتور زاهد فردوسي
الدكتور مصطفى السيد

الاتحاد النسائي ، والمدرسات :

سعاد عبد الله
أمل حمصي
سعاد زين
رشيقة العمري
خديجة حمادي
نجاح رفاعي
سعاد ميرزا
وصفية لاذقاني
فاطمة حماس
أميمة العش
نبيلة الرزاز
غادة الجابري
دلال حاتم
طريفة حمودة
اسيمة مالك
عنان فتيحة
عصام فحام
نهلة الفحام
نجاح القمام
سوسن زمبركي

منى فحام
هندان صبري
مطيعة الكيلاني
ثريا العمري (رئيسة تحرير مجلة المعلم العربي)
لمياء الكيالي

* * *

جعفر الدرازي (رئيس رابطة طلبة البحرين بدمشق)
عبد الحي مفتاح الخير (رئيس فرع الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بدمشق)
الدكتور عبد الرحمن منيف (المملكة السعودية)
المهندس عفيف الراوي (العراق)
المهندس مفلح الراوي (العراق)
سالم سعيد (عمان)
حازم جلميران (العراق)
فوزي الكيالي (فلسطين)
اكرم الكيالي (فلسطين)

● في المهرجان الفني الذي نظمته الجمهورية العربية السورية ، في نطاق معرض دمشق الدولي الرابع عشر برزت ثلاث فرق شعبية هي : الفرقة اللبنانية والفرقة السوفيتية وفرقة أمية للرقص الشعبي .

الفرقة الشعبية اللبنانية تعتمد كعادتها على صوت فيروز وكلمات وألحان الأخوين رحباني ودبكات الشباب والفتيات . ومنذ فيلم (بياع الخواتم) أصبحت فيروز تتحرك على المسرح وهي تغني . قدمت الفرقة أوبريت (هالة والملك) التي حاول النقاد تأويلها ، بينما أصر الرحبانيون على أنها لاتخرج عن موضوع الحب .

من أروع ماقدمته الفرقة السوفيتية قطعة من باليه (العمياء) التي يحميها حبيبها من الأخطار .

أما فرقة أمية للفنون الشعبية فقد أدت لوحات أندلسية وريفية . كانت الموشحات الأندلسية من كلمات الشاعر حامد حسن ، وكان صوت صباح فخري كسباً للفرقة لأنه ربما كان أفضل صوت لأداء الموشحات الأندلسية ، ولكن هذا لايعني أنه كان أفضل صوت لأداء قصيدة (دمشق تصبغ المصابيح) للشاعر شوقي بغدادي المنشورة في العدد ٦٧ (أيلول ١٩٦٧) من مجلة (المعرفة) .

• في كانون الأول القادم يقام بينالي الاسكندرية الذي تعرض فيه لوحات تمثل آخر مستوى فني في حوض البحر الأبيض المتوسط .

• يفتتح في صوفيا معرض يمثل جميع الاتجاهات الفنية في سورية ، من لوحات الرائد التشكيلي توفيق طارق حتى آخر إنتاج خريجي كلية الفنون الجميلة بدمشق .

• لن نستعرض هنا جميع الافلام التي عرضت في مهرجان الدول الصديقة في دمشق الذي رصد ريعه لضحايا العدوان بل سنختار ثلاثة منها دون ان نلخصها

اولها الفلم الياباني (الأشباح) ، وهو يرمز الى الحضارة اليابانية التي سحقها الغزو الغربي . والفلم بذلك لا يعني اليابان وحدها التي تحتاج الى الحفاظ على هويتها الحضارية في سباقها مع التقدم العلمي العالمي ، بل يعني ايضاً سائر الشعوب التي تضيع شخصيتها دون ان تسير ولو في مؤخرة الركب العلمي وتكتفي باستيراد منجزات الدول المتقدمة .

والثاني هو الفلم السوفيتي (قسطنطين زازلينوف) . يكفي ان نستعيض فيه عن الصليب المعقوف بالنجمة الصيونية ليتضح لنا نموذج يصلح لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي بأقل قدر من الضحايا . في هذا الفلم نجد مهندساً روسياً يضع نفسه تحت تصرف القوات النازية المحتلة لوطنه ، ويرضى أن يوصم بالخيانة لينصرف الى تنظيم اعمال تخريبية تنظيماً سرياً بالتعاون مع رفاقه العمال .

والثالث هو الفلم المجري (العالم تحت قدميك) . فلاح مدين لإقطاعي ، يضطر لتزويجه ابنته ، وفي عرسها يرتدي فتيان من الغجر أقنعة ليرقصوا مع الفتيات حسب التقاليد المجرية . والعروس حبيب يبقى له من اقنعة الغجر قناع يرقص فيه مع حبيبته ويختطفها . ولكن ماذا ... لو لم يجد قناعاً ؟ كأننا بالآخرين يناوئون الحضارة التي سخرت التقدم العلمي لخراب الانسانية ، وكأنه بلا قناع شاهد إنساني يدين هذه الحضارة .

• اصدرت ندوة عبقر الأدبية في النجف الاشرف في العراق ، مجلة (عبقر) الشهرية . تضمن العدد الثاني (آب

١٩٦٧) قصائد ومقالات أدبية وقومية واجتماعية .

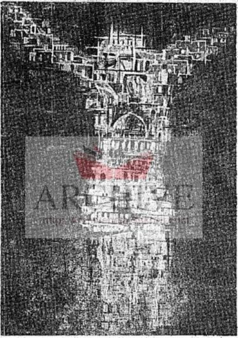
● قصيدة (حمدان) للشاعر السوري مروان الخاطر ، صدرت في كتاب عن دار الثقافة بدمشق .

● أصدرت مؤسسة الأنوار للتوزيع والإعلان والنشر في الكويت ، مجلداً في ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير تحت عنوان (أبحاث ودراسات في ملامح النهضة الكويتية) .

يضم المجلد دستور الكويت مع أهم التشريعات واسماء أعضاء الحكومات المتعاقبة في الكويت مع صور الوزراء ، هذا غير بعض القصائد والريبورتاجات . أعد هذا المجلد الصحفي السوري موفق بني المرجة .

● في مهرجان الأفلام البولونية الذي نظمته المؤسسة العامة للسينما بدمشق ، خلال شهر ايلول (دسمبر) ، أثبتت السينما البولونية انها تقف في طليعة الانتاج الفني في العالم الاشتراكي ، وان لها اتجاهاً خاصاً بها سواء في اخراج الموضوعات الانسانية بعيداً عن الزخرف والتزييف أم بأسلوب إخراجها وتقديمها .

فهي تعرض الحياه بعفوية ، وتقدم مشاكل الشباب بصراحة ، تبحث عن القلق الذي يعتريهم ، والذي يبدده تفاؤل الحياة بذاتها ، وامل الشباب بالانتصار على الشقاء . والطريف في السينما البولونية ايضاً ، كنموذج من الانتاج السينمائي الاشتراكي ، أنها لاتتورع عن مواجهة الأخطاء التي تقع في كل مجتمع ، كالانتهازية ، والوصولية ، والتسكع ، وتعالجها كما هي في واقعها المشخص ؛ واكثر ما يلفت الانتباه في السينما البولونية هو عفوية التمثيل ، وروعة الأداء والتصوير .



القدس

لغازي الخالدي

صدر حديثاً عن

«وزارة الثقافة – دمشق»

١ – نهب العالم الثالث :

كتاب يفضح استنزاف الاستعمار الجديد ثروات آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، تأليف بيير جاله .

ترجمة ومراجعة الدكتور يوسف شقرا وأديب اللجمي

لاغنى عنه لكل مثقف عربي .

٢ – المادة والذاكرة :

الكتاب الذي يعتبر منطلقاً لنظرية الفيلسوف الفرنسي برغسون

ترجمة الدكتور أسعد درقاوي ، مراجعة : الدكتور بديع الكسم

٣ – الحركة النقابية في العالم :

تأليف جورج لوفران ، ترجمة مهاة فرح الخوري، مراجعة أنطون حمصي

سجل كامل لأهم الأحداث والتنظيمات والاتحادات والقوانين والتشريعات التي أعطت الحركة النقابية شكلها الحديث .

٤ – من التخلف الى التطور الاشتراكي في القطاع الزراعي :

دراسة لمعضلات التخلف الزراعي تأليف : الدكتور صلاح وزان

٥ – سوسيولوجيا افريقيا الحديثة :

كتاب عن البنية الاجتماعية لافريقيا الحديثة تأليف: جان زجلر ، ترجمة : احمد القادري ، مراجعة مها شرشر وأنطون حمصي .

٦ ــ مناهضة الثورة في افريقيا :

فضح للاستعمار الجديد وتآمره على شعوب إفريقيا . تأليف : جان زجلر ترجمة : الدكتورة مارسيل عبسي ، مراجعة : اديب اللجمي .

٧ ــ محاضرات الموسم الثقافي ــ الجزء الثامن :

١٥ محاضرة عن موضوعات الساعة الهامة لكبار رجال الفكر العربي .

تحرص المجلة على التعريف بنتـــاج الفكر العربي الجديد بصورة خاصة ، ونتاج الفكر العالمي بصورة عامة . ويسعدها أن تتقبل شاكرة الكتب الجديدة التي تصدرها دور النشر العربية والأجنبية ، أو التي يبعث بها الينا مؤلفوها ، ليصار الى دراستها وعرضها في حقول المجلة .

. . .

— المقالات التي ترد الى المجلة، لاتعاد الى اصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

. . .

— ترجو المجلة من الكتاب الذين يبعثون اليها بمقالاتهم وبحوثهم ، أن تكون هذه مكتوبة بخط واضح جداً (والأفضل أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة) وأن تتضمن اسم كاتبها الحقيقي كاملاً ، وعنوانه واسمه الأدبي الذي يرغب في أن ينشر مع مقاله .

. . .

— ترجو ادارة المجلة من مشتركيها ومن أصدقائها الذين ترسل اليهم المجلة هدية ، أن يعلموها كتابياً عن كل تبديل يطرأ على عناوينهم .

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى ان يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » (وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي – دمشق) مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي او الجوي وفق الطلب .